الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التأليف

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

تأليف

محمود مصطفى

قدم له

الدكتور شوقي ضيف

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المحتوى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صحيفة

صفحة

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف
أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة

هذه دراسة جادة خصبة للأدب العربى وتاريخه فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى نهض بها المرحوم الأستاذ العالم الجليل محمود مصطفى على بصيرة وهدى . وليس البحث فى الأدب العربى المصرى فى تلك الحقب شيئا هينا يسيرا ، بل هو عمل مرهق عسير ، لأن كثيرا من معالمه يحفه الغموض وكثيرا من آثاره لم ينشر نشرا علميا دقيقا ، ولا تزال نصوص وفيرة منه مخطوطة لم تمتد إليها أيدى المحققين لتزيل منها الصعاب التى تفسد قراءتها والانتفاع بها على الوجه الصحيح .

وقد أقدم المرحوم الأستاذ محمود مصطفى على دراسة هذا الأدب فى عصوره الأولى ، غير حافل بما سيكلفه ذلك من عناء ويجشمه من مشقة ، بل لعله لذلك استحب العمل فيه ، حتى يظهره لقرائه كأوضح مايكون ، متخذا كل ما استطاع من أدوات البحث والدرس ، لاندفعه عن غايته عقبة مهما تكن شديدة العسر والالتواء .

وأول مايظهرنا عليه فى كتابه فتح العرب لمصر ونزولهم بها وتوزع قبائلهم فيها وامتزاجهم بأهلها فى السكنى مما هيأ من جهة لدخول كلمات قبطية فى العربية ومن جهة ثانية لتعريب مصر وانتشار الفصحى بها . وأخذ بعد ذلك يصور مظاهر الأدب العربى فيها لعهد الخلفاء الراشدين ثم لعهد الأمويين متتبعا من نزل بها من شعراء الحجاز ونجد والعراق وما نظمه فصحاؤها من أشعار وما دبجه ولاتها من خطب ورسائل . وتحدث عن إنعاش الولاة العباسيين للحركة الأدبية بها ومن ألم بها من شعراء العراق والشام . وجلى حياتها العلمية المبكرة ، سواء ما اتصل منها بالعلوم الإسلامية أو اللغوية أو الطبية وغير الطبية .

ومضى يبسط القول فى عصر الدولة الطولونية ومدى نهضة الشعر به مترجما لغير شاعر ، وتحدث عن نهضة النثر الديوانى وغير الديوانى وعن الآماد العلمية التى حققتها

مصر حينئذ فى مختلف فروع الثقافة العربية الإسلامية . وخرج إلى عصر الدولة الإخشيدية، فألقى عليه من الأضواء ما كشفه خير كشف سواء فيما يتعلق بشعراء مصر المستقرين بها أو فيما يتعلق بمن طرءوا عليها من الشعراء مثل المتنبى وغير المتنبى ، أو فيما يتعلق بكتابها وآثارهم المختلفة ، أو فيما يتعلق بعلمائها النابهين .

وتحول إلى عصر الدولة الفاطمية ، فصور ازدهار الحياة الأدبية فيه والعوامل التى أعدت لهذا الازدهار ونشاط الشعر بمصر وتكاثر الشعراء بها حينئذ ، وترجم لطائفة منهم ترجمات جيدة . وتحدث عن عناية الفاطميين بديوان الإنشاء ورسوم الكتابة الديوانية لعهدهم وتنوع أغراضها مقارنا بينها وبين الكتابة الديوانية فى بغداد مقارنات طريفة . ودرس الحياة العلمية لهذا العصر درسا مفصلا تحدث فيه عن خزائن الكتب وجمع الفاطميين لكنوزها النفيسة، وعرض فى دقة العلماء المختلفين من أطباء ومهندسين ومنجمين ونحاة ولغويين ومؤرخين وفقهاء ومحدثين كما عرض معاهد العلم ودوره .

وانتقل إلى العصر الأيوبى ، وأخذ يتحدث عن رعاية الأيوبيين للآداب والعلوم وتشييدهم للمدارس والمارستانات وإنفاقهم الأموال الطائلة على الحركتين العلمية والأدبية ، مما أتاح لهما نهضة عظيمة وأفاض فى الكلام عن ازدهار الشعر حينئذ ، وترجم لأصحاب الدواوين المطبوعة لعهده وأتبعهم بطائفة من أصحاب الدواوين التى لم تطبع فى أيامه ، راسما خصائصهم الفنية جميعاً . وعرض فى وضوح وجلاء نشاط الكتابة فى عهد الأيوبين ، سواء الكتابة الإخوانية أو الديوانية ، وصور طريقة القاضى الفاضل الإنشائية ، وفصل الحديث عن الحركة العلمية مترجما لنفر من العلماء البارعين

وبذلك كله استقصى المرحوم الأستاذ محمود مصطفى حقائق الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى استقصاء بذل فيه كل ما استطاع من جهد وكل ما أمكنه من دقة ، جزاه الله عن أمته وأعماله العلمية خير الجزاء .

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

مدخل[1]

عصور تاريخ الأدب العربى بمصر

مصر فى حياتها السياسية ظلت منذ الفتح الإسلامى إلى اليوم خاضعة لأحوال ومؤثرات غير ماخضعت له الأمة العربية فى غيرها من الأقطار ، فتبع ذلك أن يكون لتاريخ اللغة العربية بها عصور تلائم هذه المؤثرات السياسية وتختلف بها أحوالها من : ضعف وقوة ، وانحطاط وارتقاء ، وخمود وانتعاش ، على حسب تقلب السياسة بها واتجاه مجراها فيها ، وليس ينكر أحد ما للسياسة من تأثير واضح فى اللغة وآدابها .

ظلت مصر من بعد الفتح الإسلامى سنة ٢٠ ﻫ إلى قيام الدولة الطولونية بها سنة ٢٥٤ ﻫ ولاية تابعة للدولة يقوم بالحكم فيها وال يعين تعيناً ويتوقع العزل لوشاية تصل إلى الخليفة ، أو لمحض رغبة منه فى التبديل والتغيير للولاة ، حتى لاترسخ أقدامهم فى ولاياتهم فيفكروا فى الاستبداد بها ، والوالى مع كل ذلك لا يتصرف فيما يتولاه إلا بأمر هذا الغائب عنه ، فلا رأى له غالباً فى التدبير الذى يحضره إلا بالرأى يأتيه فى كتاب الخليفة أو الوزير منقولا على البريد المتردد بين عواصم الملك وولايات الدولة ، وتلك حال لا تسمح لذى الأمر أن يقضى بما تمليه الحوادث وتقتضيه المناسبات . ثم هو مغلول اليد فى المال الذى بين يديه محاسب على درهمه قبل ديناره ، مطالب بأن يرسل ذلك إلى خزانة الخليفة يقضى به حاجات نفسه قبل حاجات الناس ويسد به مطامع قواده وجنده قبل أن يصلح به أحوال البلاد التى انتزع ذلك المال من أهلها انتزاعاً .

هذه الحال تأبى على البلاد أن تتقدم فى مرافقها الحيوية كما تأبى عليها أن تنبعث همم رجالها فى أدب أو علم خصوصاً الدنيوى منه ، بل إن كل نابغ فى شىء من هذا تضيق به بلاده فيلجأ إلى عاصمة الخلافة حيث تتجمع سيول الخراج والجبايات وتنطلق فيها إرادة الخليفة وحده فيبذلها عن سخاء : جائزة لشاعر ، أو مكافأة لعالم ، أو أجراً لطبيب ، أو ثمناً لكتاب مترجم ، أو نحو ذلك .

كانت الأحوال متقاربة الشبه بين حكم الولاة من بنى أمية وبنى العباس ، ولم تنشأ

الأيام إلا أن تتعادل المؤثرات في العهدين إلا في القليل من الأمور ، فاقتضى ذلك أن تكون هذه المدة كلها في مصر عصراً واحداً نسميه عصر الولاة ويكون هو العصر الأول من عصور اللغة والعلم بهذه البلاد .

ثم نشأت حالة جديدة لا عهد لمصر بها ، وتلك هي أن يستقل بالأمر في مصر عاهل ينفض عن كاهليه نير العبودية المطلقة للخليفة ، وتسمو همته الى ما لم تسم إليه همة أمير قبله بمصر ، فينشئ ثاني مسجد بها ويبني أفخم القصور لنفسه ويختط لجنده وأتباعه مدينة عظيمة مساحتها ميل في ميل (١) ثم يكون الأمر في مصر من بعده لأبنائه وراثة لاينازعهم في ذلك منازع ، فيعمل ابنه مثل عمل أبيه في العمارة والتجديد وتكثيف الجند والإغراب في معداتهم ، وترتقي همته فيصاهر الخليفة بتزويجه ابنته ، بل يتزلف إليه هؤلاء الخلفاء فيمنحه بعضهم ولاية مصر ثلاثين عاماً له ولأبنائه .

في عهد هذه الدولة صار لمصر شأن غير شأنها الأول : زادت عمارتها فزادت جبايتها فأرضوا الخليفة ببعض المال وانطلقت أيديهم في سائره وهو كثير فكان منهم ما سيمر بك من بذخ وسخاء وترفيه على الناس ومنافسة لدار الخلافة في كل مظهر من مظاهر العظمة .

فهذا شأن جديد في البلاد استلزم أن ينشأ فيها لتاريخ اللغة عصر جديد شجعت فيه الآداب ، وارتفع للشعر من أهل البلاد صوت ، وصار فيها للكتابة شأن حتى حسدت بغداد مصر على بعض كتابها (٢) .

فهذا هو العصر الثاني الذي حكم فيه آل طولون ، ودام من سنة ٢٥٤ هـ إلى سنة ٢٩٣ هـ ويسمى عصر الدولة الطولونية .

ثم يعود عهد الولاة مرة ثانية في الفترة من سنة ٢٩٣ هـ إلى ٣٢٤ هـ فيقف تقدم البلاد ويتبعه وقوف العلوم والآداب ثم تقوم على أثره دولة تشبه الدولة الطولونية في الحكم ولكنها لا تكون لها سيطرتها ولا سطوتها ولا همتها في التجديد والأحداث ولا مقدار بذلها في سبيل العلم والأدب ، ولكنها على كل حال دولة لها شأنها قد حضر في أيامها إلى مصر أكبر شاعر في عصره وهو المتنبي طامعاً في جود المسيطر على الأمر

---

(١) كانت القطائع ميلا في ميل : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧ .

فيها ، فراجت للأدب سوق ، وكان لمجالسه انتعاش وتميزت أيام هذه الدولة عما قبلها وما بعدها فصح أن نجعل عهدها عصرا ثالثا نسميه عصر الدولة الإخشيدية .

ثم تجيء دولة قوية كان لها قبل مصر ملك وجيوش جرارة وغنى واسع فتضيف مصر إلى رقعتها وتعظم بها سطوتها وهى الدولة الفاطمية التى نافست الخلافة العباسية ببغداد منافسة حقة ، بل عارضتها معارضة شديدة بل دخلت جيوشها بغداد نفسها فخطب على منابرها للخلفاء الفاطميين أربعون خطبة وقد كان شأن هذه الدولة عجباً فى تشجيع العلماء والأدباء مما سنفصله فى الكلام عنها ، فكان عصرها جديراً بحق أن يكون عصراً جديداً لأدب اللغة دام قرنين ونيفاً من سنة ٣٥٨ ه الى سنة ٥٦٧ ه وهو العصر الرابع الذى نسميه عصر الدولة الفاطمية .

ثم قامت على أثرها دولة أخرى كان لها شأنها فى نشر العدالة بين الناس وصيانة البلاد من عدوان المعتدين وخدمتها للدين وعنايتهما بأهله ، فأحبها الناس حبا جما وتبارى الشعراء فى مدح رجالها وظهرت للأدب فى عصرها مزايا جعلته جديراً بأن يكون عصراً جديداً . وقد دام من سنة ٥٦٧ ه الى سنة ٦٤٨ ه وهو العصر الخامس المسمى عصر الدولة الأيوبية .

وعلى هذا النمط كان العصر الذى يليه وحكم البلاد فيه أولئك المماليك الذين لا يحسنون لغة أهلها ، ولكنهم أخلصوا الاخلاص كله لسيادة البلاد ولدينها وعلومها وإن كان قد قصروا فى حق الآداب فلم يشجعوها ، فكان ذلك عصراً جديداً وهو العصر السادس الذى نسميه عصر دولتى المماليك ، وقد دام من سنة ٦٤٨ ه الى سنة ٩٢٣ ه .

ثم كان عصر الحكم العثمانى الذى صارت البلاد فيه ولاية ، فعادت إلى شأنها الأول بعد أن جردها هؤلاء الفاتحون من خيرة رجالها فى العلم والصناعة ، وولوا عليها من حقروا لغة البلاد فلم يحاولوا تعلمها ولا تعرفوا عاميتها ، فبعدت الهوة بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو العصر السابع الذى نسميه عصر الحكم العثمانى وقد دام من سنة ٩٢٣ ه الى سنة ١٢٢٠ ه .

الفصل الأول

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية

- تمهيد
- الخطابة
- الكتابة

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية

تمهيد

١ – العرب بمصر منذ الفتح الإسلامى إلى ابتداء الدولة الأموية :

لا بد لمن يبحث فى الأدب العربى فى هذه الديار ويتتبع خطاه منذ الفتح الإسلامى ، أن يمهد لذلك ببسط الحالة التى كان عليها العرب فى تلك البلاد : من حيث العدد ، وطريقة الإقامة ، وتمكن السلطان ، وما كانت عليه البلاد من يسر وعسر ، وما نال الأدب فيها من عناية أو إهمال ، فإن كل ذلك أسباب تهيئ للحكم على اللغة وتعرف أحوالها : من اتساع وانقباض ، ونشاط أو كسل ، ورواج أو كساد .

نعرف أن العرب فتحوا مصر على يد عمرو بن العاص فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ من الهجرة ، وأنه قدم إليها فى أربعة آلاف مقاتل كانوا جميعا كما يقول المؤرخون من قبيلة «علك بن عدنان» (١) ، وأنه بعد دخوله مصر أمده الخليفة بأربعة آلاف آخرين (٢) ثم بغيرهم وغيرهم حتى كان جميع من قدم إلى مصر فى فترة الفتح ستة عشر ألفاً ، مات منهم كثير أيام الفتح .

ذكر يزيد بن حبيب أن عدد الجيش الذى كان مع عمرو خمسة عشر ألفا وخمسمائة ، وذكر عبد الرحمن بن سعيد أن الذين جرت رماحهم فى الحصن من المسلمين كانوا اثنى عشر ألفاً وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار (٣) .

فتح العرب حصن بابليون ثم قصدوا إلى الإسكندرية ففتحوها ثم عادوا بعد ذلك إلى حيث فسطاط قائدهم وتجمعوا حوله . قال : انضمت القبائل بعضها إلى بعض

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .

(٢) المرجع ذاته ص ٦٤ .

(٣) المرجع ذاته ص ٧٨ .

وتنافسوا فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبى ، وشريك ابن سمى القطيفى من مراد، وعمرو بن مخزوم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين هجرية (١)

هذا ما كان من أمر جمهور العرب ، وقد بقى منهم بالإسكندرية الزبير بن العوام ومن معه ولم يكن بها خطط ، وإنما كانت أخائذ ، من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو أبيه .

واختطت همدان ومن والاها الجيزة لأنها استحبتها وأرادها عمرو على النزول بجواره فى الفسطاط فأبت فبنى لها حصناً يقيها الأعداء كما أشار عليه أمير المؤمنين عمر (٢) ، وكان لكل بطن منهم خطة وبين كل خطة والتى تليها فضاء ، فلما قدمت الأمداد فى زمن عثمان ثم فى زمن معاوية ومن بعده وكثر الناس ووسع كل قوم لبنى أبيهم كثر البنيان والتأمت الخطط .

٢ — وصف مقام العرب بمصر إلى آخر الدولة الأموية :

كان عمرو بن العاص يجمع الجند حوله فى الفسطاط ، فإذا خرجوا لقتال عادوا إلى خططهم ، حتى إذا حضر أوان الارتباع سمح لهم عمرو بالانصراف إلى المرابع ووصاهم بجيادهم قائلا : لا أعلمن ما جاء رجل قد أسمن نفسه وأهزل فرسه ، فإذا حمض اللبن وكثر الذباب وقوى العود فارجعوا إلى قيروانكم . وكان يوصيهم خيرا بمن يمرون بهم من أهل البلاد فيقول : واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرا ، ويروى لهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة ، وكان يقول لهم واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة (٣) .

★ ★ ★

هذه هى السياسة التى سار عليها عمرو بمصر : يجمع القبائل حوله طول العام حتى

---

(١) المرجع ذاته ص ٧٩ .
(٢) المرجع ذاته ص ٨١ .
(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ .

إذا حل الربيع أباح لهم الإرتباع وشرط عليهم العناية بخيولهم ووصاهم بحسن الجوار للأقباط فى أريافهم ، حتى إذا عادوا إليه أقاموا إلى الربيع القادم متأهبين للحرب وصد الغارة ، وقد حرم عليهم عمرو اتخاذ المزارع بأمر عمر بن الخطاب الذى أخرج مناديه إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يتقدموا إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون .

وقد أتى شريك بن سمى القطيفى إلى عمرو بن العاص يستأذنه فى الزرع فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك ، فزرع شريك من غير إذن عمرو فشكاه إلى عمر فاستقدمه إليه ، ولكنه تاب على يديه فعفا عنه (١) .

وما اتخذ عمر هذه السياسة ولا وصى بها عماله إلا ليجعل العرب فى رباط دائم ليكونوا على استعداد لعدوهم .

ولا بد أن نؤمن بأن هذا العدد الذى دخل مصر فى أول فتحها قد زاد بالتوالد وتتابع الهجرة التى كان من أسبابها حلول القحط فى بلاد العرب فى بعض الأعوام ، وقد كانت مصر والشام ملجأ العرب حين حلوله حتى فى أيام الجاهلية ، وكانوا يسمون هذه الأعوام أعوام الجلاء .

ولما فتحت مصر وشاع خبر خصبها كانت مقصد كل طامع فى الرخاء واليسر ، يقدم إليها آنسا بمن فيها من بنى أعمامه وأخواله من الفاتحين .

وقد استلزمت سياسة العصبية القبلية أن يستكثر الوالى حوله من أهل قبيلته حيث يكون ليكونوا ظهره وعونه على أعدائه من القبائل الأخرى ، وكذلك كان الخلفاء يحرصون على أن يكون لهم بكل مصر جمهور من أنصارهم ليأمنوا الثورة على ولاتهم خلع طاعتهم فى تلك الأمصار .

ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يقرب قبيلة العدنانية لأنهم نصروه وأيدوا سياسته ولم يكن منهم بمصر إلا بعض البطون فأمر بإلحاق ثلاثة آلاف منهم بمصر وتحويل ديوانهم إليها (٢) ، فأنزلوا بالحوف الشرقى (الشرقية والدقهلية) وأمرهم بالزرع ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا .

★ ★ ★

(١) المرجع ذاته ج ١ ص ٩٣ .
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٨ .

أن وطبيعى سياسة عمر بن الخطاب حيال جند العرب لاتستمر نافذة محترمة ، فإن للأيام والسياسات تغيراً لايثبت معه شيء ، فهؤلاء العرب الذين جعلهم عمر وعمرو فى الرباط قد استكانوا واستناموا إلى الراحة وسكنوا الدور واتخذوا السرارى من بنات الأقباط والروم كما ألفوا الريف لا يريمونه . وقد رأيت أن هشاما أمر قيساً أن تزرع وقد كان هذا محرما على أيام عمر .

ولكن الذى ينبغى ألا ننساه أن العرب بقوا إلى آخر الدولة الأموية قلة إلى جانب الأمة المصرية منحازين وحدهم لموضع العصبية فيهم ولأنفسهم من الاختلاط ، لذلك بقى أهل الريف من القبط يتكلمون بالقبطية ولا يعتنقون الإسلام حتى أظلت القوم الدولة العباسية (١) .

٣ — توزيع العرب بأرض مصر :

من الفائدة للباحث فى اللهجات المختلفة التى نسمعها الآن بمصر وتمت إلى العربية بسبب أن يتوسع فى معرفة القبائل التى نزلت بمصر منذ الفتح الإسلامى إلى أن انقطعت الرحلة واستقر كل قوم فى أماكنهم من البلاد المفتوحة .

وفائدة هذا التوسع أن الباحث فى تلك اللهجات يستطيع أن ينسب ما يسمعه منها إلى القبائل التى أقامت جمهرتها حيث تسمع الآن تلك اللهجات ، فبذلك يمكنه أن يفصل القول فى لهجات العرب ويحكم لكل قبيلة بما كانت تمتاز به من غيرها . وقد فات المتقدمين التوسع فى هذا البحث فلم يدونوا منه إلا نتفا قليلة .

ولقد حاول المرحوم محمد حفنى ناصف تلك المحاولة فى كتابه «مميزات لغة العرب» وهو البحث الذى تقدم به إلى مؤتمر المستشرقين فى فينا سنة ١٨٨٦ م فإنه رحمه الله حكم بأنه لابد من صلة بين ما تسمعه الآن من لهجات السكان بجهة من الجهات بمصر وبين لهجة العرب الذين نزلوا تلك الجهة وكثروا بها ، وهو حكم صادق لأن القوم إذا استقروا بمكان وكانوا كثرة غالبية فيه بقيت لغتهم ولهجتهم ماثلة على الأيام إن دام لهتم الاستقرار وضمنت لهم الغلبة فى عددهم على الطارئين عليهم فى موطنهم . على أنه

---

(١) محاضرات المرحوم الخضرى عن الدولة العباسية ص ٤٤ .

(٢) مميزات لغات العرب ص ١٣ ، ص ١٤ .

مهما طرأت عليهم الطوارئ فلابد من بقاء مسحة من لغتهم ماثلة فى اللغة التى انتهى إليها التغلب على ذلك الإقليم .

ويحسن أن نستطرد إلى بعض ما استنبطه حفنى ناصف من ذلك قال :

(١) حمير تبدل لام التعريف ميما فيقولون (طاب امهواء وصفا امجو) أى طاب الهواء وصفا الجو ، وقد نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتهم فقال يخاطب بعض الحميريين : (ليس امبر امصيام فى امسفر) . ويسمى هذا الابدال طمطمانية حمير. ويمكن أن يخرج عليه قول العوام فى الديار المصرية كلها إلا أهل مديرية الشرقية (امبارح) يعنون البارحة وهى أقرب ليلة مضت وأهل الشرقية يقولون البارح كما يقول جمهور العرب من غير قلب . (١)

(٢) من تميم من يقلب ألف المقصور همزة فى الوقف فيقول فى الهدى الهدأ ، وعلى ذلك قول عوام المصريين فى لا (لأ) (٢)

(٣) ومن لغة طيئ القطعة وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون : (يا أبا الحك) يريدون يا أبا الحكم ويقولون لم يسم يريدون لم يسمع . قال والقطعة هى لغة كثير من أهل البلاد المصرية الآن كالمحلة وما حولها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مديريتى الجيزة وبنى سويف ، ويقولون النهار طل أى طلع والنور ظه أى ظهر (٣) وهلم جرا .

* * *

لو أن المؤرخين توسعوا توسعا تاما فى بيان منازل القبائل النازحة إلى مصر بعدالفتح ، ففصلوا القول فى ذلك وعنوا دائما ببيان عددهم وتتبعوا ما كان من استقرارهم بمكانهم الأول ، ونزوحهم عنه ، ثم لم يكن قد كثر من هؤلاء العرب تغيير لمنازلهم الأولى لكان حكمنا على ما نسمع من اللهجات اليوم حكما صادقا على لهجات تلك القبائل فى عقر بلادها ، ولكن ذلك أمل لا يتحقق للباحث كاملا كما يريد .

وسنذكر لك بعض ما ورد فى كتب التاريخ عن نزوح القبائل العربية إلى مصر

---

(١) ميزات لغات العرب ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١ .

ومواطنها لتلك البلاد ففى ذلك مايؤنسك فى الحكم على ما نسمع من لهجات ونسبتها إلى أهلها من القبائل فى جزيرة العرب .

قالوا : من القبائل التى اختطت بالفسطاط وأقامت بها مهرة وتجيب ولخم وغسان وغافق ومن بنى غافق بطن يعرفون ببنى قرافة سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا فى البلاد المصرية .

وبعد أن تم فتح مصر سير عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبيلة بلى من قضاعة إلى مصر فانتشروا فى البلاد ولا سيما حول اخميم ثم تصالحت مع جهينة على أن يكون لها من الشرق من عقبة إلى عيذاب (القصير) .

وفى إمارة الوليد بن رفاعة على مصر سنة ١٠٩ نزل بنو سليم (وهم من قيس) بأرض مصر وكانوا ثلاثة آلاف فأنزلهم الوليد الحوف الشرقى . وسكن بنو عقبة وهم من جذام ما بين أيله (١) والحوف ، كما سكن قوم من جذام أيضا ومن لخم بالإسكندرية.

وجاء فى كتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب) للمقريزى :

وفى بلاد الاشمونيين قريش ، وفى معظم بلاد بهنسة لواته ، ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية، وبلاد الفيوم بنو كلاب .

وفى كتاب « قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان » للقلقشندى : وفى بلاد الصعيد (بمنفلوط) قوم من كلب . وبنو كنانة بالدقهلية والمرتاحية .

وبه أيضا : ومن فزارة (وهم من قيس عيلان) بنو مازن ومساكنهم بلاد القليوبية وأولاد عمهم بنو بدر ومن هؤلاء أسرة القلقشندى . وبنو هلال (من عامر بن صعصعة من قيس عيلان) لهم بلاد أسوان من الديار المصرية . وكانوا أهل الصعيد كله إلى عيذاب .

هذه صورة من كلام القوم عن القبائل التى نزلت بمصر وقد تجلى فيها ما قلناه من عدم استقرار القوم بالأماكن التى ينزلونها أولا كما بان عدم الدقة التى كانت تستوجب ذكر الغالب والمغلوب من القبائل التى اشتركت فى جهة واحدة .

٤ ــ انتشار العربية بمصر (١) :

كانت اللغة اليونانية منتشرة بمصر من أيام البطالسة وظلت أيام حكم الرومان حتى

(١) هذا الفصل ملخص عن كتاب الأستاذ محمد كامل حسين مع زيادات .

إن الوالى الرومانى كان يصدر منشوراته إلى المصريين باليونانية ، وبلغ من ذيوع تلك اللغة أن كانت بعض صلوات الكنائس المصرية ترتل بها ، على حين كان مرتلوها إنما يتكلمون فيما بينهم بالقبطية . وكان من أثر اليونانية أن كتبت القبطية بحروف يونانية كما امتلأت بالدخيل من ألفاظ تلك اللغة . ولكن الغلبة لليونانية إنما كانت بالأمصار حيث تعلم اليونانية بالمدارس ، أما فى الأرياف وبلاد الصعيد خاصة فكانت الغلبة للقبطية .

وفى القرن السادس الميلادى لما ازداد شعور المصريين بالاضطهاد وكرهوا كل ماهو أجنبى حاربو اللغة اليونانية فى الكنائس وأحلوا القبطية محلها فى الأدعية والصلوات فضعف شأن اليونانية ولكن ذلك لم يمنع أن ظلت اليونانية مستعملة بمصر إلى ما بعد الفتح الإسلامى ، فقد حفظت أوراق من البردى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية ، وهى وثائق من الوالى نفسه ، وأخرى كتبت باليونانية وحدها . ولا يوجد من الأوراق ما كتب بالقبطية فمما ذكره مؤرخو العرب من كون الدواوين بمصر كانت بالقبطية ثم نسخت بالعربية لايؤيده شىء من الآثار المحفوظة ، وقد يكون الحاصل للعرب على هذا الزعم أنهم لما رأوا عمال الدواوين بمصر من الأقباط ظنوا أن عملهم فيها كان بالقبطية ، ولكن يبعد هذا الزعم ما عرفته آنفا من عناية المصريين باليونانية حتى إنهم كانوا يتعلمونها بالمدارس ، وحتى كانت هى اللغة الرسمية فى حكم الرومان والعرب من بعدهم .

أما النص العربى الذى كان مصدر هذا الزعم فهو ما قاله الكندى فى كتابه « الولاة والقضاة » قال : (.. حتى كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله اشناس عن الدواوين وجعل عليها ابن يربوع الغزاوى من أهل حمص وذلك سنة سبع وثمانين هجرية » (١)

* * *

على أثر الفتح الإسلامى لمصر بدأت العربية تزاحم القبطية واليونانية ، وكان للمجاورة بين العرب والأقباط أثر فى ذلك لحاجة هؤلاء إلى مخاطبة جيرانهم فى كل ما يتصل فيه المحكوم بحاكمه ، وكذلك كان لتبديل لغة الدواوين وجعلها بالعربية أثر

---

(١) ص ٥٨ .

آخر ، وكان من نتائج ذلك أن القسيس بنيامين أجاد تعلم العربية حتى إنه شرح بها الإنجيل للإصبع بن عبد العزيز بن مروان . وكان كل من أسلم من القبط إما اقتناعا بفضل الإسلام أو هربا من الجزية مضطرا أن يتعلم العربية ليقرأ بها القرآن وحديث رسول الله وليفهم الدين من أفواه رجاله . وما زالت العربية تزاحم القبطية حتى ان القديس شنودة كتب مؤلفاته بالقبطية ثم اضطر أن يترجمها إلى العربية ليتسنى للأقباط أن يقرءوها .

وقد ذكروا عن مراسيم الكنيسة القبطية أنها كانت قديما تكتب باليونانية وتشرح للناس بالقبطية ثم صارت تكتب بالقبطية . وتشرح بالعربية ، وما زال الزمن يتقدم والعربية تنتشر حتى كان المصرى المثقف فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) يفتخر بأنه يعرف القبطية . وحدث أن الأقباط رأوا لغتهم تتقهقر أمام العربية فأرادوا أن يعملوا على إحيائها فلم تنجح حركتهم وكان ذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى لأن العربية كانت قد ثبتت حتى لا يستطاع زحزحتها ثم بلغ من جهل الأقباط للغتهم أن المسعودى حين زار مصر سأل الأقباط عن معنى كلمة فرعون فلم يظفر بجواب وقال فى ذلك فى الجزء الأول من كتابه مروج الذهب ص ٢١١ . « وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير « فرعون » فلم يخبرونى عن معنى ذلك » .

وأخيرا كانت القبطية لا تستعمل إلا فى الأديرة وعلى ألسنة النصارى من أهل الصعيد ، كما ذكروا أن قرية « درنكة » بجوار أسيوط يعرف أهلها من النصارى اللغة القبطية ويتكلم بها صغيرهم وكبيرهم ويفسرونها بالعربية .

وبحكم التماذج بين العنصرين القبطى والعربى تكلم بعض العرب بالقبطية . فقد قيل إن البطريق توما لما حوكم سنة ٨٥٠ م خاطب أهل ملته بالقبطية بحضور جماعة من العرب ففهموا كلامه وأنهوه إلى القاضى .

وكان من نتيجة التمازج أيضا أن وجدنا كلمات فى اللغة التى يتخاطب بها المصريون وهى قبطية الأصل ننقل إليك هنا بعضها من مصدرين لم نطلع على غيرهما ولعله لا يوجد بأيدى الناس إلا هما .

(١) فأولها محاضرة ألقاها الدكتور جورجى صبحى ألقاها بقاعة يورت التذكارية من الجامعة الأميريكية وقد ذكر فيها هذه الألفاظ :

ميس : ما يوضع أمام الكرة فإذا اصطدمت به عد اللاعب غالبا

سنو : اثنين . كحكو ٪ (ينحنى) وكلاهما اصطلاح فى لعب الكرة أيضا

ماجور : وعاء

بشكور : ما يجذب به الخبز من الفرن .

عا : زجر للحمار وحث له على السير .

وهروط : معصرة سميت بها بلدة كان بها معصرة .

سندبيس : اسم بلدة من بيسا اسم اله . ومعناها أسس بيا .

طيما : هيكل طوم .

طحطا : هيكل الأرض .

صفت : اسم بلدة من اسم الإله (سبت)

(٢) وثانيهما : كتاب مجموع الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامة ، تأليف اقلديوس ى لبيب . والجزء الذى اطلعنا عليه من هذا الكتاب هو الرسالة الأولى وبها ١٥٥ كلمة . منها ما يلى :

حالوم : جبن (جبنه)

ياما : كثير . أخ – أه : كلمة توجع تقول أخ يازا أو آه يانا .

ها : نعم . يقول الأب أنت يابنت تقول البت : هايا بوى أى نعم

باش : لان . بشبش : لين وطرى

بعبع : عفريت مصرى استعمل واتخذ لتخويف الأولاد .

بك : أسقط ومنه ضربه حتى بك الدم من عينه .

أردب المكيال المعروف وأصله أرطبة وكذلك ويبه وهى سدس الاردب .

تليس : زكيبة .

طياب : ريح الشمال . مريس : ريح الجنوب

نوى : حذاء : يقول الناس آه يابن النوى .

با : إما يقولون خذ ده با ده .

يم – يام : بحر

كوش : استولى ومنه كوش على كل حاجة .

كانى ، ومانى : سمن ، عسل تفسران فى كل موضع بمعنى (بكل سهولة)

ليلى : فرح وانشراح ومنه قولهم فى الغناء ليلى ياعينى

يقف : جلد النعجة أو أى حيوان ومنه قولهم روح يا بقف وهى تقال للاحتقار الزائد

تاراللى : قليل الفهم أو مخرف ومنه قولهم عقله تراللى .

سهراية : حرارة الشمس واصلها شاهرى

شأشأ : طلع ومنه قولهم النور شأشأ ـ.

حاتا باتا : لا شيء عندى وحاتا معناها جلد ، وباتا عظم أى جلدى على عظمى

حتتك بتتك : أخذ كل شيء والأصل أكل الجلد والعظم .

هبوش : لعبة غير محسوبة .

هوب هوب يازرع النوب : معناها الشغل الشغل يازارع الذهب أى الذى يكسب الذهب .

جاى : النجدة من قولهم يا أولاد جاى فهى كلمة استغاثة .

والذى تلاحظه أنهم يعدون من القبطية كلمات هى لا شك عربية مثل تل . ونكبة ومشط . وشنشن بمعنى طن وغير ذلك وحضرات الباحثين الذين عدوا هذه الكلمات قبطية معذورون لأنهم وجدوها فى معاجم اللغة القبطية ، ولكنها عربية الأصل استعملها إخواننا الأقباط قديما فعدت من لغتهم وتصرفوا فيها بالاشتقاق وغيره فصار الذين بعد عنهم العهد بدخولها إلى لغتهم يعتقدون أنها أصيلة فيها .

مظاهر الأدب العربى بمصر
فى مدة الخلفاء الراشدين

هذه المظاهر هى مظاهر هذا الأدب فى كل البلاد التى فتحها العرب ولم يكونوا بعد قد توثقت علاقاتهم بأهل البلاد المفتوحة ، ولا نسوا عاداتهم القديمة ولا تأثرت لغتهم بعجمة تلك الأمم فكانت مظاهر هذا الأدب هى الإفصاح الذى لا تشوبه شائبة — فى مجالس سمرهم ، وفى أسواق معاملاتهم ، وفى خطب ولاتهم ، وفى الكتب المتبادلة بينهم وبين الخلفاء فى شئون الدولة وتدبير أمر هذه الأقاليم ، كما كان لهم الشعر الذى عرف فى هذه الأمة بالكثرة التى لا حد لها حتى كاد يكون كل قائل منهم شاعرا ، ولكنه ظل كما كان شعر الفطرة الذى عرف لعرب الجاهلية أولا والإسلام ثانيا لا زخرف فيه ولا زينة ولا ملق ولا دهان ، فهو شعر النفس المرسلة يقوله الرجل فى مفاخر آبائه وفى الاعتزاز بدينه كما يقوله فى الحكمة التى أفادهم الإسلام كنهها ، وأشعرهم جلالها .

وسيكون همنا أن نمثل لكل هذه المظاهر بأدب مصرى تحركت به ألسنة العرب فى مصر حتى لا نخرج عن الجادة التى رسمناها لأنفسنا فى هذا الكتاب .

أولا ـــ الخطابة

هى زاد القوم فى مثل هذه الأحوال التى كانت للمسلمين يوم ذاك ، يحتاجون إليها للحث على القتال ونشر الدين ، كما يحتاجون إليها فى إعلان رأى فى السياسة بدا لهم أن يطلعوا الناس عليه وهم مدفوعون إليها لأنها قد وجبت بالإسلام فى كل أسبوع مرة ، والقوم بعد يملكون أداتها من اللسن وحضور البديهة فلم يكن يدفعهم عنها عجز ولا يقصر بهم عن مواقفها عائق . كان الخليفة يخطب فى البعث يرسله ، وفى الأمداد يسعف بها قواده ، وكان الوالى يقوم بها فى كل جمعة وفى كل مناسبة مذكرا بالله حاثا على تقواه حاملا جنده على الصبر فى القتال أو البقاء فى الرباط ، ناصحا لهم بما ينبغى أن يكونوا عليه من حسن الجوار لمن يخالطوهم من أهل البلاد المفتوحة .

وقد كان العرب يقومون بالخطابة فى مصر قائلين فى هذه الأغراض السابقة ، مثلهم فى ذلك مثل إخوانهم فى جميع الأقطار . فمن ذلك :

١ ــ خطبة عمرو بن العاص فى جيشه (١)

رواها صاحب أشهر مشاهير الإسلام من تاريخ ابن عساكر قال :

أقام المؤذن الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر فإذا رجل قصير القامة أدعج أبلج عليه ثياب موشية كأنها العيقان تتألق عليه وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم وحض على الزكاة وصلة الرحم ونهى عن الفضول وكثرة العيال وقال فى ذلك :

يامعشر الناس : إياى وخلالا أربعا فأنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز . إياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال والقيل والقال فى غير درك ولا نوال . ثم إنه لا بد من فراغ يئول المرء إليه فى توديع

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام حـ ٣ ص ٦٥٠ .

جسمه والتدبير نشأته وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه عادلا .

يامعشر الناس : قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوفاء(١) وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل (٢) وعلى الراعى حسن النظر ، فحى بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيره ولبنه ومرافقه وصيده وأريعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم .

واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيرا . وإياى والمومسات المفسدات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم ، فلا أعلمن ما أتانى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك .

واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة. حدثنى عمر أمين المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض) فقال له أبو بكر ولم ذاك يا رسول الله ..؟ قال لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة. فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم وأقيموا فى ريفكم ما بدا لكم فإذا يبس العود وتحقق العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد فحى على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته أ هـ .

---

(١) يريد وفاء النيل أى زيادته .

(٢) السخائل جمع سخلة وهى ولد الضأن ما كان وجمعها كما فى القاموس المحيط سخال وسخل وسخلة وسخلان ولكنه أتى بها على سخائل ليزاوج بينها وبين الحوامل .

٢ — خطبة قيس بن سعد لما بعثه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، أميرا على مصر (١)

دخل قيس فى سبعة من أصحابه فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب أمير المؤمنين فقرئ على أهل مصر بولايته وبأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق . ثم قام قيس خطيبا فقال : الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين .

أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فإن نحن لم نعلم لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر .

٣ — خطبة محمد بن أبى بكر لما ولاه علىّ أمر مصر وعزل به قيس بن سعد. لما قدم محمد مصر قرأ كتاب على علىّ أهل مصر ثم قام فقال : (٢)

الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنى وإياكم كثيرا مما كان عمى عنه الجاهلون . إلا أن أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد إلى ما سمعتم . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى له . وإن رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه إلى وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٨ .

الكتابة

تمثلت كتابة هذا العصر فى تلك الرسائل السياسية التى تبودلت بين الخلفاء وولاتهم فى شئون الحكم ومقتضيات الرياسة ، وكان لها أيضا مظهر ناشط فى كتب كانت بين الزعماء ورؤساء الأجناد يدعونهم إلى حزبهم ويزينون لهم مذاهبهم ويطمعونهم فى الخير من وراء متابعتهم .

وقد كان من هذه الكتب كثير وجه إلى مصر وصدر عنها خصوصا ما يتصل بالزعامة ويدعو إلى الانتصار لفريق على آخر ، لأن لمصر مكانتها بين الولايات فى قوة جيشها ومناعة موقعها والتعويل على رأيها فى السياسة القائمة ..

وسترى مما نرويه لك من هذه الآثار أمثلة شاهدة بالصراحة فى القول ، والحرص على مصالح المسلمين والرعاية لعهود أهل الذمة ، كما ترى جنوح السياسة والمبالغة فى تزيين الرأى ، والإطماع والتأميل مكافأة على شد الأزر ونصرة المذهب .

وإن كنا نرى كل ذلك محاطا بسياج من تقوى الله ، وأن أحدهم إن حرص على مكانة أو سعى لولاية فإنما يرجو من وراء ذلك تحقيق النفع الخالص لعباد الله وحسن القيام على أوامر الدين ونواهيه فأما المتعة المادية وحيازة الدنيا والشهوة للانتقام من الخصوم فذلك غير داخل فى حساب هؤلاء الذين تشرفوا بصحبة رسول الله وتأدبوا بأدبه.

وهذه صورة من الكتب نسوقها إليك ممثلة لكل ما ذكرنا من غرض ، ناطقة بما قدمنا من انطباع كلام القوم على الفطرة والبعد عن التكلف والزينة اللفظية ، ماثلا كل ذلك فى بدئهم وختامهم إذ كانوا يبدءونها غالبا بعد البسملة بذكر المرسل ويثنون بذكر المرسل إليه أيا كان أحدهما ، فيقول الخليفة : من عبد الله فلان إلى فلان الوالى ، ويقول الوالى من عبد الله فلان إلى عبد الله الخليفة . ثم يقول أحدهم : سلام ثم يفصل بأما بعد بين ذلك وبين غرضه الذى يكتب فيه . ثم يختم بقوله (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وكانوا يوجزون حتى يكاد الكتاب فى الشأن الذى لاشأن مثله يكون سطراً أو

بعض سطر ، كما كانوا يطيلون إذا اقتضى الأمر الإطالة فى ذكر شروط صلح أو بيان نظام حكم أو غير ذلك مما نكتفى بالإشارة إليه .

نماذج من الرسائل

١ — لما تم لعمرو بن العاص افتتاح مصر وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بذلك كتب إليه الخليفة كتابا يشكره فيه ويقول له : أن صف لى حال مصر ، فكتب عمرو مانصه (١) :

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر : أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان يدر حلابه ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل .

فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته وطمى فى ردته ، فعند ذلك تخرج ملة محفورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب فإذا أحرق الزرع وأشرق(٢) سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، فإذا هى هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة زرقاء . فتبارك الخالق لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ولا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله يوفق إلى أحسن حال .

٢ — أصاب الناس بالمدينة جهد شديد على أيام عمر بن الخطاب حتى سمى العام عام الرمادة لهلاك الناس والأموال فيه ، فكتب عمر إلى عمرو يقول له : (٣)

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص : سلام ، أما بعد فلعمرى

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ .
(٢) أحرق : أعطش . أشرق : طال .
(٣) أشهر مشاهير الاسلام ج ٣ ص ٦٠٥ .

ياعمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك من أهلك أن أهلك أنا ومن معى . فيا غوثاه ثم ياغوثاه .

فكتب إليه عمرو : (١)

من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين . أما بعد ، يا لبيك ثم يالبيك . قد بعثت إليك ببعير أولها عندك وآخرها عندى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

٣ — لما خاف معاوية أمر على بالعراق وأمر قيس بن سعد بمصر ، وخشى أن يسير على من العراق وقيس من مصر فيقع هو بينهما كتب إلى قيس يستميله إليه ويطمعه :

سلام عليك ، أما بعد فإنكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط أو شتيمة رجل أو تسيير آخر أو استعمال فتى وقد علمتم أن دمه لايحل لكم فقد ركبتم عظيما وجئتم أمرا إدا فتب إلى الله ياقيس فإنك من المجلبين على عثمان ، فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك . فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان وسلنى ماشئت فإنى أعطيك واكتب إلى برأيك .

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل بحرية . فكتب إليه : (٢)

أما بعد فقد فهمت ما ذكرته من قتلة عثمان فذلك شيء لم أقاربه ، وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه . وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم ، فأول الناس كان فيه قياسا عشيرتى . وأما ما عرضته من متابعتك فهذا أمر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف عنك وليس يأتيك من ناحيتى شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى .

فلما قرأ معاوية الكتاب رآه مقاربا مباعدا فكتب إليه :

أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلى يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠٦ .

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ١٠٧ . وفى نفس الصفحة كتاب معاوية الاول والثانى .

٤ — فلما قرأ قيس الكتاب ورأى أنه لا يفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما فى نفسه فكتب إليه : (١) أما بعد فالعجب من اغترارك بى وطمعك فى واستسقاطك إياى ، أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقوهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ، ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس أما قولك أنى مالىء عليك مصر خيلا ورجالا فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام .

---

(١) المرجع السابق ذاته .

الفصل الثاني

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة الأمويين

- تمهيد
- الشعراء
- مظاهر الأدب
- نماذج من الأدب

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة الأمويين

تمهيد

قدرة الولاة الأمويين بمصر على إنعاش الأدب

لقد رأينا الولاة فى كل قطر من أقطار الأمة الإسلامية لا يستطيعون أن ينعشوا الأدب ولا أن يكون منهم بعض ذلك الذى نراه فى الخلفاء .

ذلك أن الوالى فى تلك العهود المطلقة لا يرى نفسه إلا موظفاً يخشى العزل بين ساعة وأخرى ، فهو يجعل همه ادخار المال من رزقه المحدود الذى فرضه له الخليفة ، فإذا أضاف إلى ذلك شيئاً من مال اختلسه أو رشى به جعل كل ذلك ذخيرته لأيام عزله التى يراها ماثلة أمامه كل حين ، على أنه إن أمن على نفسه العزل فليس يستطيع أن يكون عينا ثرة وسحابة مدرارة لهؤلاء الشعراء الذين لايشبع نهمهم إلا أن تمتلئ حقائبهم مالا وثياباً وأن تحشى أفواههم درا . وتلك حال لايقوى عليها رجل مراقب من رؤسائه مطالب أمامهم بمال يؤديه وضمان يقوم بسداده . وأين هو من ذلك الخليفة الذى تلتقى بخزائنه أموال الأقطار وهو غير مسئول فيم أنفق ذلك ولا لمن أعطاه ، فهؤلاء الخلفاء وحدهم هم الذين ينتظر منهم أن ينعشوا الأدب ويرطبوا ألسنة رجاله ، على النحو الذى عرفته من أخبارهم ودهشت لمبلغ الإسراف فيه .

على أن عادة البذل للشعراء لم تكن محض مكافأة على ماينشئونه من قول فى تمجيد الممدوحين بل كانت سياسة عليا يتولاها الخلفاء بأنفسهم لأنهم بها يستطيعون جمع القلوب حولهم وضم العشائر إليهم ، والإغداق على أنصارهم وحرمان من لا يوالونهم . وكل ذلك من سياسات الملوك دون غيرهم . وربما فعل كبار الولاة أمثال زياد

والحجاج لأن لولاياتهم مكانة خاصة وكانت أيديهم مطلقة بعض الإطلاق فيما يجبونه من أموال الدولة وأعطياتهم فعلو كثيراً على غيرهم من الولاة ، وهم مع كل هذا لم يكونوا قادرين على مساجلة الخلفاء فى هذا الميدان بل كانوا يجولون فيه جولات محدودة .

فهذا الحجاج لم ير بذله كافياً لإرضاء جرير فوجهه إلى عبد الملك مع ابنه محمد لينال من جود الخليفة ما يحقق آماله .

ونجد مصداق قولنا هذا فيمن ذكر المؤرخون من الشعراء الذين ارتفع لهم صوت بمصر أيام الدولة الأموية فهم كما ذكر هؤلاء المؤرخون .

الشـــعراء

١ – جميل بن معمر العذرى :

صاحب بثينة من بنى عذرة ، قدم على عبد العزيز بن مروان ممتدحاً له فأذن له فى الإنشاء وأحسن جائزته وسأله عن حبه لبثينة فذكر له وجداً كثيراً ، فوعده فى أمرها وأمره بالمقام وأمر له بمنزل وبما يصلحه ، فما أقام إلا قليلا حتى مات بمصر سنة ٨٢ .

وذكر صاحب الأغانى عن الأصمعى قال : (١) حدثنى رجل شهد جميلا لما حضرته الوفاة بمصر أنه دعا به وقال له : إذا أنامت فخذ حلتى هذه واعزلها جانباً وكل شيء سواها فهو لك وارحل إلى رهط بثينة فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ثم البس حلتى هذه واشققها ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات :

صرخ النعى وما كنى بجميـــل　　　وثوى بمصر ثواء غير قفــول
ولقد أجر البرد فى وادى القرى　　　نشوان بين مزارع ونخيــــل
قومى بثينة فاندبى بعويـــــل　　　وابكى خليلك دون كل خليـــل

قال ففعلت ما أمرنى به جميل فما استتمت الأبيات حتى برزت بثينة كأنها بدر قد بدا فى دجنته وهى تنثنى فى مرطها حتى أتتنى فقالت : يا هذا إن كنت صادقاً فقد قتلتنى وإن كنت كاذباً فقد فضحتنى فقلت والله ما أنا إلا صادقا وأخرجت حلته فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشيا عليها ساعة ثم قامت وهى تقول :

وإن سلوى عن جميل لَسَــاعةٌ　　　من الدهر ماحانت ولا حان حينها
سواء علينا ياجميل بن معمــر　　　إذا مت بأساء الحياة ولينهـــا

قال الرجل فما رأيت أكثر باكيا ولا باكية من يومئذ.

---

(١) ج ٧ ص ١٠٤ .

٢ — كثير عزة :

تردد على مصر كثيرا بمدح واليها عبد العزيز بن مروان . ولقى مرة من مرات خروجه إلى مصر عزة وقومها فى طريقهم إليها فحادثها طويلا ثم افترقا . فقدمت هى مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يعود فيلحق بها . وفى عودته إلى مصر ليلقاها نزل بمنزل قريب من مصر فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب ، فتشاءم وأسرع بالحضور إلى مصر فقابله فى بعض الطريق رجل من نهد فرآه كاسف البال فسأله عن حاله فحكى له ما رأى فى الطريق فقال له إنك تطلب حاجة لا تدركها ، فقدم مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال : (١)

رأيت غرابا ساقطا فوق بانة ... ينتف أعلى ريشـه ويطـايره
فقلت ولو أنى أشاء زجـرته ... بنفسى للتهدى هل أنت زاجـره
فقال غراب — لاغتراب — من النوى ... وفى البان بين من حبيب تجـاوره
فما أعيف النهدى لا در دره ... وأزجره للطير لاعز ناصره

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول :

أقول ونضوى واقف عند رأسها ... عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تزيرنى ... بلادك فتلاء الذراعين صيـدح
وقد كنت أبكى من فراقك حية ... وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح

دخل كثير على عبد العزيز بن مروان بمصر يعوده فى مرضه وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال : لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسقم لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية ولى فى كنفك النعمة ، فضحك عبد العزيز ، وأنشد كثير (٢)

ونعود سيدنا وسيد غـيرنا ... ليت التشكى كان بالعـواد
لو كان يقبل فدية لفديتـه ... بالمصطفى من طارفى وتلادى

ومات كثيره ص ١٠٥ هـ .

٣ — نصيب بن رباح :

يذكرون فى سبب اتصاله بعبد العزيز بن مروان والى مصر روايات كثيرة . منها

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٤ .

أنه كان مولاه ، اشتراه من بنى كنانة ، وقيل إن نصيباً رأى فى نفسه مقدرة على الشعر فحدثته نفسه أن يقدم مصر على عبد العزيز بن مروان فقدمها ، وقيل إنه كان يرعى إبلا لمواليه فأضل بعيرا له فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط فطمع أن يدخل على الوالى يسمعه شعره ، ولكن رثاثة حاله وجهامة شكله حالا دون وصوله إلى الامير لولا أنه استشفع بأحد الداخلين إليه فلما استوثق الرجل من مقدرته فى الشعر شفع له فى الدخول فنال حظوة الأمير واتصل به حتى لقب بمولى عبد العزيز ويقولون: أنه أنشده أول ما أنشده قوله :

لعبـد العزيز على قومه ... وغيرهم نعم غـامره
فبـابك ألين أبوابهـم ... ودارك مأهولة عامـرة
وكلبـك آنس بالمعتفـين ... من الأم بابنتهـا الزائرة
وكفك حين ترى السائلين ... أندى من الليلـة الماطرة

وفى الأغانى (١) : كان نصيب يرحل إلى عبد العزيز بن مروان فى كل عام مستميحا فيجيزه ويحسن صلته ، فقال له نصيب وقد ذكر فى أبياته هذه النيل

يقول فيحسن القول ابن ليلى ... ويفعل فوق أحسن ما يقـول
فتى لا يرزأ الخـلان إلا ... مودتهم ويرزؤه الخليـل
فبشر أهل مصر فقد أتاهم ... مع النيل الذى فى مصر نيـل

وفى الأغانى أيضا (٢) : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربا منه فنزل بقرية من الصعيد يقال لها سُكَّر ، فقدم عليه حين نزلها رسول من عبدالملك فقال له عبد العزيز ما اسمك ؟ قال : طالب فقال : أوه . ما أرانى راجعا إلى الفسطاط أبدا ومات بتلك القرية فقال نصيب يرثيه :

أصبت يوم الصعيد من سكر ... مصيبة ليس لى بها قبـل
تالله أنسى مصيبتى أبـدا ... ما اسمعتنى حنينهـا الإبـل
ولا التبكى عليـه أعـوله ... كل المصيبات بعـده جلـل
لم يعلم النعش ما عليه من العـ ... ـرف ولا الحاملون ماحملـوا
حتى أجنـوه فى ضريحهمو ... حين انتهى من خليله الأمـل

---

(١) ج ١ ص ٣٥٢ طبعة دار الكتب .
(٢) ج ١ ص ٣٦٠ .

٤ ــ أيمن بن خريم الأسدى :

جاء إلى مصر لمدح عبد العزيز بن مروان فأقام فى كنف الوالى مدة طويلة ومدحه بمدائح كثيرة حتى زاحمه نصيب فغلبه على مكانته عند عبد العزيز ، فخرج من مصر مغاضبا للأمير وقصد إلى أخيه بشر بن مروان والى العراق ، ومدحه معرضا بعبد العزيز فى قوله :

ركبت من المقطم فى جمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف ... رأى حقا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر ... عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرا يقومهم ويحدث ... لأهل الزيغ إسلاما جديدا
كأن التاج تاج بنى هرقل ... جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر ... إذا الألوان خالفت الخدودا

وهو يعرض فى هذا البيت بعبد العزيز وكان بوجهه نمش

وقد روى الأغانى (١) ما وقع بين عبد العزيز بن مروان وأيمن من المغاضبة بسبب نصيب قال :

« أول من نوه باسم نصيب وقدم به على عبد العزيز بن مروان ، عبد الله بن أبى فردة قدم به عليه فقال : أصلح الله الأمير جئتك بوصيف نوبى يقول الشعر فأدخله عليه فأعجب بشعره وكان معه أيمن بن خريم الأسدى فقال عبد العزيز : إذا دعوت بالغداء فأدخلوه على فى جبة صوف محتزماً بعقال فإذا قلت قوموه فقوموه وأخرجوه ثم ردوه فى جبة وشى ورداء وشى . فلما جلس للغداء ومعه أيمن بن خريم أدخل نصيب فى جبة صوف محتزماً بعقال فقال قوموا هذا الغلام فقالوا : عشرة . عشرون . ثلاثون ديناراً فقال ردوه فأخرجوه ثم ردوه فى جبة وشى ورداء وشى فقال أنشدنا فأنشدهم فقال قوموه فقال : ألف دينار . فقال أيمن والله ما كان أقل فى عينى قط منه الآن وانه لنعم راعى المخاض فقال له فكيف شعره قال هو أشعر أهل جلدته فقال عبد العزيز هو والله أشعر منك . قال أمنى أيها الأمير قال نعم فقال أيمن : إنك لملول طرف فقال له والله ما أنا بملول وأنا أنازعك الطعام منذ كذا وكذا تضع يدك حيث أضعها وتلتقى يدك مع يدى

(١) طبعة دار الكتب ج ١ ص ٣٢٨ .

على مائدة . كل ذلك أحتملك . وكان بأيمن بياض فقال له أيمن إئذن لى أخرج إلى بشر فأذن له فخرج وقال الأبيات التى أولها ، ركبت إلى المقطم فى جمادى.

٦ — عبد الله بن الحجاج :

قال صاحب الأغانى عنه (١) : كان عبد الله بن الحجاج الثعلبى شجاعاً فاتكا صعلوكاً من صعاليك العرب ، وكان متسرعا إلى الفتن فكان ممن خرج مع عمرو بن سعيا ابن العاص فلما ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزبير فكان معه حتى قتل . ثم استأ من عبد الملك فآمنه فى حديث طويل : وقال فى مقام آخر (٢) : وفد عبد الله بن الحجاج إلى عبد العزيز بن مروان ومدحه فأجزل صلته وأمره بأن يقيم عنده ففعل فلما طال مقامه اشتاق إلى الكوفة وإلى أهله فاستأذن عبد العزيز فلم يأذن له فخرج من عنده عاصياً فكتب عبد العزيز إلى أخيه بشر والى العراق فمنعه عطاءه ورجع عبد الله لما أضر به ذلك إلى عبد العزيز فقال يمدحه :

تركت ابن ليلى ضَلّةً وجريمة ... وعند ابن ليلى مَعْقل ومُعَوّل
ألم يهدنى أن المراغم واسعٌ ... وان الديار بالمقيم تنقّل
سأحكم أمرى إذا بدا لى رشده ... وأختار أهل الخير وإن كنت أعقل
وأترك أوطارى وألحق بامرئ ... تحلب كفّاه الندى حين يسأل
أبت لك يا عبد العزيز مآثر ... وجرىُ شأى جَرْى الجياد وأول
أبى لك اذ أكْدَوا وفَلّ عطاؤهم ... مواهب فياض ومجد مؤثّل
أبوك الذى ينميك مروان للعلا ... وسعد الفتى بالخال لامن يخول

فقال له عبد العزيز أما إذا عرضت موضع خطئك واعترفت به فقد صفحت عنك ، وأمر بإطلاق عطائه ووصله وقال له أقم ماشئت عندنا أو انصرف مأذوناً لك إذا شئت.

* * *

فهؤلاء شعراء خمسة اتصلوا جميعاً بوال واحد ورحلوا إلى مصر من أجله ، وهو جدير بذلك إذ كان عبد العزيز بن مروان أخا الخليفة وكان جواداً ممدحاً .

وكان من حظ الأدب بمصر أن أقام هذا الوالى بها عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة

---

(١) الاغانى طبعة الساسى ج ١٢ ص ٣٤ .
(٢) المصدر ذاته ص ٢٩ .

عشر يوما (١) فراج الأدب بها هذا الرواج وذكرت مصر على السنةشعراء روى شعرهم بالحجاز والعراق والشام فطار بذلك لمصر ذكر لم يكن ليشيع لولا جود هذا الوالى وتمام أريحتيه .

وطبيعى أن يكون جود هذا الأمير كما قال من طرأ على مصر من الشعراء قد نال غيرهم من أهل البلاد بل إننا نقول إنه خلق بمصر هؤلاء الشعراء الذين يعرفون أبواب الولاة وينتظرون النعمة الجزيلة من وراء عطائهم فيتوفرون على الشعر يجيدون سبكه ويتخيرون معانيه وألفاظه .

★ ★ ★

وبعد فهذا أول واحد من ولاة كثيرين ولوا أمر مصر للدولة الأموية فى مدى تسعين عاماً تقريباً من سنة ٤٠ ﻫ إلى ١٣٢ ﻫ ، ولم يكن من جملتهم معونة للأدب ولا جدد على الشعراء، ولولا أن مدة هذا الوالى قد طالت كما ذكرنا ما رأينا حديثاً عن مصر ينبت فى كتب الأدب كالأغانى وغيره .

فإذا حكمنا بأن العصر الأموى لم يكن عصر انتعاش للأدب بمصر حكمنا صادقين ويكون قد صح قولنا أن الولاة لا يقدرون على إنعاش الأدب بأمصارهم إلا إذا انضم إلى الولاية ميزة أخرى كالغنى أو الجاه العريض .

---

(١) كتاب أخبار الاول ص ١٥٥ .

مظاهر الأدب بمصر أيام الولاة الأمويين

لم تزد هذه المظاهر فى أنواعها عما كانت عليه أيام ولاة الخلفاء الراشدين، فما زالت هى الخطابة والكتابة والشعر لم يزد عليها مظهر آخر .

كما أن كل نوع منها بقى على حالته التى كان عليها أيام ولاة الخلفاء الراشدين ، فها هى تلك الخطابة واقفة عند حدها التى عرف لها فى العهد السابق يقوم بها الوالى يوم يحضر إلى مصر خطيباً على منبر مسجدها الجامع بالفسطاط معلناً ولايته ثم هو يتعهدها فى كل أسبوع يوم الجمعة واعظاً مذكراً متناولا شئون السياسة محذراً من الفتنة داعياً إلى اجتماع الكلمة ، وكذلك يقوم بها يوم يحدث من الرعية أو الجيش ما يوجب نهوض الأمير بتجلية الحقيقة وتقويم المعوج وتعديل الزيغ كما يكون الداعى إليها فى أحيان كثيرة إعلان الرأى فى حرب أو سلم . كذلك الكتابة ظلت مترسمة خطتها الأولى : فهى بين الخليفة والوالى فى شئون الإدارة أو بين الوالى وطامع فى الملك يريد أن يستدرجه ليدخل فى جملته وينضم إلى شيعته فهو يهدده مرة ويطمعه أخرى ، ثم هى لا تزال على حال سذاجتها الأولى ، لم يتخذ الوالى بعد كاتباً يتولى إنشاء رسائله ، بل هو ينشئها إنشاء وربما تولى كتابتها بيده إلا أن يتخذ كاتباً بين يديه يملى عليه ما يريد ، غير ملتزم حدوداً فى البدء والختام ونوع الخط والورق كتلك التى التزمت فيما بعد وتعقدت تعقداً زائداً .

وكذلك الشعر بقى فى الغالب كما قلنا نفثة تجيش بها نفس المرء فيشكو حالا أو يفتخر بطريف أو تالد ، أو يهاجى عدوا فيعد عليه مثالبه ومثالب قومه ، أو يمدح أخاً على يد ، أو يرثيه موفياً بعهد صداقته وأخوته .

ويصح أن ندعى نشوء نوع جديد فى الشعر . ذلك هو الذى يقدم به شاعر طامع فى عطاء الوالى فيمدحه به معدداً مآثره مظهراً تفخيم أمره ، ولزم من أجل ذلك أن يجلس هذا الوالى مجلساً عاماً يحضره كبار القوم ، لسماع هؤلاء الشعراء ، فتهز الوالى الأريحية ويتحرك عطفه لهذا الثناء المأجور ، كما لزم أيضاً أن ينصرف بعض الشعراء إلى التكسب بهذا المدح ، وإن كانوا بعد لم يصلوا إلى جعله مرتزقهم الذى يعولون عليه وحده فى كسب قوتهم ، لأن العرب بمصر كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين جنداً فى الجيش مدونة أسماؤهم فى الدواوين فلهم من بيت مال الدولة أعطيات تكفيهم وأبناءهم حاجة العام كله .

نماذج من الأدب فى هذه الفترة

لابد أن نسجل مقدماً قلة ما ورد فى كتب القوم من هذه الآثار ، فعلى حين تفيض صفحات كتب التاريخ كالكامل لابن الأثير وتاريخ الأمم والملوك للطبرى بخطب معاوية وولاته بالعراق وغيره ، لا تجد عن مصر إلا وشلا إلى جانب هذا البحر الزاخر ، حتى لقد رأيت بعض المؤرخين يسجل كتاب معاوية أو عمرو بن العاص مثلا إلى محمد بن أبى بكر والى مصر من قبل على كرم الله وجهه ثم لا يذكر رد محمد ، على ما ورد إليه منهما ويشير إليهما محض إشارة فيقول مثلا (فاشتد فى رده عليه) كما فعل ابن تغرى بردى فى ص ١٠٩ من الجزء الأول من كتابه « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » والعجب أن كتابه خاص بمصر ثم هو يهمل رواية ما قاله والى مصر ولكنه معذور فى ذلك لأن الرواة فى القديم لم يعنوا إلا بما كان عن خليفة أو وال لولاية كبيرة لها شأنها فى الحوادث التى كانت تحضرهم يوم ذاك .

فهذا هو عذرنا ، إذا كنا لم نشبع نهمة القارئ ممن يحب أن يطلع عليه من أدب مصر فى كل أطوارها .

١ — خطبة لمحمد بن أبى بكر (١)

لما كتب إليه عمرو بن العاص يهدده ويدعوه إلى التسليم رد عليه واشتد فى رده (كما يقول صاحب النجوم الزاهرة) ثم قال خطيباً فقال :

أما : بعد فإن القوم الذين ينتهكون الحرمة ويشبون نار الفتنة ، قدنصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بجيوشهم ، فمن أراد الجنة فليخرج فليجاهدهم فى الله . انتدبوا مع كنانة بن بشر فانتدب الناس معه وخرجوا للقاء القوم .

٢ — خطبة لعتبة بن أبى سفيان (٢)

لما قدم عتبة إلى مصر سنة ٤٣ أقام بها شهراً ثم خرج منها وافداً على أخيه معاوية

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ .

بدمشق ، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس ، وكانت فى عبد الله المذكور شدة فكرهه الناس بمصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر ، وصعد المنبر فقال :

يا أهل مصر تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم . وقد وليكم من إن قال فعل فإن أبيتم درأكم بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأول . إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع والطاعة . ولكم علينا العدل . فأينا غدر فلاذمة له عند صاحبه .

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعاً سمعاً : فناداهم عتبة عدلا عدلا ، ثم نزل :

٣ — وصية عتبة لمؤدب ولده (١)

أوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده فقال :

ليكن أول إصلاحك بنى إصلاحك نفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك. فالحسن عندهم ما فعلت والقبيح ما تركت . وعلمهم كتاب الله ولا تملهم فيتركوا ، ولا تدعهم منه فيهجروا . ورووهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم عن علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم ، وهددهم بى وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الرقيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء واستزدنى بآدابهم أزدك ، ولا تتكلن على عذر ، فقد اتكلت على كفاية منك .

٤ — كتاب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه الخليفة عبد الملك (٢)

كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والى مصر يسأله أن ينزل عن ولاية العهد ليعهد إلى الوليد وسليمان ، فأبى عبد العزيز وكتب إلى أخيه :

« إن يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله ما يشاء »

وقيل كان أيضاً فى كتاب عبد العزيز « إنك لو رأيت الأصبغ لسرك ولم تقدم عليه أحداً » يريد بالأصبغ ابنه عبد الله .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٤ .

٥ — شعر لابن أبي زمزمة الخشني (١)

لما قصد عبد العزيز بن مروان مصر فاتحا لها من قبل أبيه مروان أشار الجند على ابن جحدم وإليها أن يحفر خندقاً على الفسطاط فحفر فى شهر واحد فقال الخشني :

ما الجد إلا مثــل جد ابن جحدم وما العزم إلا عــزمه يــوم خندق
ثلاثون ألفا هم أثاروا ترابـــــــه وخدوه فى شهـــــــر حديث مصدق

٦ — شعر لزهير بن قيس (٢)

كان زهير بن قيس قد خرج للقاء عبد العزيز وصده عن مصر ، فانهزم ببصاق وهى سطح عقبة أيلة فقال لعبد العزيز (ما دحا له ولعله قد انضم إليه) :

منعت بصاقا والبطاح فلم تُــــرم بطاحك لما أن حميت ذمــاركا
قسرت الألى ولــوا عن الأمر بعدما أرادوا عليــه فاعلمن اقتســاركا

٧ — جفنات عبد العزيز (٣)

كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم حول داره ، وكان له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر فقال الشاعر :

كل يوم كأنه يـــــوم أضـــحى عند عبد العزيز أو يـــوم فطْر
وله ألف جفنـــــــة مترعــــات كل يوم تمـــــــدها ألف قــدر

٨ — رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه (٤)

توفى الأصبغ (عبد الله بن عبد العزيز) لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ٨٦ هـ . وتوفى أبوه عبد العزيز بعد أيام (لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى فى السنة نفسها) . فقال ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثيهما :

نقول غداة قطعنـــــا الجفـــــا ر والعين بالدمــع مغرورقـــــه
مقال امرئ كاره للفــــــــــرا ق تاع البــلاد وياع الرقـــــة (٥)

---

(١) المرجع السابق نفسه ص ٤٣ .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٣ .
(٣) المرجع نفسه ص ٥١ .
(٤) الولاة والقضاة ص ٥٦ .
(٥) تاع البلاد : قطعها . الرقة : الدراهم المضروبة .

أبعد الخليفة عبـــــد العزيـــز وبعـــد الأمير كـــذا وابقــه
فما مصر لى بعـد عبـد العزيز والأصبع الخير بالمونقــــة
أمامى هُـــــدى وهـدىٍّ تقى وأهل الوفاء وأهـــل الثقــة
سقى الله قبريهمـــا والصـــدى وما جاوروا ديمـــة مغــــدقة
فإن تلك مصر أشارت بهــــا إلى الشر يومـــا يـد موبقـــة
فقدما تقـــــر بمصر العيـــو ن فى لـــذة العيش محــــدودقة

وقال سليمان بن أبان بن أبى جدير الأنصارى يرثيهما :

أبعدك يا عبد العزيز لحـــــادث وبعـــد أبي زيان ينشْعب الدهــر
ولا زال مجــراه من الأرض يابســا يمـــوت به العصفور وانجدب القطر
فمن ذا الذى يبنى المكارم والعـــلا ومن ذا الذى يهدى له بعدك السفر
فكنت حليف العرف والخير والنــدى فمتن جميعاً حين غيبك القـــبر
فبعـــدك لا يرجى وليـد لنفعـة وبعدك لا يرجى عـــوان ولا بكر

٩ — تشاؤم من عبد الله بن عبد الملك والى مصر (١)

لما ولى عبد الله بعد عمه عبد العزيز ، غلت الأسعار بمصر فتشاءم به المصريون ، وهى أول شدة رأوها ، واتفق أنه خرج إلى أخيه الوليد الخليفة بالشام لمقابلته فقال زرعة ابن سعد الله بن أبى زمزمة الخشنى :

إذا سار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعتْ تلك البغال الخـوارج
أتى مصر والمكيـال واف مغربـل فما زال حتى سار والمـــد فالج

١٠ — وصف لصنم (٢)

أرسل الوليد بن عبد الملك إلى مصر يأمر بكسر الأصنام التى بمصر فكسرت كلها ، وكان منها صنم حمام زبان (وهو أصبغ بن عبد العزيز) وكان الصنم يمثل امرأة جميلة فقال فيه كريب بن مخلد الجيشانى :

من كان فى نفسه لابيض منزلـــة فليأت أبيض فى حمام زبـــان
عبل لطيف هضيم الكشح معتـــدل على ترائبه فى الصـــدر ثديان

(١) الولاة والقضاة ص ٥٩ .
(٢) الولاة والقضاة ص ٧١ .

١١ — افتخار بكاسر المدى (١)

بعث أمير المؤمنين هشام بالمدى (٢) إلى مصر وأمرهم أن تتعاملوا به فأمر ابن رفاعة (الوليد بن رفاعة والى مصر يومئذ فطيف به على القبائل يخبرهم أن أمير المؤمنين أمر به فكل الناس سلم لذلك ، حتى أتى به إلى المعافر فعرض عليهم وأتى به إلى عبد الرحمن بن ناشرة المعافرى فأخذه وكسره على حجر ثم قال إن لنا الويبة والإردب قد عرفناهما ولسنا نحتاج إلى هذا فقيل له (كاسر المدى) وصار هذا نسباً لبنيه بعد ذلك فيقال لهم بنو كاسر المدى .

وقد قال شاعرهم يفتخر بذلك :

قومى الذين تبــــادروا مــدى الخــــليفة بالحـــجر
وتحزبـــــوا وتعصبــوا وجثــو عليــه فانكســر
من بعــدما ذلت لـــــه أعــناق يعــرب بل مضر

١٢ — إحراق دار آل مروان المذهبة (٣)

لما دخل مروان بن محمد مصر هارباً من وجه العباسيين سنة١٣٢ أمر بدار آل مروان فأحرقت فقيل له إنها دار بنى عبد العزيز بن مروان وقد عظمت فيها النفقة فقال :

أن أبق أبنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة فقال عيسى بن شافع يبكيها :

يا طللا أفـــدى وحــــل البــلى منه لدى العاو وفى السفـــــل
قد كنت مغنى لعيــــون المهــــا وكنت مأوى لظبا الرمــــــل
وكان أربابــــك ما إن لهـــــم فى الناس من نـــوع ومن شكل

---

(١) الولاة والقضاة ص ٧٨ .
(٢) مكيال استعمل بالشام ومصر وهو غير المد .
(٣) الولاة والقضاة ص ٩٥ .

الفَصلُ الثّالِثُ

الأدبُ العَربي في مِصر

في عهد الولاة العبّاسيّين

- تمهيد
- الشعراء الطارئون
- مظاهر الأدب
- أمثلة من أقوال الشعراء

الأدب العربي في مصر
في عهد الولاة العباسيين

تمهيد

قدرة الولاة العباسيين بمصر
على إنعاش الأدب

لا نريد بحكم العباسيين تلك الأجيال الخمسة التي كان فيها خلفاء هذه الدولة يقومون ببغداد أو سر من رأى بين سنتي ١٣٢ ، ٦٥٦ هـ ، ولكننا نريد المدة التي كان فيها لهؤلاء الخلفاء ولاة بمصر تابعون لهم خاضعون لأوامرهم مدينون لهم بولايتهم متوقعون لعزلهم يجمعون المال برسم حكومتهم ثم يحملونه إلى بغداد صاغرين .

هذه المدة هي التي تنتهي بسنة ٢٥٤ هـ حين استقل أحمد بن طولون بمصر . فلمصر منذ ذلك العهد في حكم ابن طولون ومن وليه ممن أنشئوا بمصر دولا مستقلة عن دار الخلافة شأن غير شأنها السابق .

وللمدة التي كانت بين سنتي ١٣٢ ، ٢٥٤ هـ وهي قرن وربع قرن ، حكم لا يكاد يختلف عما قبله من أيام الأمويين إلا بتلك الفوارق التي تفرق عامة بين الدولتين الأموية والعباسية . ففي عهد العباسيين كان العرب قد لانت جلودهم فأخلدوا إلى الراحة وألفوا الريف ونزلوا عن كثير من نخوتهم فعاشروا أهل البلاد وساكنوهم واتصلت بينهم أواصر الجوار والنسب . وكان عددهم قد تزايد خصوصاً بمن أجلاهم المأمون إلى مصر لخضد شوكة الأقباط الذين كانوا إلى عهده كثرة تزين لهم قوتهم أن يخرجوا على العمال ويهيجوا ضد العرب .

فبعد أن أوقع المأمون بهم عام ٢١٦ هـ استطاع العرب أن يطمئنوا في مساكنة الأقباط ، وتبع ذلك أن انتشرت لغتهم بين الأهلين كما ذاع الإسلام ودخل فيه كثير

من أهل البلاد ، حتى انشئت المساجد فى القرى ولم يكن العرب مستطيعين ذلك قبل هذا الحين (١) .

كان الحكم الغالب على الأدب بمصر مدة هؤلاء الولاة أنه أدب مستعار طارئ على البلاد ، إذ كان الوالى يقدم من بغداد فيتبعه من كان يلوذ فيها به ، أو يتسامع شعراء الحضرة بوال يعطى على الشعر فيحضر أحدهم إلى مصر فى رحلة قصيرة ربما ينشد للوالى قصيدته ثم يعود إلى بغداد وكر الأدب ومثابة أهله .

فكما لم يكن بمصر ملك مستقر لم يكن لها أدب مستقر ، كما كانت خيراتها وأموالها منصرفة إلى بغداد ، كانت كذلك محرومة من ثمرات الأدب ،حتى حين جاد عليها الزمان بشاعر ينشأ فيها فينبه شأنه لا تتسع البلاد لمقامه فتسرع به آماله إلى حيث الجود بل التخرق فيه على كل نابع فى أدب أو علم .

وقد آن أن نحصى نصيب مصر من هؤلاء الشعراء الطارئين عليها فى عهد هؤلاء الولاة فكان لهم على مصر فضل أن ذكرت فى دواوين الشعر وحفلت بذكرها مجالس الأدب .

(١) محاضرات الخضرى (بك) فى الدولة العباسية ص ٤٤ .

الشعراء الطارئون على مصر
فى عهد الولاة العباسيين

١ – ربيعة الرقى :

يقول عنه صاحب الأغانى (١) : كان ينزل الرقة وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدى إليه فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثواباً كثيراً وهو من المكثرين المجيدين وكان ضريراً ، وإنما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدماً له .

وذكره ابن المعتز فقال : كان ربيعة أشعر غزلا من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس برداً كثيراً وغزل هذا سليم عذب سهل .

وقد اشتهر من قول ربيعة أبيات يمدح بها يزيد بن حاتم ، والى مصر من قبل المنصور سنة ١٤٤ هـ وقد دام بها إلى سنة ١٥٢ فكانت ولايته عليها سبع سنين وأشهراً ، وهى (٢)

لشتان ما بين اليزيدين فى النـــدى	يزيد سليم والأغر بن حـــاتم
فهمّ الفتى الأزدى إتـــلاف ماله	وهمّ الفتى القيسى جمع الـــدراهم
فلا يحسب التمتام أنى هجوتـــه	ولكننى فضلت أهـــل المكـــارم
فيا بن أسيد لا تسام ابن حـــاتم	فتقرع إن ساميته سن نـــادم
هو البحر إن كلفت نفسك خوضـــه	تهالكت فى مـــوج له متـــلاطم

وهذه الأبيات من قصيدة قالها ربيعة يمدح بها يزيد بن حاتم لما عزل عن إمرة مصر أولها :

---

(١) ج ١٥ ص ٣٧ طبعة الساسى .

(٢) المرجع السابق .

بكى أهل مصر بالدموع السواجم عداة غدا منها الأغر ابن حاتم

قال صاحب النجوم الزاهرة (١) : ، وكان يزيد مقصداً للناس محباً للشعر وأهله . مدحه عدة شعراء . قيل إن ربيعة المتقدم ذكره (يريد الرقى) قصده فاشتغل عنه يزيد فخرج وهو يقول :

أراني ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من يزيد بن حاتم

فبلغ يزيد فرده وملأ خفيه ذهباً .

ولعل أول ما يدل على غزل هذا الشاعر وصدق كلمة ابن المعتز فيه أنه أحب جارية تسمى عثمة لرجل من أهل قرقيسيا يقال له ابن مرار كان قد ولى لبنى هاشم مصر فأصاب مالا عظيما ، فلما علم بحب ربيعة لجاريته أحضره إليه وعرض عليه أن يهبها له فقال : لا تهبها لى فإن كل مبذول مملول فأكره أن يذهب حبها من قلبي ولكن دعنى أواصلها هكذا فهو أحب إلى : وقد قال فيها : (٢)

اعتاد قلبك من حبيبك عيده شوق عراك فأنت عنه تذوده
والشوق قد غلب الفؤاد فقاده والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده
فى دار مرار غزال كنيسة غزلٌ عليه خُزوزه وبُروده
ريم أغر كأنه فى حسنه صنم يحج ببيعة معبوده
عيناه عينا جؤذر بصريمه وله من الظبي المربب جيده
ما ضر عثمة ان تلم بعاشق دنف الفؤاد متيم فتعوده
وتلده (٣) من ريقها فلربما نفع السقيم من السقام لدوده

٢ – دعبل الخزاعى :

يقول عنه صاحب الأغانى (٤) : شاعر مقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن .

ولا أفلت منه كبير أحد ، وكان شديد التعصب على الزارية للقحطانية و كان من الشيعة المشهورين بالميل الى على رضى الله عنه . وقصيدته :

---

(١) ج ٢ ص ٢ .
(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٤١ طبعة الساسى .
(٣) تلدة : نسقية اللدود وهو الدواء .
(٤) ج ١٨ ص ٢٩ طبعة الساسى .

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفـــر العرصات

من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة فى أهل البيت . قصد بها أبا على موسى الرضا بخراسان فأعطاه عشرة آلاف درهم من الداراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه ، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها فقال لهم إنها إنما تراد لله عز وجل وهى محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم فحلف لايبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه فأعطوه فردكم فكان فى أكفانه . وكتب قصيدته هذه على ثوب وأحرم فيه وأمر أن يكون فى أكفانه .

ولم يزل مرهوب اللسان خائفا من هجائه للخلفاء فهو دهره كله هارب متوار .

وفى معاهد التنصيص عن دعبل (١) ، قال : (كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه . وكانت مصر بعض مطارح غربته (٢) فقصد بها إلى المطلب ابن عبد الله بن مالك الخزاعى وهو وال عليها من قبل المأمون ومدحه بقصيدة يقول فيها :

أبعد مصر وبعـــد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جئنـــا بأسرته أو واحدونا جئنـــا بمطلب

وكان من إكرامه له أن ولاه أسوان ولكن طبع دعبل الخبيث غلب عليه فهجاه فعزله المطلب . وفى الأغانى أيضا حديث طويل عن دعبل واتصاله بالمطلب بن عبد الله الخزاعى والى مصر رأينا أن نسوقه كله ليكون فيه سلوة للقارىء عما أصاب أخبار الأدب بمصر من نضوب وقلة قال صحب الأغانى (٣) .

أخبرنى محمد بن المرزبان قال حدثنى إبراهيم بن محمد الوراق عن الحسين بن السرى عن عبد الله بن أبى الشيص . قال حدثنى دعبل قال حججت أنا وأخى رزين وأخذنا كتباً إلى المطلب بن عبد الله بن مالك وهو بمصر يتولاها فصرنا من مكة إلى مصر فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن ملان السراج ، فما زال يحدثنا ويؤانسنا طول طريقنا ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والأتباع ، ورأيناه حسن الأدب وكان شاعرا ولم نعلم وكتمنا نفسه وقد علم ما قصدنا له فعرضنا عليه أن نقول قصيدة فى المطلب وننحله

---

(١) ج ١ ص ٢٠٢ .
(٢) الوفيات ج ٣ ص ٢٦ .
(٣) ج ١٨ ص ٤٧ ، ٤٨ من طبعة الساسى .

أياها فقال إن شئتم وأرانا بذلك سرورا وتقبلا له :

وعملنا القصيدة وقلنا له تنشدها المطلب وإنك تنتفع بها فقال نعم . ووردنا مصر به فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبا كانت معنا وأنشدناه فسر بموضعنا ووصفنا له أحمد السراج هذا وذكرنا له أمره فأذن له فدخل عليه ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التى نحلناه إياها . فلما مثل بين يديه عدل عن شعرنا وأنشده :

لم آت مطلبا إلا بمطلب ... وهمة بلغت بى غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه ... فى الوسائل أو ألقاه فى الكتب

ثم أنشده :

رحلت عيسى إلى البيت الحرام على ... ما كان من وصب فيها ومن نصب
ألقى بها وبوجهى كل هاجرة ... تكاد تقدح بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكى ثنيت لها ... عطف الزمام فأمت سيد العرب
فأممتك وقد ذابت مفاصلها ... من طول ما تعب لاقت ومن نقب
إنى استجرت بأستارين مستلما ... ركنين مطلبا والبيت ذا الحجب
فذاك للأجل المأمول ألمسه ... وأنت للعاجل المرجو والطلب
هذا ثنائى وهذى مصر سانحة ... وأنت أنت وقد ناديت من كثب

فصاح المطلب ، ابيك لبيك ثم قام إليه فأخذه بيده وأجلسه معه وقال :

ياغلمان : البدر ، فأحضرت ثم قال : الخلع ، فنشرت ثم قال : الدواب فقيدت فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجود الشعر وغيظنا بكتمه ايانا نفسه واحتياله علينا أكثر وأعظم فخرج بما أمر له به وخرجنا صفرا .

قال : فمكثنا أياما ثم ولى دعبل بن على أسوان ، وكان دعبل قد هجا المطلب غيظا منه فقال :

تعلق مصر بك المخزيات ... وتبصق فى وجهك الموصل
وعاديت قوما فما ضرهم ... وشرفت قوما فلم ينبلوا
شعارك عند الحروب النجاء ... وصاحبك الأخور الأفشل
فأنت إذا ما التقوا آخر ... وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه فعزله عن أسوان ، فأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فإذا علاه فأوصل إليه الكتاب وامنعه من الخطبة وأنزله عن المنبر واصعد مكانه ، فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب فقال له دعبل دعني أخطب فإذا نزلت قرأته قال لا قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه فقرأه وأنزله عن المنبر معزولا .

قال دعبل قال لى المطلب يوما : ماتفكرت فى قولك

إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

إلا كنت أحب الناس إلى ، ولا تفكرت والله فى قولك

وعاديت قوما فما ضرهم وقدمت قوما فلم ينبلوا

إلا كنت أبغض الناس إلى .

٣ – عوف بن محلم الخزاعى :

قال عنه فى معاهد التنصيص (١) : هو أحد العلماء الأدباء الرواة الفهماء الندماء الظرفاء الشعراء العظماء ، وكان صاحب نوادر وأخبار المعرفة بأيام الناس واختصه طاهر بن الحسين بن مصعب لمنادمته ومسامرته فلا يسافر إلا وهو معه فيكون زميله وعديله ويعجب به . وكان سبب اتصاله به أنه نادى طاهرا وهو بحراقة له يعبر دجلة ، بهذه الأبيات :

عجبت لحراقة ابن الحسين كيف تعوم ولا تغرق
وبحران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها وقد مسها كيف لاتورق

بقى عوف مع طاهر ثلاثين سنة لايسمح له طاهر بالإلمام بأهله ، فلما مات طاهر ظن عوف أنه يستطيع الإفلات فقربه عبد الله بن طاهر وأنزله منه منزلته من أبيه ، فما أفلت منه إلا لمناسبة اتفقت له معه . ولما سار إلى أهله لم يصل إليهم ومات فى الطريق فى حدود العشرين والمائتين .

أما هذه المناسبة فهى أنه كان خارجا مع عبد الله من بغداد إلى خراسان فلما شارفا الرى سمعا صوت عندليب فأعجب ذلك عبد الله وقال قاتل الله أبا كبير حيث يقول :

---

(١) ج ١ ص ١٢٧ .

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر | وغصنك ميــاد ففيم تنــوح
أفق لا تنح من غير بين فإننى | بكيت زمانا والفؤاد صحيح
ولوعا فشطت غربة دار زينب | فها أنا أبكى والفــؤاد قريح

فقال عوف أحسن والله وأجاد أبو كبير ، إنه كان فى الهذليين مائة وثلاثون شاعرا ما فيهم إلا مفلق ، وما كان فيهم مثل أبى كبير ، فطلب إليه عبد الله أن يجيز الأبيات فقال :

أفى كل عام غربة ونــزوح | أما للنوى من ونيــة فتريح
لقد طلّح البين المشت ركائبى | فهل أرين البين وهو طليح
وأرقنى بالرّى نوح حمــامة | فنحت وذو الب الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعــة | ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما | ومن دون أفراخى مهامه فيــح
ألا يا حمام الايك إلفك حاضر | وغصنك ميــاد ففيم تنــوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى | فتلقى عصا التطواف وهى طريح
فإن الغنى يدنى الفتى من صديقه | وعدم الغنى للمعسرين طــروح

فاستعبر عبد الله وترق وقال إنى لضنين بمغادرتك وشحيح على الفائت من محاضرتك : ولكن والله لا أعملت معى خفا ولا حافرا إلا راجعا إلى أهلك ومما ورد فى ابن خلكان (١) عن ولاية عبد الله لمصر قوله : وكان عبد الله قد تولى الشام مدة والديار المصرية مدة وفيه يقول بعض الشعراء وهو بمصر :

يقول أناس إن مصر بعيــدة | وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال تراهم | بحضرتنا معروفهم غير حاضر
من الخير موتى ما تبــالى أزرتهم | على طمع أم زرت أهل المقــابر

وتنسب هذه الأبيات إلى عوف بن محلم والله أعلم .

وفى كتاب الولاة والقضاة » (٢) : قصد عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١٠ فحارب عبيد الله بن السرى حتى هزمه ثم أمنه بأمر أمير المؤمنين المأمون ، وولى عبد الله المأمون عبد الله بن طاهر مصر على صلاتها وجبايتها سنة ٢١١ ه فى ربيع الأول فبقى بها إلى

(١) ج ١ ص ١٦٢ .
(٢) ص ١٨٤ .

رجب سنة ٢١٢ هـ فكان مقامه بها سبعة عشر شهراً . ا هـ ملخصا .

قد روينا لك كل ما كان من علاقة عوف بعبد الله بن طاهر وليس به شيء صريح فى أن عوفا كان مع عبد الله فى مصر. ولكننا نستنبط ذلك استنباطا من قول صاحب معاهد التنصيص أنه فارقه حين كان خارجا معه من بغداد إلى خراسان وأنه مات فى الطريق فى حدود سنة ٢٢٠ فكأنه كان معه كل المدة التى عاشها عوف قبل ذلك متصلة بالثلاثين سنة التى عاشها مع أبيه طاهر ، وهذا نستنبطه استنباطا فنقول إنه كان معه فى مصر لأن مدة إقامة عبد الله بمصر داخلة فى هذه المدة ، وإن لم يقله أحد من الذين ترجموا لعبد الله أو لعوف ، وما ذلك إلا لأن هذا الحادث من أخبار مصر التى قلنا لك إنها لا تهم المؤرخين كما تهمهم أخبار العراق أو غيره .

وعلى ذلك نرجح ما فوض فيه ابن خلكان العلم إلى الله ، من أن هذه الأبيات (يقول إناس إن مصر بعيدة) هى لعوف لأنها من طبيعة شعره فى جزالة لفظها وجودة معناها .

٤ — محمد بن يزيد الحصنى :

كان من شأنه أن عبد الله بن طاهر لما قال قصيدته التى يفتخر فيها بمآثر أبيه وأهله ويذكر قتلهم للمخلوع ، عارضه محمد هذا فأفرط فى السب وجاوز الحد فى قبح الرد ، وكان مما قال فيه (١) .

يا بن بيت النار موقدها ... ما لحاذيه سراويل
من حسين من أبوك ومن ... مصعب غالتكم غول
نسب فى الفخر مؤتشب ... وأبوات أراذيل
قاتل المخلوع مقتول ... ودم المقتول مطلول

فلما ولى ابن طاهر مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصنى أنه لا يفلت منه فثبت فى موضعه ومر به عبد الله (والحصنى لا يعرفه) فرآه جالسا على باب حصنه مسترسلا غير محترس من هذا الجيش القادم فقال له : ما أجلسك ههنا وحملك على أن فتحت بابك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر مع ما فى

---

(١) الاغانى ج ١١ ص ١٢ (طبعة الساسى) .

نفسه عليك وما بلغه عنك . فقال : إن ماقلت لم يذهب على ولكنى تأملت أمرى وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة وإنى إن هربت عنه لم أفته . وانتهى الحديث بينهما بأن عرف الحصنى أن محدثه هو عبد الله بن طاهر وعفا عنه عبد الله وطلب منه أن يلحق به فى مصر . ولم يزل معه لا يفارقه حتى رحل عبد الله إلى العراق فودعه وأقام ببلدته (١).

وقد تلاحظ أننا لم نرو للحصنى شيئا يكون قد مدح به ابن طاهر ، وذلك أننا بحثنا عن شىء من ذلك فلم نجد مع أن الخبر فيه دلالات على أن الحصنى لا بد أن يكون قد مدح ابن طاهر ، فهو شاعر يقدر على القول ، وقد عفا عنه ابن طاهر فوجب أن يقوم بحق الشكر ولا شكر من الشاعر إلا بشعره . وعبد الله قد ضمه إليه وبالغ فى إكرامه وتلك وحدها تستلزم شكراً آخر ، ولكن ماثبت لك من عدم اهتمام الرواة بأخبار مصر خصوصا فى باب الأدب هو الذى جعل تاريخ هذه القصة يخلو من شعر .

٥ — أبو نواس :

من كتاب أخبار أبى نواس (٢) أنه لما قدم على الخصيب بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده فقال : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن فأذن لهم ، فإن كان شعرى نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت . فلما أنشدوه لم تكن أشعارهم مقاربة شعر أبى نواس فتبسم أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون قال : هات ، فأنشده القصيدة التى أولها :

أجارة بيتينا أبـوك غيــور ... وميسور ما يرجى لديك عسـير

حتى أتى على آخرها فانفض الشعراء من حوله .

ومن هذه القصيدة قوله :

تقول التى من بيتها خف محملى ... عزيز علينـا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلـب ... بلى ، إن أسباب الغنى لكثـير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى من جريهن عبـير

---

(١) القصة ملخصة عن الأغانى ج ١١ ص ١٢ ، ١٣ (طبعة الساسى) .
(٢) ص ٢٣٤ .

ذريني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأى فتى بعد الخصيب نزور
فتى يشترى حسن الثناء بما له ... ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يصير الجود حيث يصير

وهى طويلة ، وقد أمر له الخصيب بألف دينار .

فلما كان الغد دخل عليه فأنشده قصيدة منها :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بى عن مدى أملى ... شيئا فما لكما به عذر
ويحق لى إذ صرت بينكما ... ألا يحل بساحتى فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا ... ونداك ينعش أهله الغمر

ولما قال له : أنت الخصيب وهذه مصر إلى آخر القصيدة قال له الخصيب : إذا لا يخيب أملك ولا ينقطع مرادك ، ثم أمر له بألف دينار أخرى فقبض الألفين ثم كر عليه فى اليوم الثالث فأنشده :

منحتكمو يأهل مصر نصيحتى ... ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تثبوا وثب السّفاة فتحملوا ... على حد حامى الظهر غير ركوب (١)
فإن يك باق إفك فرعون فيكمو ... فإن عصا موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية ... أكول لحيات البلاد شروب

وكان أهل مصر قد شغبوا على الخصيب لزيادة فى أسعارهم ، وكان على شربه وعنده أبو نواس فوثب أبو نواس وقال : (دعنى أيها الأمير أكلمهم فقال : ذاك إليك ، فخرج حتّى وافى المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه فأنشد هذه الأبيات ويقال إنه ارتجلها على المنبر فلما سمعها من اجتمع تفرقوا فلم يبق أحد منهم . وعاد إلى مجلس الخصيب فأمر له بألف أخرى . وقال له ارتحل فمالك عندنا مقام وزوده من طرائف مصر ووهب له جارية حسناء ووصيفا نظيفا .

عاد أبو نواس إلى بغداد وشاع فيها ما قال للخصيب بمصر فقال له الرشيد يوما أنشدنى قولك فى الخصيب (منحتكمو يأهل مصر مودتى) فلما وصل إلى قوله :

---

(١) السفاة بالضم : الحبة وقوله : على حد حامى الظهر غيرركوب : يريد به السيف .

فإن يك باق إفك فرعون فيكمو فإن عصا موسى بكف خصيـــب

فقال له الرشيد ألا قلت : فباقى عصا موسى بكف خصيب فقال له هذا يا أمير المؤمنين أحسن ولكنه لم يقع لى (١) .

ولأبى نواس حين كان بمصر مداعبة ظريفة مع معاوية بن حديج الطبيب المصرى وكان عالما فليسوفا فقال له أبو نواس (٢) .

كلنـــا يابـــن حـــديج لك فى العلــم خــول
غير أن الطـــب أولى بك من كـــل عمـــل
أنت فيـــه فيلســـوف وبصـــــــــير بالعلـــل

٦ ـ أبو تمام الطائى :

وهذا شاعر عرف مصر أولا ، إذ قد نشأ بها وقال أول شعره فيها وكان أول أمره يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو ليقتات . فلما لم تعرف مصر قدره ورأى ما بالبلاد من نضوب الجود، وعلم أن همم الولاة بها لا تنهض بآماله أسرع إلى بغداد عش الأدب ومثابة كل طامع فى الثراء والشهرة، فلما شاع له فى بغداد ذكر وطارت شهرته بكل مكان ظن أنه إن زار مصر عرفت له مكانته إذ كان منشؤه ومرماه بها ، ولكنه لم يصادف بها إلا كل إهمال وازدراء لشأنه . وكان الوالى الذى قصده وهو عياش ابن لهيعة الحضرمى صاحب خراج مصر فمدحه أبو تمام فلم يلتفت اليه فأعاد الكرة مستبطئا فلم يأبه له فعاتبه فلم يبال بالعتاب ، فهجاه وهجا مصر من أجله . وبلغ من حنقه عليه أن هجاه وهو ميت . فمما قال فى مدحه :

رأيت لعياش خـــلائق لم تكن لتكمل إلا فى الأديب المهذب
له كرم لو كان للماء لم يغض وفى البرق ما شام أمرؤ برق خلب
أخو أزمات بذله بذل محســـن إلينا ولكن عذره عـــذر مذنب
إذا أمه العافون ألفـــوا حياضه ملاء وألفوا روضه غير مجـــدب
إذا قال أهلا مرحباً نبعت لهم مياه الندى من تحت أهل ومرحب

(١) أخبار أبي نواس ص ٢٤١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

ومما قاله فى استبطائه :

الفطر والأضحى قد انسلخا ولى أمل ببابك صــائم لم يفطــر
عام ولم ينتج نــداك وإنمـــا تتوقع الحبلى لتسعة أشــــهر
قصر بذلك عمر مطلك تحولى مدحا يعمــر عمر سبعة أنسر

وقال يعاتبه :

لن يهز التصريح للمجد والسو دد من لم يهــزه التعـــريض
كل يوم نوع يقفيــه نــوع وعروض تتلــوه فيك عــروض
وقواف قد ضج منهــا استعمل فيها المرفوع والمخفـــــوض
يا محب الإحســـان فى زمن أصبــح فيه الإحسان وهو بغيض
قل لعاً لابن عثرة ماله منهــا بشىء ســوى نداك نهــوض

وقال يذمه :

ستعلم يا عياش إن كنت تعلم فتندم إن خــلاك جهلك تنــدم
وقفت عليك الظن حتى كأنمــا لديك الغنى أوليس فى الأرض درهم
وإنك من مال وجــود ومحتد لأعدم من أن يستريشك معــدم

وقال فيه بعد موته :

فيمن يشــن الشعــر غاراته بعدك أو أمثاله الســـائره
قد كانت الدنيــا شفت لوعتى منك ولكن عذت بالآخــره
يا أســد الموت تخلصتـــه من بين لحيي أســد القاصره (١)
أجارك المكـــروه من مثله فاقرة نجتــك من فاقـــره

***

فالذى يمكننا أن نعده من هؤلاء الشعراء الطارئين على مصر ، ستة فحسب . إذا بحثنا دواعيهم فى القدوم إلى تلك البلاد رأيناها دواعى خاصة لا يصح أن يصدر عنها حكم ينفع الأدب بمصر أو يدل على أن سياسة الولاة كانت متجهة إلى إنعاشه .

---

(١) القاصرة موضع يمر به السائر من مكة إلى مصر . مر به عتبة بن أبى لهب فأكله أسد بهذا المكان .

ذلك بأن ربيعة الرقى كان وثيق العلائق بيزيد بن حاتم قبل ولايته على مصر ، وقد قصده فى ضيقة ففرج همه وقضى دينه وقال فيه الأبيات السابقة موازناً بينه وبين يزيد ابن أسيد السلمى ، فعلى حين أعطاه يزيد بن أسيد بعد أن وقف ببابه حولا كاملا خمسمائة درهم وهو ابن عمه ، أعطاه يزيد بن حاتم ما أخصب به جنابه ، إذ ملأ خفيه دنانير وأمر اه بغلمان و كسا . (١)

أما دعبل فقد علمت أنه كان مو كلا بقضاء الأرض يزرعه ، فليس فى قدومه إلى مصر حافز له سوى قلقه الدائم وفراره من وجوه من هجاهم من الخلفاء والامراء وكبار رجال الدولة .

وأمر عوف بن محلم معروف ، فقدومه إلى مصر إنما كان تابعا لقدوم عبد الله ابن طاهر الذى كان قد اختص به ولم يسمح له بالالمام بأهله الا بحيلة أعملها الشاعر و كان أجله قد انتهى فوافاه قبل موافاة أهله .

وقصة الحصنى مبينة عن حاجة الرجل إلى طلب أقصى مناحى العفو من قلب بن طاهر حتى ينسى حقده عليه .

وأبو تمام طمع فى وال بمصر فلم يظفر منه بشىء حتى ذمه بعد موته ، وذلك منتهى الحقد والضغن فلم يبق إلا شاعر واحد من الستة هو الذى كان قدومة لمحض الطمع فى عطاء الأمراء بمصر وظفر بطلبته ذلك هو أبو نواس .

ثم ألا يدل على انصراف الأمراء بتلك البلاد عن معونة الأدب وإنعاشه أن ترى من هؤلاء الشعراء الستة اثنين اتصلوا بأمير واحد وهما عوف والحصنى. اتصلا بعبد الله ابن طاهر المشهور بأدبه وغناه ومسابقته وسابقة أبيه فى خدمة الدولة .

وفى قصة أبى نواس دلالة أخرى على ضعف الأدب بمصر وانحطاط درجة شعرائها إذ ذاك ، فقد مر بلك أن الشعراء كانوا كثيرين حول الخصيب فطلب أبو نواس أن يتقدموه بالإنشاد فلما فعلوا ابتسم لشعرهم ابتسامة الاستهزاء وعلم أنهم لا يقاربونه فجعل قولهم بمثابة سحر المشعوزين من قوم فرعون ، وإذا بشعرهم أمام شعره حطام من حبال وعصى .

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٤٠ ، ٤١ (طبعة الساسى) .

مظاهر الأدب بمصر أيام ولاة العباسيين

استطعنا فى الفصول السابقة أن نتكلم عن مظاهر الآدب بمصر فجعلنا ها ثلاثة هى الكتابة والخطابة والشعر . واستطعنا أن نسجل تحت كل عنوان من هذه العناوين الثلاثة ، نماذج رويت عن أهل مصر ، وإن كانت قليلة لا تشبع نهمة الراغب فى التملؤ من تلك الآداب لنتمثل لها فى ذهنه صورة واضحة يتميز بها عصر عن عصر .

أما فى عهد ولاة العباسيين الذى قلنا إنه يبدأ من سنة **٢٣٢** هـ إلى سنة **٢٥٤** هـ فقد أعيانا البحث عن رسائل تبودلت بين الولاة والخلفاء ، أو خطب خطبها أولئك الولاة ، فلم نعثر على شىء من ذلك . وليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يتراسلون أو يخطبون ، ولكن سببه ما قدمنا من ضعف أمر الرواية بمصر أو انصراف هم المؤرخين إلى حوادث العراق لوقوع مقر الخلافة فيه .

فنى الكتابة لم نرهم رووا كتاباً ولا فصلا من كتاب ولا عرفونا اسم كاتب اشتهر بآثار قلمه .

أما الخطابة فإننا لم نظفر على كثرة ما اطلعنا إلا باشادتهم بذكر إسماعيل ابن صالح العباسى الذى ولى مصر سنة ١٨١ هـ . قال ابن عفير (١) : « ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح بن على » . ولا غرو فهو عباسى من سلالة أولئك اللسن المتاويل الذين عرفنا شأنهم فى العراق .

وجدير أن تكون الخطابة قد انحطت بمصر منذ صار يلى أمر البلاد أولئك الأتراك بعد أن كثروا فى الدولة العباسية وصار إليهم تدبير شأنها ، مثل اشناس ويزيد وأزجور التركيين .

أما الشعر فهو المظهر الذى نحكم حقاً بأنه قد نما فى هذا العهد وزاد عما كان عليه فى العهدين السابقين ، فقد رأينا لمصر شعراء نشئوا بها وعاشوا فيها وتتبعوا حوادثها فسجلوها ، وإن كانوا طبقة دون طبقة . هؤلاء الشعراء الطارئين الذين كانوا يقدمون لمدح الأمراء

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

أو البقاء فى كنفهم مدة ولايتهم . فهؤلاء شعراء نشئوا بالعراق حيث الرواية الكثيرة والشعر المهذب ، وحيث الحصافة المستفادة بالعلوم الكثيرة التى شاعت بالعراق فى تلك الأيام .

كان العرب بمصر على عهد الأمويين يعيشون كما ذكرنا آنفاً على حالة البداوة وكان الذين قالوا الشعرمنهم إنما قالوه بالسليقة العربية والملكة التى لم يكن الاختلاط قد عدا عليها . فأما فى العصر العباسى فقدكان للشعر شأن آخر ، إذكان قد نشأ فى البلاد جيل من الناس ضعفت فيهم السليقة العربية فاحتاجو إلى تقويتها بمدارسة اللغة ، وساعدهم على ذلك أن الحركة العلمية كانت قد نشطت بمصر تبعاً لنشاطها فى العراق ، فرحل من المصريين إلى بغداد والحجاز من تلقى عن علمائهما الدين والعربية ، وكذلك هاجر إلى مصر من علماء الإسلام من تولى تعليم أهلها الدين واللغة ، وذلك إلى جانب الكتب التى كانت تظهر ببغداد فتنقل نسخها إلى مصر . فكان لكل ذلك أثر فى ذيوع ثقافة علمية أدبية بمصر لم يكن لها بها عهد من قبل . وقد ساعدت تلك الثقافة على أن يوجد بمصر علماء وأدباء يدرسون الدين وعلوم العربية من شعر ونحو ، فنشأت طبقة من الشعراء تقول الشعر المهذب ، ولكنه شعر مناسب لمقدار تلك الثقافة التى وصلت إلى المصريين ، وهى لم تكن بجانب ثقافة العراقيين خصوصاً فى العلوم العقلية المترجمة إلا وشلا من بحر .

على أن تلك القلة فى هذا النوع من الثقافة خاصة كان لها أثر محمود فى شعر المصريين ، إذ قد برئ من التعقيد وساير الطبع إلى حد بعيد ولم يفش فيه البديع الذى أثقل كاهل الأدب ببغداد على يد مسلم وأبى تمام ومن نحا نحوهما .

وكان قد لزم هذا العصر اضطراب فى السياسة بمصر . فكان الولاة لا يكادون يستقرون بها ، وهى سنة جرى خلفاء بنى العباس عليها لخوفهم من طموح هؤلاء إلى الاستقلال بالبلاد . ولكثرة الفتن التى كانت تنشأ بها من قبائل العرب ضد الولاة أو من بعضهم ضد بعض ، أو من قيام العلويين بمصر يطالبون بالخلافة ، أومن الأقباط يثورون على الحكام منفردين أو متحدين مع المسلمين . وقد بلغ من سرعة تغيير الولاة أنهم بلغوا فى عهد الرشيد سبعة عشر ، وفى عهد المأمون ثلاثة عشر .

وقد كان لهذه الحال أثر فى الشعر ، فقد رأينا شعراء مصر يقولون فى ذلك كثيراً منددين بالولاة ، ناعين عليهم ظلمهم ، أو داعين إلى طاعتهم .

ونحن نورد أمثلة من أقوال الشعراء المصريين فى حوادث السياسة ببلادهم .

أمثلة من أقوال الشعراء المصريين
فى حوادث السياسية ببلادهم

١ – موسى بن مصعب وثورة العرب ضده :

ولى مصر موسى بن مصعب من قبل المهدى فتشدد فى استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما كان عليه فعقدت قيس واليمانية حلفا فيما بينهم وقاوموا عماله فحاربهم موسى فانهزم وقتل فقال سعيد بن عفير فى ذلك يذكر أهل الحوف (١)

ألم ترهم ألوتْ بموسى سيوفهم ... وكانت سيوفاً لا تدين لمترف
فما برحت فيه تعود وتبتدى ... إلى أن تردى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى ... بمصر من الدنيا سايبا بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهمو ... ذخائر إن لا يُنْقد الدهر تُعْرف

٢ – إذعان أهل الحوف ليحيي بن معاذ :

كان أهل الحوف يأبون دفع الخراج ويشاغبون على العمال فأرسل أمير المؤمنين هرون الرشيد يحيي بن معاذ فنزل بجيشه بلبيس فأذعن أهل الحوف بالخراج وكان الشاعر أبو عثمان السكرى قد نصحهم بقوله : (٢)

يا قيس عيلان إنى ناصح لكم ... أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إنى أحذركم يحيي وصولته ... فما رأيت له بُقيا إذا غضبا

٣ – وفاء كوفاء السموءل :

كان المطلب بن عبد الله الخزاعى والى مصر من قبل المأمون ، قد طلب إبراهيم ابن نافع الطائى فظهر له أنه مستجير بهبيرة بن هاشم مستتر عنده فأحضر المطلب هبيرة وعرضه على السيف أو يأتيه بالطائى فامتنع هبيرة ، فلما سكن المطلب عن الطائى أخرجه هبيرة إلى الصعيد فأفلت فقال سعيد بن عفير (٣)

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ .
(٣) الولاة والقضاة ص ١٥٢ .

لعمرى لقـــد أوفى وفاق وفــاؤه هبيرة فى الطائى وفـــاء السموءل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفســـــــه وقد برقت فى عارض متهلـــــل
فما انفك محبوســـاً ومطلب لـــه عليه قصيف بالوعيـــــد المهـــول
فما زاده الإيعــــــاد إلا توقـــرا وصبرا ولم يخشع ولم يتفــــكل
إلى أن تجلت عنــه أبيض ماجـــدا كريم النثا فى المشهد المتـــــدخل

٤ ـ سليمان بن غالب والسرى بن الحكم :

ولى سليمان بن غالب مصر سنة ٢٠١ فقبض على السرى بن الحكم وسيره إلى إخميم من صعيد مصر فكتب السرى إلى بنى مدلج فلحقوا به هم وكثير من الناس وأقبل فيهم السرى إلى الفسطاط فقاتله جيش سليمان وتغلب عليه فقال معلى الطائى (١) .

إذا شن فى أرض سليمان غـــــارة أثار بها نقعاً كثير المصائـــــب
ألم تر مصرا كيف داوى سقيمهـــا على حين دانت للعـــدو المناصب
حماها ولولا ما تقلـــد أصـبحت حبيساً على حكم القنا والمقانــب

٥ ـ رثاء ميمون بن السرى :

مات ميمون فى قتال بينه وبين عبد العزيز الجروى فقال معلى الطائى يرثيه (٢)

لو رد غرب منية بشجاعـــــــة أحد لدافع ركنهـــا ميمــــــون
لو كان تجريـــد السيوف يردهـــا لحماه منها منصـــــل وثمين
مازلت أطمع فى رجوعك سالمـــا ويروعنى شفقاً عليك ظنـــــون
فليفجعن غــــــدا بقتلك طاهـــر وليفجعن بقتلك المأمــــــــون

٦ ـ عبيد الله بن السرى وعبد الله بن طاهر :

لما أقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر لتهدئة فتنها بعث إلى عبيد الله بن السرى يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن فاضطر إلى محاربته ، ولكنه جاء كتاب من المأمون بتأمين عبيد الله فأمنه ابن طاهر . وكان عبيد الله بن السرى صغيراً ملقباً بالأمرد ليس له صبر على الحروب فقال أحمد الحمراوى يتهكم به (٣)

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .
(٣) الولاة والقضاة ص ١٨٢ .

أترجو مهاة دفع ضرغام غابة   اشتان ما بين المها والهزابر
وإن أحق الناس أن يشهد الوغى   ويقصف أصلاب الملوك الجبابر
لمن لم يكن فى الروع فى زى غادة   ولم يحتجب صبحا لمشط الضفائر

٧ — خروج عبيد الله بن السرى إلى بغداد :

لما خرج ابن السرى إلى بغداد بعد تأمينه بأمر المأمون قال فيه حبيب بن أوس الطائى (أبو تمام قبل أن يخرج من مصر راحلا إلى بغداد)

فأورده بغداد يهوى برجله   ذمول ترامى فى قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلال نعيمه   وأى نعيم ليس يوما بزائل

٨ — مقتل عمير بن الوليد :

كان عمير والياً على مصر فخرج لإخضاع أهل الحوف فانهزموا ولكنه قتل فى تلك الموقعة فقال أبو تمام (١)

ألارزئت خراسان فتاها   غداة ثوى عمير بن الوليد
فيا يوم الثلاثا كم كئيب   رماه الحزن فيك وكم عميد
فكم سخنت فينا من عيون   وكم أعبرت فينا من خدود
فما زجرت طيورك عن سنيح   ولا طلعت نجومك بالسعود

هذه صور من شعر شعراء مصر فى هذه الفترة يتجلى فيها ما قدمنا لك من سذاجة وبساطة وبراءة من الصنعة وقد كان كل ذلك نتيجة للبيئة المصرية التى صورناها لك فى مقدمة هذا الفصل .

---

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

الفصل الرابع

الحركة العلمية في مصر

من الفتح الإسلامي إلى انتهاء عصر الولاة العباسيين

من سنة ٢٠ إلى سنة ٢٥٤هـ

- تمهيد
- علم القراءات
- علم الحديث
- المذاهب الفقهية
- النحو والتاريخ
- العلوم العقلية والدنيوية

الحركة العلمية في مصر

من الفتح الإسلامي إلى انتهاء عصر الولاة العباسيين

تمهيد

انقضى القرن الأول الهجرى ونصف الثانى تقريباً والعرب لا يعرفون فى كل مافتحوه من البلاد إلا حديث الملاحم والفتوح ، وإلا علم الشرع المستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية وإلا قليلا من النحو وبعض العلوم الإسلامية كالآداب والرواية واللغة.

وكان أهم هذه العلوم طبعاً هو علم الشرع ، وكان أول الحاملين له الذين نقلوه لى جميع الأقطار الإسلامية هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين فهموا عنه القرآن وشاهدوا فعله ووعوا قوله فكانوا مادة هذا العلم؛ وناقليه إلى كل الأقطار الإسلامية او عنهم أخذ التابعون ومن بعدهم .

وكان نصيب مصر من هؤلاء الصحابة كثيراً حتى عد المؤرخون ، من الصحابة الذين دخلوا مصر وعاشوا فيها وروى عنهم أهلها أحاديث رسول الله ، نحوا من ثلثمائة ما منهم إلا من تعلم منه المصريون حكماً دينياً أو رووا عنه حديثاً نبوياً أو استفتوه فى شبهة عرضت لهم .

كان على رأس هؤلاء عمرو بن العاص فاتح مصر الذى وليها لعمر بن الخطاب ثم لمعاوية وبقى بها إلى أن مات سنة ٤٣ هـ وقد روى عنه أهل مصر نحو عشرة أحاديث ، ومنهم عبد الله ابنه الذى اختط بمصر وروى عنه المصريون لاأكثر من مائة حديث ومات بها سنة ٧٧ هـ على قول ابن سعد فى طبقاته ، ومنهم أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، وأخوه محمد الذى ولى مصر من قبل على وقتل بها ، وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ، وأخوه عبد الله الذى كان يسمى البحر لسعة علمه ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كتب الوحى لرسول الله ، والزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد

أعلام السادة البدريين ، ورافع بن ثابت الذى أكل مع النبى رطبا ، وخارجة بن حذافة الذى كان على شرطة عمرو بن العاص فاستخلفه على الصلاة فقتله الخارجى الذى كان يريد عمراً .

وعاش بمصر من التابعين طبقة بعد طبقة من أبناء هؤلاء الصحابة وغيرهم كثير ، ومن التابعين من عد من الأئمة المجتهدين كيزيد بن أبى حبيب فقيه مصر وشيخها ومفتيها لقى عبد الله بن الحارث الصحابى نزيل مصر وروى عن سالم ونافع وعكرمة وعطاء وخلف ، وعنه روى ابن (كهيعة) والليث وآخرون . قال ابن سعد فى طبقاته : كان ثقة كثير الحديث . وقال ابن يونس : كان مفتى أهل مصر . وهو أول من أظهر العلم بها وتكلم فى المسائل من الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن . وهو أحد ثلاثة جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا بمصر . وقال الليث : هو سيدنا وعالمنا . مات سنة ١٢٨ هـ .

★ ★ ★

ظلت حركة العلم بمصر منذ الفتح عربية إسلامية لم يشبها شىء من الفلسفة ولا غيرها ؛ فكانت كما قلنا تاريخاً أخصه ما جرى من الملاحم فى فتوح المسلمين وما كان من سيرة رسول الله وغزواته ، وكانت تفسيراً لكتاب الله بنقل الآراء فى فهمه عن رسول الله وصحابته ، وكانت دراسة لحديث رسول الله واستنباطاً لأحكام الدين منه ومن القرآن الكريم ، وكانت فتياً فيما يعرض من المشاكل ودقيق المسائل الفقهية ، وكانت قراءات للقرآن اختلف فيها القراء على حسب ما صحت عندهم روايته كما اختلفوا فى حديث رسول الله .

هذا ما كان يدور غالباً فى مجالس العلم بمصر ، ومصر فى ذلك مثل العراق والشام وإن امتاز هذان القطران بالبحث فى اللغة ورواية الشعر وما نشأ عنها من علم النحو والرواية الأدبية ، لقربهما من بلاد العرب وفيها مادة هذه البحوث ، ولوجود الخلفاء بهما : فى الشام على أيام الأمويين وفى العراق على أيام العباسيين فقد شجع هؤلاء الخلفاء الآداب وحملوا الناس على الاحتفاظ بذلك التراث العربى المجيد الذى كان فى تمجيده تمجيداً لأنفسهم ، وفى حياته حياة للغتهم بل لدينهم .

ولا نعفى مصر من بحث النحو والآداب ورواية الشعر فإن لها فى ذلك نصيباً وإن قل عن نصيب الشام والعراق ، ذلك بأن العربى حيث حل لا يحلو له إلا المذاكرة فيما لآبائه

من مفاخر وما رمي به أعداؤه من معايب فللرواية شأنها حيث يكون العربي وأينما نزل . والنحو والصرف كما نعلم إنما يحفز إليهما الخوف على القرآن الكريم والاستمساك بنصيب من الملكة العربية التي كاد يأتي عليها الاختلاط بالأعاجم . فالحوافز التي دفعت العرب في العراق والشام إلى العناية بهذين الموضوعين كانت كذلك بمصر . فاشتغل العرب بمصر في النحو والرواية كما اشتغلوا بالعراق والشام وإن كان اشتغالهم بذلك في مصر قليلا لما ذكرنا من أسباب ، وكان عمل المصريين في ذلك تقليداً ومحاكاة دون أن يكون خلقاً للعلم أو وضعاً لأسسه .

أما الفلسفة وما انضم إليها من طب وهندسة وغير ذلك ، فلم يكن لها بمصر نصيب من العناية لأن هذه العلوم إنما شجع عليها وجود الخلفاء ببغداد ورغبتهم في نقل علوم الأمم إلى العربية ليجمعوا في مدنيتهم أسباب مدنيات الأمم التي سبقتهم ، فأما مصر فلم يكن من هم الولاة ولا في مقدورهم النهوض بشيء من ذلك . فكانت مصر بعيدة عن هذه الحركة لبعدها عن مثارها ، ولم يمنع ذلك أن تصير إليها هذه العلوم بعد ظهورها ببغداد وشيوعها فيها ، وقد نظر المصريون في هذه البحوث ولكن بقدر ، ثم نالهم شر من النار التي تأججت من ذلك فأوذوا في فتنة خلق القرآن وأتى بهم إلى بغداد فقتل من قتل وأوذى من أوذى إلى آخر ما كان من شأن هذه الفتنة وانتهاء محنتها على أيام المتوكل .

وكانت هذه المذاهب التي نشأت بالعراق وتعددت بسببها الفرق الإسلامية ما بين سنيين ومعتزلة ومرجئة ، وكذلك مذاهب الإلحاد وما تنوع إليه ، كل ذلك لم يكن له بمصر ظل أو كان ظله فيها متقلصاً ومن الأدلة على ذلك ما ورد في كتاب « الولاة والقضاة » للكندي . قال : (١)

« .. أظهر علي بن سليمان والي الرشيد على مصر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر .. وكان كثير الصدقة في الليل ، ومع هذا كان أهل مصر يرمونه بالقدر وذلك أنه استخلص رجلين متهمين بالقدر »

فإذا علمت أن القول بالقدر كان تهمة شنيعة بين المصريين وكان لا يقبل ممن يدين به صرف ولا عدل مهما كان خيراً رضياً علمت مقدار تزمت المصريين إلى جانب حرية

---

(١) ص ١٣١ .

أهل العراق فيما يتقلدون من مذاهب خصوصاً المذاهب التى يضمها الدين الإسلامى ويحنو عليها هناك .

★ ★ ★

وهذا هو حديث تلك العلوم التى راجت بمصر منذ الفتح إلى نهاية عهد الولاة العباسيين سنة ٢٥٤ هـ . نفصله بعض التفصيل فنتكلم عن كل علم ونعد من رجاله ما اتسع المقام لذلك .

أولا – علم القراءات

كان له مظهر قوى إذ كان بمصر من رجاله عقبة بن عامر الجهنى ، وأبو تميم الجيشانى وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وعثمان بن سعيد بن عدى المعروف بورش وهو مصرى صميم أصل أجداده من الأقباط من موالى آل الزبير بن العوام . ولد سنة ١١٥ هـ . ورحل إلى المدينة فقرأ على نافع سنة ١٥٥ وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه ثم عاد إلى مصر فانتهت إليه رياسة القراء بها ومات سنة ١٩٧ (١)

وقد تعدد تلاميذ ورش فكان منهم أبو يعقوب الأزرق الذى لزم ورشا مدة طويلة وخلفه فى الإقراء بالديار المصرية ومات فى حدود سنة ٢٤٠ هـ .

ومن تلاميذ ورش أيضاً عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى الذى أخذ عنه لأندلسيون هذه القراءة ومات سنة ٢٣١ .

وغيرهم كثير أحصاهم السيوطى جيلا بعد جيل إلى أن وصل بهم إلى شمس الدين محمد بن على الغزولى المعروف بالزراتيتى المتوفى سنة ٨٢٥ (٢) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٧ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٢ .

ثانيا ــ علم الحديث

نهض به أول من نهض هؤلاء الصحابة الذين حضروا إلى مصر أيام عمرو بن العاص منهم عقبة بن عامر الجهنى، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان كما قلنا من المكثرين لرواية الحديث لأنه كان يكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يسمعه، ومن قوله فى ذلك (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب كل ما يقول لا أو نعم) ، ومنهم الأعرج عبد الرحمن بن داود المدنى صاحب أبى هريرة ، أكثر النقل عنه وقال فى حقه البخارى ، أصح أسانيد أبى هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة . وقال عنه الذهبى فى طبقات القراء : كان الأعرج أول من وضع العربية بالمدينة أخذ عن أبى الأسود . خرج إلى الاسكندرية ومات بها سنة ١٢٧ . (١)

ومنهم أيضاً (أسد السنة) أسد بن موسى بن إبراهيم المصرى روى عن شعبة وروح وروى عنه الربيع الجيزى وأحمد بن صالح . ولد بمصر سنة ١٣٢ هـ ومات بها سنة٢١٢هـ. وقد اعتمد أصحاب الكتب الستة على رواية كثير من المصريين : فسعيد بن عفير ويحيى ابن بكير وعبد الله بن صالح وغيرهم كانوا من شيوخ البخارى . وأحمد بن يونس ويحيى بن يحيى التميمى من شيوخ مسلم وأبى داود .

وكان أول جامع للحديث بمصر هو عبد الله بن وهب المولود بمصر سنة ١٣٤ والمتوفى بها سنة ١٩٧ . وقد ألف كتابه (الجامع فى الحديث) وظل هذا الكتاب مفقوداً حتى عثر عليه أخيراً بمدينة إدفو مكتوباً على ورق البردى، ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى العالم وترجع كتابته إلى القرن الثالث الهجرى .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ .

ثالثاً ـــ المذاهب الفقهية

١ ـــ مذهب الإمام مالك

أول ماعرفه المصريون من المذاهب الفقهية هو مذهب الإمام مالك ، وكان خاصة أصحابه منهم : ابن القاسم وأشهب وابن وهب (المحدث المتقدم ذكره) وعبد الله ابن عبد الحكم .

فأما ابن القاسم فهو الإمام عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى بالولاء صحب مالكا عشرين سنة . وهو صاحب المدونة فى مذهب مالك وهى من أجل كتبهم . وقد صارت إليه رياسة المالكيين بمصر إلى أن توفى سنة ١٩١ . وكان ميلاده ١٣٢ .

والعتقى نسبه إلى العتقاء وهم قوم لم يكونوا من قبيلة واحدة وكانوا يقطعون الطريق على من أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم من أتى بهم أسرى فأعتقهم ، فلما خرج عمرو لفتح مصر كان العتقاء ممن ضمهم جيشه .

وأما أشهب : فهو الإمام أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز تفقه على الإمام مالك . وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم شديدة ، وقد انتهت الرياسة إليه بمصر بعد ابن القاسم. وهو الذى أدركه الشافعى بمصر من أصحاب مالك فناظره وقال فيه : ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه . وقد وصفه ابن وهب فقال : كان أشهب فقيهاً فى علوم شتى ما سئل عن شيء إلا أجاب وقد توفى سنة ٢٠٤ وهى السنة التى مات فيها الشافعى وإن كان الشافعى قد مات قبله .

وأما عبد الحكم : فهو أبو محمد بن الفقيه المالكى المصرى . وكان أعلم أصحاب مالك بمختلف أقواله وقد أفضت إليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب ، وروى عن مالك الموطأ سماعا وكان من ذوى الأموال له جاه عظيم وقدر كبير ، ويقال أنه دفع إلى الشافعى عند قدومه إلى مصر ألف دينار من ماله وأخذ له من عسامة التاجر ألفاً أخرى ومن رجلين آخرين ألفاً ثالثة .

وقد كنى أبا محمد بابنه محمد الذى صحب الشافعى بإذن أبيه سراً وسيرد ذكر ذلك فى الحديث عن أصحاب الشافعى .

وقد ولد بن عبد الحكم سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢١٤ ودفن إلى جانب قبر الشافعى مما يلى القبلة .

الليث بن سعد :

إمام من كبار الأئمة المجتهدين فى الدين يسامى الإمام مالكا ، وقد استحق ثقته إذ يقول عنه : حدثنى من أرضى من أهل العلم .

وإنه ليعد مفخرة لمصر إذ كان ميلاده بها ببلدة قلقشنده (١) سنة ٩٤ هو وإن كان فارسى الأصل من أهل أصبهان . نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبى حبيب ثم طاف بالبلاد فى طلب العلم فدخل مكة وزار بيت المقدس وبغداد وقابل بهذه البلاد كثيراً من التابعين فأخذ عنهم الحديث ورووا هم عنه أيضاً .

وفضل الليث معروف مشهور شهد به الجميع فيقول الإمام الشافعى :

« الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » وكان بن وهب يقرأ عليه مسائل الليث فقال رجل من الغرباء أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب ، فقال بن وهب « بل كان مالكاً يسمع والليث يجيب فيجيب . والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت أحداً أفقه من الليث (٢) » .

وكان من تلاميذ الليث من كان من شيوخ أحمد بن حنبل .

وكان الليث عظيم المنزلة عند القاضى والوالى حتى كانا لا يقطعان أمراً دون مشورته حتى قال بعض الشعراء بيتين وأرسلهما إلى الخليفة المنصور وهى :

لعبد الله عبد الله عندى ... نصائح حكتها فى السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصرا ... فإن أميرها ليث بن سعد

وكان الليث مع فقهه ودينه يأخذ نصيبه من الدنيا ويمتع نفسه بالحلال لأنه كان ثرياً وقد كتب إليه مالك يقول : بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق فرد عليه الليث بقوله تعالى (من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وكان كريماً يتخذ لأصحابه الفالوذج ويجعل فيها الدنانير فمن أكل أكثر كان نصيبه منها أكثر (٣) . وقد أسف الشافعى لكونه لم يدرك الليث بمصر إذ قد مات سنة ١٧٥ هـ .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٨ .

٣ — مذهب الإمام الشافعى

قبل حضور الإمام محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر كان المصريون كلهم على مذهب مالك لا يعرفون خلافاً ولا يجرى بينهم نقاش إلا كما يجرى بين أهل المذهب الواحد فى الفروع التى يهون أمرها ولا تستوجب عنفاً فى الجدل ولا شدة فى الخصومة .

ومنذ حل الشافعى بمصر سنة ١٩٩ وقيل سنة ٢٠١ هـ (١) حدث بين المصريين ذلك الخلاف على أشده . كان الشافعى قبل حضوره إلى مصر قد زار بغداد وأقام بها سنتين ثم عاد إليها فأقام بها شهراً قبل مقدمه إلى مصر مباشرة ، وبغداد كما نعلم موطن القياس الذى جرى عليه الإمام أبو حنيفة النعمان وأصحابه ، وهى أيضاً مقر الفلسفة والمنطق فاستفاد الشافعى من رحلته إليها كثيراً من حرية الرأى فى الفهم والتخريج ، وذلك غير ما جرى عليه أصحاب مالك من التزام النص والوقوف عند حدود الرواية ، لذلك كانت طريقة الشافعى جديدة على المصريين جريئة فى نظرهم فلم يلبثوا بعد أن سمعوا كلام ذلك الإمام أن رموه بأشياء كثيرة حتى لقد ضربوه فى حلقة درسه ضرباً مبرحاً حمل على إثره إلى منزله عليلا . (٢)

وذكروا أن القاضى عيسى بن المنكدر ، كان يصيح بالشافعى ويقول له :

يا كذا دخلت بلدنا وأمرنا واحد ففرقت كلمتنا وألقيت الشر بيننا ، فرق الله بين روحك وجسدك . (٣) .

وكانت جمهرة رجال الدين بمصر تنظر إلى من يتصل بالشافعى ويقبل على درسه نظرة المقت وتعده خارجا عليهم . حكى محمد بن عبد الله بن الحكم قال : كنت أتردد إلى الشافعى فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبى (كان أبوه على مذهب مالك كما تعلم مما مربك) فقالوا له يا أبا محمد : إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة منه عن مذهب أصحابه قال فجعل أبى يلاطفهم ويقول هو حدث ويجب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ، ويقول لى فى السر يابنى الزم هذا الرجل (٤) .

ولقد كان دخول الشافعى مصر بركة ويمنا على المصريين لأنه علمهم مناقشة

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) معجم الأدباء جزء ١٧ ص ٣٢٣ .

(٣) الولاة القضاة ص ٤٣٨ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥٧ .

الحقائق بعد أن كانوا يستسلمون إلى الرواية استسلاما . ولا شك أن للجدل والمناظرة أثرهما فى تنوير الأذهان وتنبيهها . وقد كان الشافعى رضى الله عنه يتبع طريقة المناظرة فى كتبه كما يتبعها فى درسه، إذ كان يأتى بالآية أو الأثر ثم يشرحه ثم يستنبط منه ما انتهى إليه رأيه ، وذلك هو مانراه فى كتابيه الرسالة والأم .

وقد كان لأدبه وعلمه باللغة وروايته لأشعار العرب أثر عظيم فى حسن عبارته؛ وقد تناقل أصحابه عباراته فصار لفقه الشافعية ميزة على غيره فى دقة الألفاظ وحسن اختيارها.

شيء من أخبار الشافعى ورحلته إلى مصر :

يحسن بنا وقد كان لمذهب الامام محمد بن إدريس شيوع كبير بمصر بعد حلوله بها أن نذكر نبذا عن تاريخ هذا الإمام الجليل وبخاصة بعد رحلته إلى تلك البلاد :

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، ينتهى نسبه إلى عبد مناف فيجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الجد . وباقى النسب إلى عدنان معروف. وأمه هى السيدة فاطمة بنت عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب . فهو شريف علوى .

كان مولده بمدينة غزة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ وبعد سنتين انتقلت به أمه إلى مكة فنشأ بها وتعلم وما أن بلغ خمس عشرة سنة حتى كان قد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والآداب والشعر حتى إن الأصمعى نفسه كان يفتخر بأنه تلقى أشعار الهذليين عن الشافعى (١) .

وقد رحل الشافعى إلى المدينة وتلقى الحديث عن الإمام مالك بعد أن كان قد حفظ الموطأ بمكة ، فكان موضع أعجاب مالك وعطفه . ثم قدم بغداد .

والحديث يطول إذا تناولنا بالبحث ذكاءه وقوة حفظه فإنه كان فى ذلك أعجوبة زمانه . وقد اعترف له كل من لقيه بالفضل الغزير .

قدم بغداد أول مرة سنة ١٩٥٠ هـ وأقام بها سنتين ثم رجع إلى مكة وعاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ فاقام بها شهرا ثم خرج إلى مصر فوصلها سنة ١٩٩ هـ .

دخل الشافعى فنزل على قوم من أهله من الأزد . وقد علم بمجيئه عبد الله بن الحكم من كبار علماء مصر وأعيانها وممن أملى عليهم الشافعى الموطأ بالمدينة ، فوضع بين

---

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١١ والوفيات ج ١ ص ٤٤٧ .

يدى الشافعى ثلاثة آلاف دينار وقد مر تفصيل الكلام فيها عند الكلام على عبد الله ابن الحكم فى رجال المالكية .

ابتدأ الشافعى يلقى دروسه بجامع عمرو بن العاص فكان عقب صلاة الصبح يجلس إلى أهل القرآن يقرءون عليه ويسمعون منه ، فإذا طلعت الشمس جلس إليه إهل الحديث ، فإذا ارتفعت حضر اهل المناظرة ثم اهل العربية والعروض والنحو والشعر . ثم ينصرف إلى منزله وقد اشتغل بالعلم والتعليم ثمانى ساعات متوالية . (١) وضع الشافعى فى مصر كتبه الأخيرة وكانت نحو عشرين كتابا منها الرسالة والأم وكان له مع المصريين مفاكهات جميلة يروح بها عن تلاميذه إذا ظن أن الضجر لحقهم أثناء الدرس . فمن ذلك ماحكى لهم يوما أن رجلا كان له ولد أبله ، فارسله إلى السوق ليشترى له حبلا طوله ثلاث أذرع ، فمضى الولد إلى السوق ثم عاد إلى أبيه يسأله كم عرض الحبل فقال له أبوه : عرضه كعرض مصيبتى فيك . وكان يمازح المصريين فيقول لهم : ما أقمت بمصر إلا حبا لقصب السكر ببلادكم وكان يحبه كثيرا . (٢)

وكان المصريون قد عرفوا فضله فكانوا يرسلون إليه الهدايا الكثيرة والهبات الجليلة ، وكان له راتب من السيدة نفيسة رضى الله عنها ؛ كما كانت السيدة زبيدة زوج الرشيد ترسل إليه من بغداد مالا وثيابا . ولكنه كان كريما جدا فكان يفرق فى الناس كل ما يأتيه ، وفى يوم من الأيام أرسل إليه أحد المصريين كيسا مملوءا بالنقود فأخذه من الرسول على باب منزله . وما هو إلا أن أقبل رجل يقول له إن زوجتى قد وضعت وليس لدينا شيء فدفع إليه الكيس بختمه ودخل المنزل وليس معه شيء ويقال إنه كان يمر راكبا فى سوق الحدادين بالفسطاط فوقع سوطه من يده فقام إليه حداد وناوله إياه فشكر له الشافعى صنيعه والتفت إلى غلامه وقال له ادفع إليه مامعك وكان الذى مع الغلام ثلاثة عشر دينارا فدفعها إلى الحداد .

مات رحمه الله بمصر سنة ٢٠٤ فكانت إقامته بها خمس سنين وأشهرا . وقد خلف بمصر تلاميذ كثيرين منهم الربيع بن سليمان المرادى والربيع الجيزى وحرملة الشمبيى ويونس بن عبد الأعلى وإسماعيل المزنى ويوسف البويطى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم ممن صاروا أئمة فى الدين بعده .

---

(١) رحلة الإمام الشافعى إلى مصر للأستاذ مصطفى منير أدهم ص ٣٧ ومعجم الأدباء ج ١٧ ص ٣٠٤ .

(٢) رحلة الشافعى إلى مصر ص ٣٤ .

وها نحن أولا ، نعرفك ببضهم تعريفا مختصرا دالين على مراجعه لتتوسع منها قدر طاقتك .

الربيع بن سليمان المرادى (١)

هو الذى روى أكثر كتب الشافعى وقال الشافعى فى حقه. الربيع راويتى وكان يقول له ياربيع لو أمكننى أن أطعمك العلم لأطعمتك .

وفى كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة البويطى . قال الربيع بن سليمان: كنا جلوسا بين يدى الشافعى رضى الله عنه أنا والبويطى والمزنى فنظر الى البويطى فقال ترون هذا إنه لن يموت إلا فى حديده . ثم نظر إلى المزنى فقال: ترون هذا؟ إنه سيأتى عليه زمان لايفسر شيئا فيخطئه . ثم نظر إلى فقال والله ما فى القوم أحد أنفع لى منه ولوددت أنى حشوته بالعلم حشوا .

توفى سنة ٢٧٠ ﻫ والمرادى نسبة إلى مراد وهى قبيلة كبيرة باليمن .

الربيع الجيزى (٢)

صاحب الإمام الشافعى لكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله ابن عبد الحكم . كان ثقة روى عنه أبو داود النسائى نزيل مصر . وكان الربيع ورعا ولا يزال يذكر الآخرة وما بعد الموت حتى قيل إنه اجتاز يوما بمصر فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته وجعل ينفضه عن ثيابه ولا يقول شيئا فقيل له ألا تزجرهم فقال : من استحق النار فصولح بالرماد فقد ربح .

توفى سنة ٢٥٦ ﻫ ، والجيزى نسبة إلى الجيزة كان الربيع منها .

حرملة التجيبى (٣)

صاحب الإمام الشافعى كان أكثر أصحابه اختلافا إليه واقتباسا منه وكان حافظا للحديث روى عنه مسلم بن الحجاج فإكثر فى صحيحه من ذكره .

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٣ . وشذرات الذهب ج ٢ ص ١٥٩ . والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٤ وشذرات الذهب ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٨ .

مات سنة ٢٤٣ . والتجيبى نسبة إلى تجيب وهى قبيلة سميت باسم امرأة فنسب إليها أولادها .

يونس بن عبد الأعلى الصدفى (١)

أحد أصحاب الشافعى المكثيرين فى الرواية عنه والملازمة له . كان علامة فى الأخبار صحيحها وسقيمها لم يشاركه أحد من أهل زمانه فى هذا . يروى عن الشافعى أنه قال ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى .

قيل إن القاضى بكار بن قتيبة لما توجه إلى مصر متوليا قضاءها لقى فى طريقه محمد بن الليث قاضى مصر قبله فقال له أنا رجل غريب وأنت قد عرفت البلد فدلنى على من أشاوره وأسكن إليه فقال له عليك برجلين أحدهما عاقل وهو يونس بن عبد الأعلى فإنى سعيت فى دمه فقدر على فحقن دمى ، والآخر موسى بن عبد الرحمن ابن القاسم فإنه رجل زاهد .

وكان يونس أحد الشهود بمصر أقام شاهدا بمصر ستين سنة .

توفى سنة ٢٦٤ ﻫ والصدفى نسبة إلى الصدف بن سهل وهى قبيلة كبيرة من حمير نزلت مصر .

إسماعيل المزنى (٢)

من أهل مصر كان زاهدا عالما مجتهدا غواصا على المعانى الدقيقة وهو إمام الشافعيين وأعلمهم بفتاويه وطرقه صنف كتباً كثيرة فى المذهب منها الجامع الكبير والجامع الصغير والمنثور والترغيب فى العلم وهى مفقودة ومختصر الجامع وهو مخطوط .

قال الشافعى فى حقه : المزنى ناصر مذهبى

وكان القاضى بكار بن قتيبة لما ولى قضاء مصر توقع لقاء المزنى مرة فلم يتفق له حتى اجتمعا فى جنازة فقال القاضى بكار لأحد أصحابه سل المزنى شيئا حتى أسمع كلامه فقال له ذلك الشخص : قد جاء فى الأحاديث تحريم النبيذ وجاء تحليله فلم قدمتم التحريم على التحليل قال المزنى : لم يذهب أحد إلى أن النبيذ كان حراما فى الجاهلية

---

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٧١ .

ثم حلل، ووقع الاتفاق على أنه كان حلالا، فهذا يعضد صحة أحاديث التحريم فاستحسن ذلك منه قال ابن خلكان «وهذا من الأدلة القاطعة».

وكان المزنى من ورعه يشرب طول أيام السنة من كوز نحاس فقيل له فى ذلك فقال: بلغنى أنهم يستعملون السرجين فى الكيزان (يريد من الطين) والنار لاتطهرها. وكان إذا فاتته صلاة جماعة صلى منفردا خمسا وعشرين صلاة استدراكا لفضيلة الجماعة مستندا إلى قوله عليه الصلاة والسلام «صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة.

توفى سنة ٢٦٤ والمزنى نسبة إلى مزينة بنت كلب أو هى قبيلة كبيرة مشهورة.

يوسف البويطى

كان واسطة عقد جماعة الشافعى وأظهرهم نجابة اختص به فى حياته وقام مقامه فى الدرس والفتوى سمع من ابن وهب والشافعى وسمع منه أبو إسماعيل الترمذى والحربى والجوهرى والرمادى وغيرهم. (١)

وكان قد امتحن فى مسألة القول بخلق القرآن فحمل من مصر إلى بغداد أيام الواثق وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع عن الإجابة فحبس ولم يزل فى السجن والقيد حتى مات (٢).

قال الربيع بن سليمان: رأيت البويطى على بغل فى عنقه غل وفى رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا وهو يقول:

إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق بكن فإذا كانت كن مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا. فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم، ولئن أدخلت عليه (يعنى الواثق) لأصدقه ولم يخرج إلى بغداد فى هذه المحنة من أصحاب الشافعى غيره.

وهذا الذى جرى للبويطى هو ماتحدث به الربيع بن سليمان ورواه صاحب تاريخ بغداد وقد تقدم فى ترجمة الربيع بن سليمان المرادى.

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٦.

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٧١.

قال الخطيب البغدادى : لما مرض الشافعى مرضه الذى مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطى فى مجلس الشافعى فقال البويطى : أنا أحق منك . وقال ابن عبد الحكم أنا أحق منك ، فجاء أبو بكر الحميدى وكان بتلك الأيام بمصر فقال قال الشافعى : ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى ، وليس أحد من أصحابى أعلم منه . (١)

كتب البويطى من السجن إلى الربيع بن سليمان المرادى يقول له :

إنه ليأتى على أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى ، فإذا قرأت كتابى هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقتك واستوص بالغرباء خيرا فكثيرا ما كنت أسمع الشافعى رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

أهين لهم نفسى لأكرمهم بها   وان تكرم النفس التى لا تهينها

توفى البويطى سنة ٢٣١ فى القيد والسجن ببغداد . والبويطى نسبة إلى بويط وهى قرية من أعمال الصعيد الأدنى من مصر .

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم

سمع عن ابن وهب وأشهب من أصحاب الإمام مالك فلما قدم الشافعى إلى مصر صحبه وتفقه عليه ، وحمل فى المحنة إلى بغداد ، فلم يجب إلى ما طلب منه فرد إلى مصر وانتهت إليه الرياسة بها (٢) .

وكان خصيصا عند الشافعى يحبه ويقربه . قال المزنى كنا نأتى الشافعى نسمع منه فنجلس على باب داره ويأتى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد ويطيل المكث وربما تغدى معه ثم نزل ، فيقرأ علينا الشافعى فإذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد دابته فركبها واتبعه الشافعى بصره ، فإذا غاب شخصه قال وددت لو أن لى ولدا مثله وعلى ألف دينار لا أجد لها قضاء .

وحكى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن نفسه قال : كنت أتردد إلى الشافعى فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبى وكان على مذهب مالك فقالوا له : إن ابنك محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، قال محمد

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٧ وتاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٠١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٧ .

فجعل أبي يلاطفهم ويقول: هو حدث ويحب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ويقول لى فى السر: يابنى الزم هذا الرجل فإنك لو جاوزت هذا البلد فتكلمت فى مسألة فقلت فيها قال أشهب عن مالك لقيل لك من أشهب ، قال فلزمت الشافعى ، ومازال كلام أبي فى قلبي حتى خرجت إلى العراق فكلمنى القاضى بحضرة جلسائه فى مسألة فقلت فيها قال أشهب فقال ومن أشهب ؟ !! وأقبل على جلسائه فقال بعضهم كالمنكر ما أعرف أشهب ولا أبلق .

وهو الذى أحضره أحمد بن طولون إلى ساقيته بالمعافر لما توقف الناس عن شرب الماء منها والوضوء به لزعمهم أنها مغصوبة فشرب منها وتوضأ بمائها فأعجب ذلك ابن طولون ووجه إليه بصلة .

توفى سنة ٢٦٨ هـ وقبره مع قبر أميه وأخيه إلى جانب قبر الشافعى .

٣ — مذهب أبي حنيفة النعمان

مذهب أبي حنيفة النعمان رضى الله عنه عراقى تأثر بما كان فى العراق من مذاهب المتكلمين واعتمد أكثر ما اعتمد على القياس لقلة ما كان يروى من الحديث ببلاد العراق بالنسبة إلى ما كان بمكة والمدينة .

وكان اتصال المصريين منذ الفتح ببلاد الحجاز قويا ، فقد كان الحجاز مركز الخلافة أيام الخلفاء الراشدين ثم دام الاتصال بالرحلة إلى الحج وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن أجل ذلك كان مذهب الإمام مالك أول ماصادف المصريين من تلك المذاهب فأقبلوا عليه ولم يكونوا يعرفون غيره . فلما قدم الإمام الشافعى إلى مصر صار له بها أتباع وتوطن هذا المذهب فى تلك البلاد على أثر ذلك . ولم يكن للمصريين عهد بمذهب الإمام أبي حنيفة إلا عن طريق القضاة الذين كان الخلفاء ببغداد يرسلونهم من قبلهم إلى مصر ، فلقى هؤلاء من المصريين كراهة ومعارضة ، حتى لقد كتب الليث بن سعد إلى الخليفة يطلب عزل إسماعيل بن اليسع الكندى الذى ولى قضاء بمصر سنة ١٦٤ وقال «إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار إلا خيرا » .

(١) الولاة والقضاة ص ٣٧٢ .

فاضطر الخليفة وكان المهدى إلى عزله .

وممن عرف بمصر من رجال المذهب الحنفى أثناء هذه الفترة التى نؤرخها ، القاضى بكار بن قتيبة المصرى الذى ولى قضاء مصر من قبل المتوكل ودخلها سنة ٢٤٦ وكان بينه وبين المزنى الشافعى جدال ومناقضات ، من ذلك أن بكاراً لما رأى مختصر المزنى الذى رواه عن الشافعى صنف كتابا فى الرد عليه .

ومن حديث بكار فى الزهد أنه لما ولى أحمد بن طولون مصر جعل يرسل إلى بكار كل عام صرة فيها ألف دينار خارجة عن المقرر له فكان يتركها بختمها ولا يتصرف فيها ، فلما دعاه بن طولون إلى خلع الموفق بن المتوكل من ولاية العهد امتنع بكار فاعتقله ابن طولون وأمره برد ما كان أخذ منه فرد إليه المال بأختامه وكان ستة عشر كيسا (١) ، فاستحيا أحمد منه وكان يظن أنه أخرج المال وتصرف فيه وأنه يعجز عن رده فلهذا طلبه . (٢)

وقد شكا أهل الحديث إلى بن طولون انقطاع سماعهم للحديث من بكار باعتقاله وألحوا عليه أن يأذن له بتحديثهم ففعل ، فكان يحدث الناس فى السجن من طاق فيه .(٣) وكان بكار حسن السيرة جميل الطريقة من البكائين التالين لكتاب الله يتوخى فى حكمه النصفة وإرضاء الله . وكان إذا فرغ من الحكم خلى بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى ، وكان يخاطب نفسه ويقول : يابكار تقدم إليك رجلان بكذا فحكمت بكذا فما يكون جوابك غدا .

وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أرادوا اليمين ويتلو عليهم قوله تعالى «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا... الآية .

مات رحمه الله فى سجن ابن طولون سنة ٢٧٠ وكانت ولادته بالبصرة سنة ١٨٢ ه.

وسيرد عليك فى الكلام عن الدولة الطولونية حديث عن رجال من الحنفية ، لأن انتشار مذهبهم بمصر تأخر إلى عصر تلك الدولة كما عرفت مما مربك .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥١٢ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٩١ .
(٣) المصدر ذاته .

٤ ـ مذهب الإمام أحمد بن حنبل

أما مذهب الإمام أحمد بن حنبل فإنه لم ينتشر بمصر إلا فى القرن السابع الهجرى وما بعد ذلك لأن الإمام أحمد رضى الله عنه كان من أهل القرن الثالث و كانت نشأته بالعراق فلم يتيسر خروج مذهبه عن العراق إلا فى القرن الرابع وهو القرن الذى ملك العبيديون فيه مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلا وتشريدا (١) ليقيموا مقام هذه المذاهب مذهب الرفض والتشيع واستمروا بمصر إلى أواخر القرن السادس فتراجعت إليها الأئمة من أهل المذاهب الثلاثة وارتفع الحائل الذى كان يحول دون دخول مذهب الإمام أحمد إلى مصر . فمنذ ذلك الحين وجد لهذا المذهب أتباع بمصر وكان أول إمام من الحنابلة بها هو الحافظ عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة والكمال وغيرهما من التصانيف نزل بمصر فى آخر عمره ومات بها سنة ٦٠٠ هـ (٢) .

وليس ذلك بمانع أن يكون بمصر أيام الفاطميين ومن قبلهم بعض من يتقلد هذا المذهب ويتبع أحكامه ، ولكنهم لا شك كانوا قلة لا يؤبه لها وليس بينهم إمام مشهور ولا عالم ظاهر .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٠ .

رابعاً : النحو والتاريخ

بحث المصريون فى هذين العلمين ولكنه كما قلنا كان بحثا لا غور فيه . فكان بحثهم فى النحو حكاية لآراء النحويين بالعراق ، فلم يكن لهم فى العلم غور ولم يروا رأيا يخالفون به أولئك ، لأن السبب الذى يسوغ الاختلاف بين العلماء فى هذا العلم إنما هو الرواية، ولم تكن بمصر ذات اتساع يسمح بتشعب الآراء فى مسائل هذا العلم. فكان كل عمل العلماء المصريين أن ينقلوا آراء العراقيين ويتفهموها ويدرسوها كما نفعل نحن الآن من غير أن يكون لنا رأى فيما ندرس .

وإلى جانب ذلك لم يكن من المصريين من عرف إلى نهاية هذا العهد الذى نتحدث عنه ، بعلم النحو إلا عدد قليل من العلماء ، وقد تعرض السيوطى لذكر علماء النحو بمصر فلم يذكر إلى نهاية ذلك العهد إلا عالماً واحداً هو عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى . قال : كان أماما فى اللغة والنحو والعربية أديبا أخباريا نسابة . قال الذهبى : سكن مصر ومات بها سنة ٢١٨ . وقال ابن كثير : كان مقيما ببلاد مصر وقد اجتمع به الشافعى حين وردها وتناشدا من أشعار العرب كثيرا (١) .

وذكر السيوطى فى بغية الوعاة رجلا اسمه سرج القول ونقل عن الدار قطنى قوله : رجل من أهل مصر عالم باللغة يعرف بلقبه . قال الربيع بن سليمان : كان لا يقول أحد شيئا من الشعر إلا عرض عليه . وكان الشافعى يقول ياربيع ادع لى سرجا ، فيأتى به فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج فيقول الشافعى : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم (٢)

كذلك علم التاريخ والمراد به كما نعرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتوح العرب وملاحمهم . وقد ذكروا ممن يصح أن ينسب إلى هذه الفترة ، سعيد بن عفير ، وعبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم ، ومحمد بن الربيع الجيزى . ومع ذلك لم يذكروا لهم مؤلفات فى هذا العلم الذى عرفوا به ، فكان عملهم مقتصرا على

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) ص ٢٥٢ .

قص الأخبار فى مجالس الدرس بمسجد عمرو بن العاص كما هو الشأن إذ ذاك فى كل الدراسات، اللهم إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فإنه خلف لنا كتابا نفيسا هو « فتوح مصر » الذى يعد من أعظم المراجع فى تاريخ هذه البلاد . وقد كان ختام الكتاب ذكر القضاة بمصر حتى سنة ٢٤٦ هـ .

خامسا : العلوم العقلية والدنيوية

أحصى السيوطى من كان بمصر من أرباب المعقولات والحكماء والأطباء والمنجمين فعد أول ما عد «بليطان» : وقال إنه طبيب نصرانى كان بديار مصر ومات سنة ١٨٦ ثم عد بعده مباشرة سعيد بن نوفل الطبيب النصرانى الذى كان فى خدمة أحمد بن طولون(١) وفى كلام السيوطى أكبر دلالة على أن مصر لم تكن اشتغلت – إلى العصر الذى نؤرخه – بالعلوم العقلية ويتحقق ما ذكرناه فى عدة مناسبات من أن مصر سلمت من آفة هذه العلوم وجنايتها على الملكة العربية والتفكير السمح الذى لاتعقيد فيه ، ولذلك بان فى أدب المصريين السهولة والأسجاع وقرب المعانى والخلو من التعقيد والعواصة من كل ما تعيبه على الأدب العراقى . فلو أن مصر أتيحت لها ثقافة عربية ناشطة تعهدها الولاة ، كما قام الخلفاء فى الشام وبغداد بالحث عليها لكان لمصر شأن أعظم من شأنها بل من شأن العراق نفسه ولرأينا رجالا من الكتاب والشعراء بسلائق بدوية أو شبهها سليمة من تلك الآفات .

فكانت مصر تجدد لنا عهد العربية الأولى مهذبة مصقولة بالإسلام وآدابه متبعة منهج القرآن خالصا من كل ما شاب أسلوب العراق والحواضر التى غلبت عليها تلك النزعات الفلسفية. ولا يقدح فى حكمنا على مصر بإهمال العقليات إلى هذا العهد وقلة الرغبة فيها ، ما رووا من أمر يحيى النحوى الذى كان على أيام عمرو بن العاص ، فإن علمه إنما كان بلغته اليونانية أو القبطية ،ولم يكن لوجود العرب بمصر أثر فيه مما ينسب إليهم ويعد من أنواع الثقافة التى حدثت فى مصر بوجودهم .

وحديث هذا الفيلسوف يتصل بحديث مكتبة الإسكندرية التى اتهم العرب ظلما بحرقها . قال القفطى صاحب كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ما يأتى ملخصا :

عاش يحيى النحوى إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم فأكرمه وسمع كلامه فى انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية ما لم يكن للعرب به أنسة فهاله ذلك منه . فألزمه مجلسه فكان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١١ .

لايكاد يفارقه . ثم حدثه يوما عن كتب المكتبة فقال يحيى أما مالك أبه انتفاع عارضك فلا فيه ، وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به . فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى يحتاج إليه قال : كتب الحكمة . ثم استمع عمرو إلى حديث هذه المكتبة وكيف جمعت فانتهى الأمر بعمرو إلى أن استشار عمر بن الخطاب فى أمرها فكتب إليه : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها ا هـ . نعم إن العرب كانوا يرون فى كتاب الله غنى عن غيره وكانوا يرونه مصدر الحكمة والآداب والشرع وهم جد محقين فى ذلك ، ولكن ليس يلزم من هذا أنا يكونوا قد أمروا بإعدام مكتبة الإسكندرية لأن عدم حاجتهم إليها لاتستلزم إعدامها . وقد كذب محققوا المؤرخين المبرءون من الغرض والتعصب على الإسلام ، حديث إحراقها .

ذكروا أن هذه المكتبة أسست فى عهد الإسكندر المقدونى وأنه جعل فيها ترجمة كل ما وجده فى بلاد البابليين والآشوريين والفرس . قال ابن النديم فى فهرسته (١) «إن الإسكندر لما فتح عاصمة الفرس «اصطخر» نسخ جميع ما فى خزائنها من الكتب إلى اللسان اليونانى والقبطى وبعث بها وبسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى مصر » .

قالوا : وما زالت هذه المكتبة تزداد حتى بلغت كتبها سبعمائة ألف مجلد. وفى عام ٤٧ ق م حوصر يوليس قيصر الروم بالإسكندرية فأحرقت جنوده من غير قصد بعض هذه المكتبة . ولما تولى الأمبرور تود وسيوس وكان مسيحيا دفعه تعصبه وتعصب من حوله إلى القضاء على جميع المعاهد الوثنية ، فنال المكتبة على يده ضرر كبير . وفى عهد الأمبرور طيودوس منع الاشتغال بالآداب والفلسفة اليونانية،وبأمره دمر السرابيوم سنة ٣٩ م وأحرقت المكتبة . وقد كتب كثير من علماء المشرقيات ينفون هذه التهمة عن العرب ويذكرون أنها ادعاء كاذب وخطأ شاع منذ القرون الوسطى . وأول كتاب عربى ظهرت فيه هذه االتهمة هو كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ووصف مشاهدها وقال فى شأن هذه المكتبة . أ (وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين

(١) الفهرس لابن النديم ص ٣٢٩ .

بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب)

ومما يقدح فى كلام البغدادى أنه يلقى حكمه على عواهنه من غير أن يرجع فيه إلى سند تاريخى . والأغرب من ذلك أن تمر هذه المسألة على مؤرخين مسيحيين متقدمين فلا يذكرها أحدهما مع استفاضة الحديث منهما عن فتح العرب لمصر. وأحد هذين هو افيتكيوس بطريق الإسكندرية ، والثانى أوتيخوس وقد حضرا أيام الفتح ولم يشيرا إلى هذه الحادثة بكلمة ، وكذلك المؤرخ يوحنا أسقف نيفوس وتاريخه مصدر يركن إليه .

وقد ذكر الحادثة مؤرخ آخر كان فى أيام البغدادى ولكنه بعده بقليل هو أبو الفرج ابن العبرى فى كتابه تاريخ مختصر الدول. وقد روى ذلك العالم الإنجليزى جيون فى تاريخ سقوط الدولة الرومانية قال إن هذه الفرية على المسلمين قد لفقها أبو الفرج العبرى فى تاريخه مختصر الدول وذلك بعد الإسلام بنحو ستة قرون ولم يتعرض أحد من المؤرخين قبله لذكرها فالحمد لله إذ كانت براءة العرب من هذه التهمة على يد من لا يظن فيهم ممالأة لهم أو تغاض عن هفواتهم .

الفصل الخامس

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢هـ

- نبذ تاريخي
- شأن الأدب
- مظاهر الشعر
- تراجم بعض الشعراء
- الكتابة الإنشائية
- العلم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الطولونية

نبذ تاريخي عن الدولة الطولونية

أحمد بن طولون عاهل هذه الدولة تركي من أبناء هؤلاء الأتراك الذين كان الولاة يهادون بهم الخلفاء ، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم بالله ليكونوا أعوانه ورده دون العدو ، بعد أن فقد الفرس والعرب ثقته ، وكان أبوه طولون من موالى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان ، أهداه فى جملة مماليك إلى المأمون سنة ٢٠٠ (١) فرقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء .

ولما ولد له أحمد عنى به فنشأ على مذهب جميل وحفظ القرآن وأتقنه وكان من أطيب الناس صوتاً به مع كثرة الدرس وطلب العلم والفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان. وكانت نشأته هذه ذات أثر فى خلقه، فكان شديد الزراية على الترك وأولادهم لما يرتكبون فى أمر الخلفاء من عنف وقسوة ويقول فى ذلك : حرمة الدين عندهم مهتوكة .

مات أبوه ففوض الخليفة المتوكل إلى أحمد ما كان لأبيه من أعمال ثم تنقلت الأحوال إلى أن ولى إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم ديار مصر .

ولى مصر أولا نيابة عن أميرها التركى فلما قتل هذا الأمير أيام الخليفة المهتدى صار أحمد بن طولون مستقلا بها أيام المعتمد . وكانت همة أحمد توعز إليه أن تكون مصر له ولذريته من بعده ، فعمل على تطهيرها من المناوئين له . وبعد أن كانت إمرة خراجها بيد غيره احتال حتى فوض إليه المعتمد خراجها أيضاً ، فصار الأمر كله بيده وقويت شوكته وعظم أمره بتلك البلاد .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢ .

قام أحمد بضمان خراج صالحه عليه رجال الدولة ببغداد ، فكان يرسله إليهم كل عام وينفق ما تبقّى من الدخل فى إصلاح شئون البلاد بحفر الترع والنفقة على الجيش الذى صار فى أيامه مائة ألف كاملى العدة ، والترفيه عن الناس ، والتصدق على فقرائهم .

وقد عمل بمصر مالم يكن يعمله غيره من الولاة ، لأنه كان يعتبر نفسه قد صار لمصر وصارت له مصر . فأنشأ مسجده العظيم على جبل يشكر ، كماأنشأ مدينة القطائع لجنده ومواليه، وأنشأ لنفسه فيها القصر الكبير وفيه ميدان للعب الكرة بالصوالجة، كما أنشأ بيمارستانا (مستشفى) أنفق عليه ستين ألف دينار (١) ، وأنشأ حصن الجزيرة (جزيرة الروضة) الذى كان على أيام الرومان ثم تخرب ، فأنفق أحمد على بنائه ثمانين ألف دينار (٢)

وقد بلغ من تمكن أمر ابن طولون بمصر وقوة جيشه أن ناوأ الموفق أخا الخليفة المعتمد وخلعه من ولاية العهد وجعل خطباءه يخطبون بذلك على المنابر .

وقد ولى أحمد بن طولون مصر من سنة ٢٥٤ ، واستمرت ولايته ست عشرة سنة ومات سنة ٢٧٠ هـ قام بعده بأمر مصر ابنه خمارويه فاستطاع بانتصاراته المتوالية على أعدائه وأعداء أبيه من قبل أن يحصل على عهد بولايته على مصر والشام وجميع الثغور ثلاثين سنة (٣) .

وبعد أن استراح خمارويه من قتال الموفق وتصالحا انصرف إلى إصلاح شئون مملكته الواسعة . ولما كانت خلافة المعتضد العباسى بعث إليه خمارويه بهدايا وتحف وسأله أن يزوج ابنته لابنه المكتفى بالله فقال المعتضد : بل أتزوجها أنا . فتم ذلك سنة ٢٨١ وأصدقها ألف ألف درهم وحصلت بينهما مودة أكيدة فولاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين عاماً (٤) .

تبع خمارويه أباه فى الاستكثار من المنشآت ؛ فزاد فى قصر أبيه محاسن كثيرة وجعل الميدان بستاناً وأنشأ بالبستان برجاً لأصناف الطيور ، وعمل لنفسه فى هذا البستان مجلساً سماه « مجلس الذهب » وجعل بين يدى قصره بركة ملأها بالزئبق وكانت خمسين ذراعاً فى خمسين فأنفق عليها أموالا عظيمة ، وكان يرى لها فى الليالى المقمرة نور عجيب إذا

---

(١) ، (٢) النجوم الزهرة ج ٣ ص ١٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٥١ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٣ .

تألق نور القمر على سطح الزئبق ، وجعل فى داره داراً للسباع وكان من بينها أسد اسمه زريق أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً فى الدار يحضر مائدة سيده فيرمى له بالدجاجة بعد الدجاجة ، وكان زريق يقوم بحراسة سيده إذا نام لا يقصر فى ذلك لا ويمكن غادراً من القرب من سيده .

وكان خمارويه مولعاً بالصيد يخرج إليه فى أهبة كبيرة ، وكانت حلبة السباق فى أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح والعدة الكاملة (١) . وكانت مدة ملك خمارويه على مصر والشام وغيرهما اثنتى عشرة سنة وثمانية وعشرين يوماً . ومات سنة ٢٨٢هـ .

ثم ولى بعده ابنه أبو العساكر جيش فصادف الدولة فقيرة بعدما أنفقه أبوه فى جهاز ابنته فلم يستطع إرضاء القواد ، وانضم إلى ذلك تورطه فى اللهو والشراب مع طبقة من السفلة وأبعدوا عنه كبار رجال الدولة . ولذلك لم تدم ولايته سوى ستة أشهر وأيام وقتل فى سجنه بعد خلعه بأيام .

وتولى بعده أخوه هرون سنة ٢٨٣ وما زال فى خلاف مع رجال الدولة ومع الخليفة المكتفى حتى أرسل إليه الخليفة قائده محمد بن سليمان لمحاربته ، ولكن غلمان هرون قتلوه ذبحاً وهو فى مضربه وكان قد شرب حتى ثمل ونام فذبح وهو نائم سنة ٢٩٢ .

ثم ولى بعده عمه شيبان بن خمارويه ولم تدم ولايته إلا اثنى عشر يوماً حتى سلم الأمر إلى محمد بن سليمان فأعاد الأمر بمصر إلى بنى العباس بعد أن محا آثار الطولونية منها ونقضها لبنة لبنة وارتكب مظالم كثيرة ، ثم ساق آل طولون إلى بغداد مكبلين بالحديد (١) .

★ ★ ★

فى رأينا أن ولاية أحمد بن طولون وأبنائه على مصر وغيرها من البلاد لم تكن ولاية مما عهدناه قبل ذلك يتوقع فيها الوالى العزل والنقل ، ولكنها كانت استقلالا بحكم البلاد وإن لم يصرح المؤرخون بذلك ، فإذا قبلنا وصفهم لها بأنها ولاية فإنما هى ولاية لها جميع مزايا الاستقلال ، فقد كان يخطب لأحدهم على المنابر ويذكر اسمه إلى جانب اسم الخليفة ، ولما اختلف خمارويه مع الموفق أخى الخليفة قطع الخطبة له . وقد توطدت العلاقة بين

---

(١) النجوم الزهرة ج ٣ ص ٦٠ .

خمارويه والخليفة المعتضد فتزوج ابنته ، وخافه قبل ذلك الموفق أخو الخليفة (وكان بيده الأمر والنهى) . فمنحه ولاية مصر ثلاثين عاماً ولأولاده .

فلم يكن أحدهم والياً كغيره قابلا للعزل ولا كانت إمارته تنتهى بموته فيصبح الخليفة حراً فى اختيار غيره ، بل الأمر من بعد أحدهم يكون لولى عهده ، وإن كان الخليفة يستر ضعفه أمام تلك القوة فيعلن إقرار المتولى منهم فيما تولاه .

فهذا استقلال لامرية فيه وإن اتخذ اسم الولاية . وأوضح دليل على ذلك أن الخلافة لم تستطع انتزاع مصر من الطولونيين إلا بعد أن ساقت إليهم الجيوش لمحاربة شيبان ابن أحمد بن طولون فتقدم محمد بن سليمان وهزم جيوشه واستولى على مصر وساقه وآل بيته إلى بغداد مكبلين بالحديد . قال المؤرخون .

« فزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول » (١)

فهى أولا وأخيراً دولة برضا أوكره رجال الدولة ، وباعتراف رجال التاريخ .

---

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣٩ .

شأن الأدب فى الدولة الطولونية

يتجلى فى هذه الدولة الاتصال الوثيق بين الأدب وما يكون للبلاد التى يترعرع فيها ، من قوة واستقلال وغنى ومعرفة بقدر هذا الأدب وإعزاز لأهله .

فقد تجمعت كل هذه الأمور فى تلك الدولة التى أقامها هذا العاهل الكبير أحمد ابن طولون . نشأ أحمد عالى الهمة نافذ البصيرة حسن التثقيف فما أن ولى مصر حتى جعل ملكها مطمع آماله فعمل على أن تكون خالصة له من دون بغداد التى ضعف أمرها وانقسمت كلمة الرؤساء فيها . ومازال أحمد يستغل تلك الأحوال حتى استقل بما تحت يده (١) واتسع ملكه اتساعاً عظيما فصار يضم مصر والشام والثغور وترامت مملكته إلى نهر الفرات شرقاً وأقصى الغرب غرباً ، كما شملت بلاد الحجاز واليمن . (٢) وذلك ملك يضم رقعة كبيرة يتضاءل أمامها ملك الخلافة نفسها . جبيت لابن طولون كل هذه النواحى وكانت جباية مصر وحدها أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف (٣) ، فكان كل عمله فى إصلاح مصر حتى يزيد خيرها ويرفه حالها ، فزادت الحضارة فى أيامه وعم الأهلين منه عدل شامل ورزق واسع (٤) .

بلغ من ترفيهه على الناس أن كانت صدقاته كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار توزع على المحتاجين . قال بعض أصحابه : ألزمنى ابن طولون صدقاته وكانت كثيرة ، فقلت له يوماً : ربما امتدت إلى اليد المطوقة بالجوهر والمعصم ذو السوار والكم الناعم أفأمنع هذه الطبقة. فقال : هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، احذر أن ترد

---

(١) فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦ «فلما قتل والى مصر من الأتراك فى أيام الخليفة المهتدى صار أحمد بن طولون مستقلا بها أيام المعتمد .

(٢) فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦ «كان حكمه من الفرات الى المغرب» وفى نفس المحاضرة ج ٢ ص ١٣ «كان لابن طولون ما بين رحبة مالك بن طوق الى أقصى بلاد المغرب »

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ .

(٤) المرجع السابق .

يدا امتدت إليك ، واعط كل من استعطاك (١) . وذلك غير ما كان يجريه على أهل المساجد كل شهر وكان ألف دينار .

ولا تسل عن بذخه وبذخ ابنه خمارويه فى جميع مظاهر الحياة ، فلقد ذكروا أن مطبخ خمارويه كان ينفق عليه فى كل شهر ثلاثة وعشرون ألف دينار غير ما كان موظفاً لجواريه وخدمهم وكان ما يفضل من مطابخه ومطابخ نسائه يباع فى أسواق القطائع ، فكان من يطرقه ضيف على غير استعداد يجد فى السوق من ذلك الطعام مالا يستطيع أن يعده فى بيته (٢) .

ولا أدل على قدرة هذه الدولة من أن نذكر أن جيش أحمد بن طولون كان مائة ألف ، وأن خمارويه ابنه لقى بن الموفق بفلسطين فى سبعين ألفاً ليست هى طبعاً كل جيشه وأن نفقات هذا الجيش كانت تسعمائة ألف دينار فى السنة ، وأن خمارويه اتخذ حرساً له معروفين بالبأس والنجدة ووسع عليهم فى الرزق وألبسهم الأقبية من الحرير ، وصاغ لهم المناطق ، وقلدهم السيوف المحلاة وسماهم المختارة . (٣)

وشأن هذه الدولة فى إقامة المبانى ومظاهر الحضارة شأن عجب ، وأول دلالته كثرة الرخاء وامتلاء الخزائن بالأموال واستقرار الأحوال والرغبة فى تأثيل المجد .

وليس من الإسراف فى موضوع الأدب أن نطيل بوصف ماكان من أعمال النابهين من رجال هذه الدولة فى هذا الشأن ؛ فإن هذه الأعمال وإن كان الغرض الأول منها تمتع أصحابها بها والدلالة على مقدرتهم تكون إلى جانب ذلك كله مادة لخيال الشاعر ومجالا لتصوراته ومراما ومغذى لتأملاته ؛ بصورها تعمر مخيلته وبمجالسها تنبعث شاعريته ، فإذا أطلنا فى نقل أوصاف هذه الآثار فإنما نعرفك بكتاب قرأه شعراء هذا الزمن وجالوا بنظراتهم فى صفحاته فكان مادتهم ومثالهم فيما يرسمون .

كانت مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون على جبل يشكر قد أهلت فى أيامه بالعدد الكثير والمبانى الفخمة ، فمما أنشأه بها أحمد ، مسجدها الجامع الذى لا يزال ماثلا إلى اليوم . وقد بلغت النفقة عليه مائة وعشرين ألف دينار (٤) .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .
(٤) المراجع السابق ص ٨ .

وجعل فى بنائه عنبرا لتفوح رائحته على المصلين (١) . وقد علق فيه القناديل المحكمة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال . وكان فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع نواحيها وهى مذهبة ، على عشرة عمد رخام . وقد جعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربع أذرع وفى وسطها فوارة تفور بالماء .

كذلك بنى القصر بمدينة القطائع وجعل له ميداناً كبيراً للعب الكرة وسمى القصر قصر الميدان ولما توفى زاد ابنه خمارويه فى القصر كثيراً . ومما زاد فيه « مجلس الذهب » الذى جعله مجلساً له ولبوران محظيته ، وقد طلى بالذهب واللازورد ونقش على جهات من جدرانه صور بارزة له ولحظاياه ومغنياته ، وعلى رءوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر وفى آذانهن أقراط الذهب الثقال .

كذلك أنشأ بالقصر بركة الزئبق ، وكان قد اشتكى إلى طبيبه الأرق فأشار عليه بالتكبيس فأنف من أن يضع أحد يده على جسمه ، فأشار عليه الطبيب بعمل بركة من زئبق ، فعملت على هيئة مربع طول ضلعه خمسون ذراعاً وملئت بالزئبق وجعل فى أركانها سلك من الفضة بزنانير من الحرير ، ثم اتخذ عليها فرش من جلد يملأ بالهواء فينتفخ ثم يحكم رباطه ويلقى فى البركة ويربط بالزنانير فى حلق الفضة ، وكان ينام على هذا الفرش فلا يزال يرتج بحركة الزئبق مادام عليه . وكان يرى لهذه البركة فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا انعكس ضوء القمر على سطح الزئبق .

كذلك بنى فى القصر قبة ضاهى بها قبة السماء سماها الدكة وجعل لها ستوراً تقى الحر والبرد وكان يجلس فيها ليشرف على البستان والنيل والصحراء والجبل .

كذلك اتخذ فى الدار داراً للآساد ، كل بيت لأسد ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الموكل بخدمة البيت لينظفه ويفرشه بالرمل . وإلى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وكانت هذه البيوت مملوءة بالآساد ولها أوقات تفتح فيها فتخرج الآساد كلها إلى القاعة وتمشى وتمرح ويهارش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملا إلى العشى ثم يصيح بها السواس فيدخل كل أسد إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره وكان من جملة هذه الآساد أسد أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً

---

(١) خطب المقريزى ج ٢ ص ٢٦٨ .

وكان يقف إلى جانب مائدة سيده فيرمى له بالدجاجة بعد الدجاجة يتفكه بها . وكان هذا الأسد يحرس سيده إذا نام فلا يجرؤ غادر أن يقرب من سيده .

كذلك عمل فى القصر برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بأصناف الأصباغ وبلط أرضه وجعل فى تضاعيفه أنهاراً لطافا يجرى فيها الماء مدبراً من السواقى التى تدور على الآبار العذبة وتستقى منها الأشجار وغيرها . وقد سرح فى هذا البرج كل طائر جميل الشكل حسن الصوت .

أما ميدان أبيه فقد زاد فيه وجعله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ونقل إليه الودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم والجالس ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل ميازيب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى أحواض يفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وقد غرس فيه الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وتقرأ واضحة جداً .

★ ★ ★

وقد تحقق ما قلناه من صيرورة هذه الآثار مثاراً لشاعرية الشعراء ومبعثاً لخيالاتهم ؛ فقد أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الآثار أيام كانت قائمة كما ذرفوا عليها الدمع مدراراً بعد تخربها على أثر انقضاء دولة أصحابها .

فمما قيل فى ميدان أحمد بن طولون وفى قصوره من المراثى قول إسماعيل بن أبى هاشم (١) .

قف وقفة بفنـــاء باب الســـاج	والقصر ذى الشرفات والأبـــراج
وربوع قوم أزعجــوا من دارهــم	بعد الإقامة أيما إزعـــــاج
كانوا مصابيحاً إذا ظلم الدجــــا	يسرى بهـــا السارون فى الإدلاج
وكأن وجوههم إذا أبصرتهــــــا	من فضة مصبوبـــــة أو عـــاج
كانوا الثريا لا يرام حماهمــــو	فى كل ملحمـــة وكل هيـــاج

---

(١) الولاة والقضاة ص ٢٥٢ .

فانظــــــــــر إلى آثــارهم تلقى لهم	علماً بكل ثنيـــــــة وفجــــــاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكــــــــا	مع كل ذى نظـــــر وطرف سـاج

وقال أحمد بن أبى يعقوب (١) .

إن كنت تسأل عن جـــــلالة ملكهم	فارتع وعج بمراتـــــع الميـــــــدان
وانظر إلى تلك القصور وما حـــوت	واسرح بزهـــــرة ذلك البستان
وإذا اعتبرت ففيــــــه أيضاً عبرة	تنبيك كيف تصرف العصـــــران
يا قتل هارون اجتثثت أصــــولهم	وأشبت رأس أميرهم شيبـــــــــان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غـــــدا	فى جحفــــــــل لجب ولا غسان
وعديّة البطل الكمى وخــــــــزرج	لم ينصرا بأخيهمـــــــــو عدنـــــان
زفت إلى آل النبـــــــوة والهـــدى	وتمزقت عن شيعـــــة الشيطـــــان

وقال سعيد القاص قصيدة عدتها أربعون بيتاً كما رواها الكندى فى الولاة والقضاة (٢) وقد آثرنا نقلها هنا برمتها لأنه تناول فيها آثار القوم فدل عليها وأشاد بذكرها وأعول كثيراً على بنائها فنحن ننقلها لذلك . ولما منى به هذا العصر من ضياع كثير من شعر شعرائه قال :

جرى دمعه ما بين سحــــــر إلى نحر	ولم يجر حتى أسلمتـــه يـــــــد الصبر
وبات وقيذاً للذى خامـــــر الحشى	يئن كمـــا أن الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى	يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابــــع أحـــداث تحيفـــن صبره	وغدر من الأيـــام والدهـــر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعهـا	ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدينا ومصباح أهلهـــــا	بفقد بنى طولون والأنجم الزهـــر
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعــــــــة	أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجــــــــدا	جميل المحيا لا يبيت على وتــــــــر
كأن ليـــالى الدهـــر كانت لحسنهـــا	وإشراقها فى عصره ليلة القـــــدر
يدل على فضل ابن طولون همـــــة	محلقة بين السماكين والفغـــر (٣)

(١) الولاة والقضاة ص ٢٥٠ .
(٢) ص ٢٥٣ .
(٣) ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر وهى من الميزان .

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عـــدالة	يخبر عنــه بالجلىّ من الأمـــر
فبالجبـــل الغربى خطة يشكـــر	له مسجـــد يغنى عن المنطق الهذر
يدل ذوى الألبـــاب أن بنـــاءه	وبانيه لا بالضنين ولا الغمـــر
بنـــاه بآجر وآس وعرعـــر	وبالمرمر المسنــون والجص والصخر
بعيد مـــدى الأقطار سام بنـاؤه	وثيق المبانى من عقــود ومن جُــدر
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونــه	رقيق النسيم طيب العــرف والنشر
وتنور فرعون الذى فوق قلـــة	على شاهق عال على جبـــل وعر
بنى مسجدا فيــه يفوق بنـــاؤه	ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضيـــاءه	سهيلا إذا ما لاح فى الليل للسفــر
وعين معين الشرب غير ركيـــة	وغير أجاج للرواة وللطهـــر
كأن رفـــود النيل فى جنباتهـــا	تروح وتغدو بين مد إلى جـــزر
فأرقأها مستنبطا لمعينهـــا	من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
تمر على أرض المعافر كلهـــا	وشعبـــان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدهـــا	ولا النيل يرويها ولا جدول يجرى
ولا تنس ماراستانه واتساعــــه	وتوسعـــة الأرزاق للحول والشهر
وما فيــه من قوامه وكفاتـــه	ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقـــر
فللميت المقبـــور حسن جهـــازه	وللحى رفق فى علاج وفى جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملا	إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
ترى أثرا لم يبـــق من يستطيعـــه	من الناس فى بدو البـــلاد ولاحضر
مآثر لا تبلى وإن بـــاد ربهـــا	ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخـــر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعـــه	أجل إذا ماقيس من قبتى حجـــر
وقام أبو الجيش ابنـــه بعد موته	كما قام ليث الغاب فى الأسل السمر
كذاك الليالى من أعارته بهجـــة	فيالك من ناب حديد ومن ظفـــر
وورث هارون ابنـــه تاج ماجـــد	كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان جيش قبله فى محلـــه	ولكن جيشا كان مستنقص العمـــر
فقام بأمر الملك هارون مـــدة	على نكد من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشـــح	عقاربه من كل ناحيـــة تسرى
يذكرهم لما مضوا فتتابعـــوا	كما ارفض سلك من جمان ومن شذر

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهلـــه لفقدهم فليبك حزناً عــلى مصر
ليبك بنى طولـــون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر

ولما أمر الحسين بن أحمد الماذرائى متولى خراج مصر من قبل المكتفى بهدم الميدان ابتدأ بهدمه فى أول شهر رمضان سنة ٢٩٣ هـ وبيعت أنقاضه حتى دثر وزال مكانه كأن لم يكن فقال محمد بن طشويه : (١)

من لم ير الهدم للميدان لم يـــره تبارك الله ما أعلى وأقـــــدره
لو أن عين الذى أنشاه تبصره والحادثـــات تغاديــه لأكبره
كانت عيون الورى تعشى لهيبتـــه إذا أضاف إليه الملك عسكـــره
أين الملوك التى كانت تحل بـــه وأين من كان بالإتقان دبـّــره
وأين من كان يحميه ويحرســـه من كل ليث يهاب الليث منظـــره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهـــم وحط ريب البلى فيه فدعثره (٢)
وأخلق الدهر منه حسن جدتــــه مثل الكتاب محا العصران أسطـره
دكت مناظره واجتث جوسقــــه كأنما الخسف فاجأه فدمـــــره
أوهب إعصار نار فى جوانبـــه فعاد معروفه للعين منكـــــره
كم كان يأوى إليه فى مقاصره أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيـــه وساكنه أماتـــه الملك الأعــلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوبى لمن خصه رشد فذكـــره

وقال أحمد بن إسحاق : (٣)

وكأن الميـــدان ثكلى أصيبـــت بحبيب صباح ليلــة عــــرس
تتغشى الريـــاح منــه محـــلا كان للصون فى ستـــور الدمقس

ومنها :

ووجوه من الوجوه حســـــان وخـــدود مثـل اللآلىء ماس

---

(١) الولاة والقضاة ص ٢٦٣ .
(٢) دعثره : هدمه .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٢ .

كل كحلاء كالغزال ونجــــــــلا ... ء رداح من بين حــو ولعس
آل طولون كنتم زينــــــــــة الأر ... ض فأضحى الجديد أهــدام لبس

وقال إسماعيل بن أبي هاشم (١)

يا منزلا لبنى طولون قــــد دثرا ... سقاك صوب النوادى القطر والمطرا
يا منزلا صرت أجفــوه وأهجــره ... وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنــــــــا ... أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

(١) المرجع السابق ص ١٤٣ .

مظاهر الشعر فى الدولة الطولونية

لكل عصر من عصور الأدب مظاهر فى شعره يحرص المؤرخ أن يتعرفها لتكون فى مجموعها ميزة ذلك العصر بين غيره من العصور .

وإذا نظرنا — مع قلة ما ورد إلينا من شعر فى الدولة الطولونية — وجدنا أن هذه المظاهر فى هذا العهد هى : رثاء الآثار ، والشعر السياسى .

١ — رثاء الآثار

أغلب مظاهر الشعر مشترك بين عصور اللغة العربية فى كل مكان، ولكن من بينها واحدا وهو رثاء الآثار يرى جديدا هنا بين مظاهر الشعر العربى فى الشرق والغرب .

ذلك بأن هذا النوع لم يكثر فى قطر من أقطار العربية إلا فى هذه الدولة وبلاد الأندلس ، ولابد من تفهم الأسباب التى جعلته بيّن الوضوح فى هذين الموضعين ، ذلك أن النكبة التى أصيبت بها دولة آل طولون كانت شديدة الوقع بيّنة الأثر فى نفوس أهل البلاد ، لفظاعتها من ناحية ، ولجنايتها من ناحية أخرى على آثار كانت حبيبة إلى القوم مستولية على مشاعرهم موجبة لفخرهم بموطنهم ، ففقدانهم لها يعد فاجعة كبرى تثير مشاعر الشعراء ، وهم عرق الأمة النابض ، وكذلك كان الحال فى الأندلس ، ولكن فى عصر متأخر عن عصر الدولة الطولونية لأن العرب فى الأندلس لم يبدءوا يضعفون إلا فى القرن الخامس الهجرى فحين ذاك بكوا آثارهم وتفجعوا على مدنهم وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبكبار رجالهم لإزاحة هذه النكبات عنهم .

ونريد هنا أن نستخلص أن الأندلسيين لم يكونوا السابقين إلى ذلك النوع من الشعر بل قد سبقهم بزمن طويل أهل مصر الذين بكوا آثارهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى . ولو أن بين أيدينا أمثلة من شعر المصريين فى نكبة الدولة الطولونية غير ما ذكرنا سابقا لنقلناه هنا لنشبع رغبتك من الآثار الأدبية لهذه الدولة ، ولكن جناية القائد محمد بن سليمان على التاريخ بتعقبه آثار هذه الدولة هو الذى أنسى الناس مظاهر عظمتها .

٢ — الشعر السياسى

ظاهرة مشتركة بين كل العصور ولكنها تتشكل فى كل عصر بما كان له من ملابسات، فحينا تكون عصبية بين القبائل ، وآخر تكون خلافا مذهبيا بين عباسيين وعلويين ، ومرة تكون صدى لمعارك وحروب على أرض الوطن بين مغير ومدافع ، وهنا يتشعب القول شعبتين ؛ فللمدافع أنصار يحملهم الوفاء على شد أزره وتأييد كلمته، وللمهاجم أنصار لم ينالوا حظا من دولتهم فهم يطمعون فى فاتح يكون لهم على يده أمل يتحقق أوهم قبل ذلك مرتشون من هذا المهاجم ليبثوا فى قلوب الناس الذعر ويحملوهم على كراهة الحكم والقائمين به . وقد تمثل فى الشعر السياسى أيام الطولونيين هذان الاتجاهان وستراهما ماثلين فيما ننقل لك من نماذج هذا النوع (١) .

نماذج من الشعر السياسى

١ — هذا شاعر يسمى محمد بن داود يعلن كراهته لابن طولون منذ دخل البلاد ويزرى على آثاره فيها فيقول :

ألا أيها الأغفال إيهاً تأملوا	وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمــة	تسيرّ من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت	عليكم يد العلج السخيف المجهل
فياليت مارستانه نيط باستــه	ومافيه من علج عتل مفلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره	تضج إلى قلب عن الله مغفل

٢ — وهو أيضا يهجوه لما بنى حصن الجزيرة واستعد بإنشاء المراكب الحربية ، دفاعا عن مصر من وثبة موسى بن بغا :

لما ثوى إبن بغا بالرقتين ملا	ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به	بالعسف والضرب والصناع فى تعب
له مراكب فوق النيل راكدة	فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت	بالشطر ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبـا	لكن بناها غداة الروع للهرب

---

(١) هذه النماذج كلها منقولة من كتاب الولاة والقضاة ما بين ص ٢١٦ ، ص ٢٥١ .

٣ — وها هو ذا العباس بن أحمد بن طولون يخرج على أبيه حين استخلفه على مصر وخرج للقاء أعدائه بالشام فيتحصن بالإسكندرية أولا ثم يخرج إلى برقة ثم يمعن فى إفريقية فهو يقول مفتخرا بشجاعته :

لله دريَ إذ أغدو على فرسى ... إلى الهياج ونار الحرب تستعر
إن كنت سائلة عنى وعن خبرى ... فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون إن سألت عنه فما ... فوقى لمفتخر بالجود مفتخـــر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتذر
إذاً لعـــاينت منى ما تنادره ... عنى الأحاديث والأنباء والخبر

٤ — لما حارب أبو أحمد الموفق ، أحمد بن طولون عمل ابن طولون على خلعه من ولاية العهد وورد كتابه إلى مصر فقرئ على أهلها بأن أبا أحمد نكث ببيعة المعتمد وأسره وحرض عليه وأن المعتمد بكى بكاء شديدا ، وقال قعدان بن عمرو فى ذلك منتصرا لابن طولون :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما ... يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها ... منه على الهول ليث غير محجام
فى جحفل للمنـــايا فى مقانبـــه ... مكامن بين رايات وأعـــلام
يسمو به من بنى ســـام غطارفة ... بيض ، وسود أسود من بنى حام
لو أن روح بنى كنداج معلقة ... بالمشترى لم يفته أو ببهرام
حاط الخلافة والدينـــا خليفتنـــا ... بصارم من سيوف الله صمصام
يأيها الناس هبوا ناصرين له ... مع الأمير بدهم الخيل فى اللام
ليست صلاة مصليكم بجائزة ... ولا الصيام بمقبول لصيـــام
حتى يرى السيد المأمون ذبَكم ... عن الإمام بأطراف القنا الدامى

٥ — وقال فى هذا المقام أيضا منصف بن خليفة الهذلى :

يا غرة الدنيـــا الذى أفعـــاله ... غرر بها كل الورى يتعلـــق
أنت الأمير على الشآم وثغـــرها ... والرقتين وماحـــواه المشرق
وإليك مصر وبرقة وحجـــازها ... كل إليك فؤاده متشــــوق
هتك الخلافة صاعد وخليلـــه ... إسحاق لعبا والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المنون فليتهـــــا ... بنجيع من خذل الإمام تخلـــق

تمسى وتصبح ضاربا من دونه | بمهند منه الحتوف تفــرق
يتلوك سعد والمقــدم تيتك | واللاذقى وذو الحفيظة يلحق

٦ – حضر أحمد بن طولون من دمشق إلى أذنة ثم إلى طرسوس للقاء (يازمان) فوجده قد تحصن بها فنزل أحمد بجيوشه فى برد شديد وأمطار كثيرة وأرسل عليه (يازمان) الماء فغرق عسكره فرحل ابن طولون ورجع إلى أذنه فقال محمد بن داود يعد ذلك هزيمة لأحمد بن طولون ويشنع عليه بها وقد عرفت فيما مضى كراهيته له :

بغى على الثغر وأزرى به | بغى أبى القصد نضــاج
وسار كى يجتث آثارهم | من سفل الناس بأفــواج
واستنصر القوم على بغيه | بكل صافى القلب ضجــاج
وكل ماضى الحد ذى رونق | ومحكم التثقيف بعّــــاج
فاستعمل الملعــون أدراجه | منهـــزما أخبث إدراج
فكيف قاتلت أسود الشرى | أولى الزماجــير بإنهـــاج

٧ – لما مات أحمد بن طولون هجاه خصمه السياسى محمد بن أبى داود فقال :

عرج على اليحموم فانزل به | فاسلح على قبر ابن طولونا
وقل له يا شر مستـــودع | أخفى لدمع القلب ملعــونا
يا حفـــرة النار التى أضرمت | وظل فيها الرجس مدفونا
لا تجــعلى لبســـة جثمانه | إلا الأفاعى والثعــــابينا
فعز إبليس بهـــا أولا | وعز من بعــد الشياطينــا
وقل لهم قد كان يكفيكمو | وبهتك المعــروف والدينــا
ثم مضى غير فقيــد ولا | كان حميدا عمــره فينـــا

وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمره | سوى نقمة للخلق شنعاء صيلم
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنة | ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت | سرورا ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عنــد قدومه | عليه بأحمى بقعة فى جهنم
لقد طهر الأرضون من سوء فعله | ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة | وأنى وفيها شر أولاد آدم

٨ — لما تولى خمارويه بعد أبيه كان الخليفة المعتضد يتهيبه فكتب إليه الواسطى يصغر من أمر خمارويه ويحضه على المسير إليه .

يأيهـــا الملك المرهـــوب جانبه	شمر ذيول السّرى فالأمر قد قربا
كم ذا القعود ولم يقعد عدوكمو	عن القتال لقد أصبحتمو عجبـــا
ليس المريد لما أصبحت تطلبه	إلا المشمر عن ساق وإن لعبـــا
فأنت ذو غفلة يقظان ذو سنـــة	وطالب الوتر ذو جد إذا غضبـــا
أجد مروان فى بيت أصاب به	عين الصواب فما أخطا وما كذبا
إذ قال لما رأى الدنيا تميد بهم	بعد الهدوء وعاد الحبل مضطربا
إنى أرى فتنا تغلى مراجلهـــا	والملك بعد أبى ليلى لمن غلبـــا (١)

٩ — حارب خمارويه الخلافة ببغداد وانتصر عليها حتّى بلغت جيوشه سر من رأى فقال القاسم بن يحيى المريمى :

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه	فشرد عنا الجـــور وافتقر العسر
فإن يك أرض الرقتين به اكتست	ضياء وإشراقاً لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحاق إذ سار نحـــوه	بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطـــار منه كثافة	فنى مشرق قطر وفى مغرب قطر
فأبلس إذ قيل الأمير ببالس	وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا	أرته المنايا الحمر أعلامه الحمـــر
فولى شريداً ذا ارتياع كأنه	بكل بلاد طائر ما له وكـــر
لئن سر إسحاق النجاة بنفسه	لقد ساءه فى جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه	فقد كسرته كسرة مالها جـــبر

١٠ — لما زالت دولة آل طولون تنازع الشعراء عاملان قويان أحدهما يفى للماضى والآخر يطمع فى الحاضر . فقال شعراء فى رثاء الدولة وقد مر بك ذكرهم وشعرهم ، وقال آخرون فى الترحيب بالعهد الجديد فمن ذلك قول أحمد بن محمد الحبيشى :

الحمـــــد لله إقراراً بما وهبا	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبـــا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فســـوء عاقبة المثوى لمن كذبا

(١) أبو ليلى جماعة منهم مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية .

فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلام والكربا
لاريب رب هياج يقتضى دعة وفى القصاص حياة تذهب الريبا
رمى الإمام به عذراء غادرة فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن سليمان أعـــــزهم نفساً وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا — أضحى عرينهمو الخطى لا القضبا
حم القضاء على اليحموم حين أتوا — مثل الدبى يمنحون الدبة الدأبا
إيها علوت على الأيام مرتبـــة أبا على ترى من دونها الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته وشيب الرعب شيبانا وقد رعبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهبـــا

وقال أيضا يخاطب الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئا لمصر قد فتحت رتاجهـــا وقلدت ما قلدته بتحـــــكم
وما الفتح الا فتح رأيك لا الذى تجمع يوم الجمع من كل معلم
وكنت وشيبـــان غــــداة لقيته كموسى وفرعون غداة المعظـــم
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه ولم يلك يرجـــوه بكل مرجـــم
وما زلت ترمى آل طولون قبلها وقد خالفوا السلطان منك بصيلم

٣ — وصف مجالس اللهو :

ذلك هو الشعر الذى يقال فى وصف مجالس اللهو ومعاقرة الخمر فترى فيه الاستهتار واطراح كلف الحياة والإقبال على الشراب والأنس بالأحباب ووصف الكئوس ، وفعلها بالرءوس ومعاطاة الندماء والغزل بالظباء .

ذلك الشعر لايكون إلا حين يكثر الترف ويجترئ الناس على الدين . وقد كان فى دولة بنى طولون عون للفساق على فسقهم ؛ فقد كان أحمد بن طولون إلى جانب تمسكه بالدين يشرب الخمر ويطرب للسماع ، وكان خمارويه مولعا مثله بالشراب حتى قيل إنه كان يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر (١) مع أن الرطل المصرى يعادل أرطالا ، وكان أحمد بن طولون قد اتخذ حجرة بقربه يجعل فيها رجالا سماهم المكبرين كان

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٣ .

يبيت منهم بها أربعة فى كل ليلة يكبرون ويسبحون ويقرءون القرآن بالتطريب ، فلما ولى خمارويه أقرهم على ما هم عليه وكان إذا سمعهم وهو بين جواريه رمى القدح من يده وذكر الله معهم ولم يكن يتبرم بهم . وكان من مظاهر اللهو فى هذه الدولة ما شاع فى عصرها من قصد الشعراء للأديرة يشربون من خمرها ويتمتعون بجمال غلمانها . وقد فعل ذلك الأمراء أيضا حتى قيل إن خماروية بنى لنفسه غرفة بأعلى دير القصير وكان يكثر من زيارة هذا الدير لإعجابه بصورة العذراء فيه فكان يطيل النظر فيها . وكان بمصر غير دير القصير دير مار حنا على شاطئ بركة الحبش، ودير نهيا بقرب الجيزة ، ودير طمويه .

ويحسن أن نسوق هنا ما قاله أبو الحسن على بن محمد الشابشتى صاحب كتاب الديارات ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٥٦ تاريخ قال عن هذه الأديرة الثلاثة التى كانت بديار مصر .

دير القصير :

وهذا الدير فى أعلى الجبل على سطح فى قلته، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة، فيه رهبان مقيمون به، وله بئر منقورة فى الحجر يستقى منها الماء وفى هيكله صورة مريم فى حجرها صورة المسيح عليه السلام . والناس يقصدون هذا الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون لها أربع طاقات إلى أربع جهات ،وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه يشرب على النظر إليها .

دير مار حنا :

وهذا الدير على شاطئ بركة الحبش قريب من البحر إلى جانبه بساتين وبقرب هذا الدير بئر تعرف ببئر نجاتى عليها جميزة يجتمع إليها الناس ويشربون عندها وهذا الموضع من مواضع اللعب ومواطن اللهو والطرب .

دير نهيا :

ونهيا بالجيزة وديرها من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها عامر برهبانه وسكانه

وله فى النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته فإذا انصرف الماء وزرع ظهرت فى أرضه غرائب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور . فهو أيضا متصيد حسن .

دير طمويه :

وطمويه فى الغرب بإزاء حلوان والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر ، فهو نزه عامر آهل وله فى النيل منظر حسن ، وحين تخضر الأرض يكون بين بساطين من البحر والزرع وهو أحد متنزهات مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهورة .

ذكر الشابشتى ما نقلناه إليك فى وصف هذه الأديرة ، وكان يعقب على ذكر كل دير بما قيل فى وصفه من الأشعار ، ولكنا والأسف يملأ قلوبنا لم نجد بين من ذكرهم شاعرا من شعراء الدولة الطولونية . وما ذلك إلا لأن شعرهم ضاع مع آثارهم .

وسنستطيع فى الحديث عن الشعر فى الدولة الإخشيدية أن نستدل على أن شعراءها قد أكثروا من ذكر هذه الأديرة ووصف ما كان فيها من مرح وشراب وسمر ، وليس بين الدولتين من الزمن ما يستساغ معه أن تختلف الأحوال فيها اختلافا كثيرا يحرم على شعراء الطولونية أن يلهوا ويمرحوا ويقصفوا خصوصا وقد أثبتنا أن أمراءهم كانوا مولعين باللهو والشراب ، والاختلاف إلى هذه الأديرة عينها .

تراجم بعض شعراء الدولة الطولونية

مبلغ شعراء هذه الدولة :

إذا تركنا الحكم للعقل حكم جازما بأن هذه الدولة لا بد أن يكون للأدب فيها رواج عظيم ، ولا بد أن يكون شعراؤها كثيرين ، على نسبة كثرتهم فى بغداد ، لأن دولة نشأت على منافسة بغداد وعملت على الاستئثار دونها بالسلطان وضمت إلى حوزتها تلك الرقعة الواسعة من ملك هذه الدولة لا بد أن تكون فى منافستها وفيما عملت من وسائل لإظهار قوتها وعظمتها ، قد شجعت الآداب وبذلت كثيراً للشعراء .

يؤيد مانقوله من ولوع هذه الدولة الناشئة بمنافسة بغداد واتخاذها من الشعراء أبواقا لإذاعة محامدها وإظهار فخامتها وبث هيبتها فى النفوس ، أن همة أحمد بن طولون فى البذل للشعراء لم تقف عند شعراء مصر بل لقد تعدتهم إلى شعراء بغداد ، فقد اجتذب أحمد بن طولون بعطاياه المغرية شاعرا كبيرا من شعرائها ، بل هو أكبر شعرائها فى أيامه ، وذلك هو الوليد بن عبيد البحترى فإن له فيه قصائد بنيت على مدحه خاصة لم يخلط ذلك بمدح خليفة ولا وزير حتى يكون ذكر ابن طولون تبعا له .

ولا شك أن العطاء الذى يرضى البحترى بعد ماذاق جوائز الخلفاء ، هو جود مغر وعطاء سخى . ومما قال يمدحه به قوله : (١) .

وعند أبى العبـــاس لو كان دانيـــا ... نواحى الغناء السهل والكنف الرحب
وكانت بلاء نيّى عنه ، والغنى ... غنى الدهر أدنى ما ينوّل أو يحبـــو
وذو أهب للحـــادثات بمثلهـــا ... يزال الردى عنا ويستدفع الكـــرب
سيوف لها فى عمر كل عدى ردى ... وخيل لها فى دار كل عدى نهـــب

وكذلك كان حال البحترى مع خمارويه فقد مدحه بقوله : (٢)

وقد رأيت جيوش النصر منزلة ... على جيوش أبى الجيش بن طولونا

(١) ديوان البحترى ج ٢ ص ٧٧ .
(٢) الولاة والقضاة ص ٢٣٩ .

يوم الثنية إذ ثنى بكرتــــه | فى النقع خمسين ألفا أو يزيدونا
مظفــر لم يزل يلقى بطلعتــه | كواكب السعد والخيل الميامينـــا
يمشى قريبا من الأعداء لو وقفوا | بالصين من بعدها ما استبعد الصينا

هذه النتيجة يؤيدها كل التأييد ما ورد فى كتاب «النجوم الزاهرة» (١) وهو :

قال القاضى أبو عمر وعثمان النابلسى فى كتاب «حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة» : « رأيت كتابا قدر اثنى عشرة كراسة مضمونة فهرس شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، قال : فإذا كان اسم الشعراء فى اثنى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ !! »

وقد كان القدح فى حكمنا على شأن الأدب فى هذه الأيام جائزا لو كانت الدولة أعجمية بحتا لاينصر أهلها الأدب ولا يحفلون برجاله ، ولكن المذكور عن رجال هذه الدولة أنهم ذوو ملكات فى العربية تؤنسهم بها إن لم تجعلهم يتعصبون لها ، فقد كان أحمد بن طولون حافظا للقرآن متقنا له وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم . كذلك كان العباس ابنه شاعرا وهو الذى يقول : (٢)

لله درىَ إذ أعدو على فرسى | إلى الهياج ونار الحرب تســتعر
وفى يدى صارم أفرى الرءوس به | فى حبرة الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عنى وعن خــبرى | فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلى إن سألت فما | فوقى لمفتخر فى الجود مفتخـــر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ | بالسيف أضرب والهامات تبتــذر
إذاً لعاينت منى ما تنـــادره | عنى الأحاديث والأنباء والخــبر

ولقد دعانا إلى الاستنباط وتأييد حكم العقل أنناوالأسف يملأ قلوبنا لم نجد شأن الأدب فى هذه الدولة مذكورا فى كتب السالفين بأكثر من القسط الذى أدلينا به إليك ، ولم نجد من شعرائها إلا قليلا إلى جانب من مر بك ذكر أسمائهم فى عرض الاستدلال بشعرهم .

وسبب ذلك الإغفال الذى نال أدب هذه الدولة هو الحكم العام الذى قدمنا فى كل

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣ .
(٢) مرت هذه الأبيات ص ١٠٨ .

مقام وهو عدم العناية بأدب مصر فى ماضى عصورها . وكذلك ما كان من العباسيين من الشدة فى القضاء على هذه الدولة وتتبع أنصارها بالقتل والتشريد ، أخاف الناس وجعلهم يتقون ذكرها ، فنسى الناس آثارها .

١ — الجمل الأكبر :

ورد فى كتاب « عنبر الشحر ، فى حلى المشهورين بالشعر » (١) أن اسمه الحسين ابن عبد السلام وأنه من شعراء الفسطاط فى الدولة الطولونية وأنه توفى سنة ٢٥٨ ه مدح أحمد بن طولون بقصيدة منها :

له يد كم خلّدت من يـــــــد سحابة عمت بأنوائهـــــا
وهو لــــدى الهيجـــاء ليث إذا ما ثقلت قام بأعبائهـــا
انظر إلى مصر بسلطانـــــه ترى الهـــدى فاض بأرجائهـــا

ومدح أحمد بن المدبر صاحب خراج مصر وكان من عادته أن الشاعر إذا مدحه وارتضى شعره وصله فإذا لم يرتض أمر بحمله إلى المسجد وقال لغلامه لاتفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم تطلقه، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين، فجاءه الجمل هذا واستأذنه فى الإنشاد فقال له : قد عرفت الشرط قال نعم ثم أنشده :

أردنا فى أبى حسن مديحـــــا كما بالمدح تنتجـــع الـــــولاة
وقلنـــــا أكـــرم الثقلين طُـــراً ومن كفيه دجلـــــة والفـــرات
فقالوا يقبـــــل المدحـــات لكـــن جوائزه عليهن الصـــــــلاة
فقلت لهم ومـــا تغنى صـــــلاتى عيـــالى إنما الشـــأن الـــزكاة
فتأمر لى بكسر الصـــــاد منهـــا فتصبح لى الصـــلاة هى الصـــلات

فضحك ابن المدبر واستظرفه وقال من أين أخذت هذا ؟ قال من قول أبى تمام :

هن الحمـــــام فإن كسرت عيافـــة من حـــائهن فإنهن حِمـــــام

فاستحسن ذلك وأجزل صلته .

وروى له الثعالبى فى يتيمة الدهر (٢) قوله فى طبيب :

---

(١) مخطوط بدار الكتب وهو بعض أجزاء كتاب المغرب فى حلى أهل المغرب لابن سعيد المغربى .

(٢) ج ١ ص ٣٨٠ .

إذا سقـــام عـــراك نازلـــه فاندب أبا جعفـــــــر لنازلـه
يعـــرف ما يشتكيـــه صاحبـه كأنما جال فى مفاصلـــــــــه

واتفق أن تساقطت النجوم فى أيام أحمد بن طولون فراعه ذلك وأحضر من عنده من المنجمين والعلماء وسألهم ما عندهم فى ذلك فلم يجيبوا بشىء ، فدخل عليه الجمل المذكور وهم فى الحديث فأنشده فى الحال :

قالوا تساقطت النجـــــــــــو م لحادث فـــــــــظ عسير
فأجبت عنـــــــــد مقالهم بجـــــواب محتنـــــــك خبير
هـــــذى النجـــوم الساقطـــــا ت رجـــــوم أعـــــداء الأمير

فتفاءل ابن طولون واستبشر وأمر له بصلة مرضية وخلعة سنية وقال للجماعة : أف لكم أما فيكم من يحسن مثل هذا ؟ ! !

٢ — الناشى الأكبر : (١)

هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى ، الأنبارى المعروف بابن شر شير كان من الشعراء المجيدين ، وهو من طبقة ابن الرومى والبحترى .. وكان نحوياً عروضياً متكلماً . أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ثم خرج منها إلى مصر فأقام بها إلى آخر عمره . كان متبحراً فى جملة علوم منها المنطق ، وكان بقوة الكلام قد نقض كثيراً من علل النحو وأدخل على قواعد العروضيين شبهاً ومثل له بأمثلة غير أمثلة الخليل وذلك بحذقه وفطنته . وشعره كثير منه قصيدة فى فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وقد أكثر فى شعره من ذكر جوارح الصيد وآلاته والصيود وما يتعلق بها ، وقد اعتمد كشاجم فى كتابه « المصايد والمطارد » (٢) على شعر الناشى واستشهد بكثير منه .

ومن شعره فى الطرد قوله يصف بازيا :

لما تفرى الليـــل من أثباجـــــه وارتاح ضوء الصبح لا نبلاجـــــه
غدوت أبغى الصيـــد فى منهاجـه بأقمر أبـــدع فى نتاجـــــــــــه

---

(١) ترجمته فى وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٦٣ وفى شذرات الذهب ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) مفقود .

لبســـه الخالق من ديباجــــــــه   وشيا أحار الطـــرف فى اندراجه
فى نسق منــه وفى انعراجـــــه   وزان فوديه إلى حجاجـــــــــه
يزينـــــة كفته نظم تاجـــــه   منسره ينبئ عن خلاجــــــــه
وظفـــره يخبر عن علاجــــــه   او استضاء المرء فى إدلاجــــــه
بعينه كفته عن سراجه

وطردياته على أسلوب طرديات أبى نواس . أليست هذه القطعة شبيهة بقول أبى نواس يصف كلب صيد :

أنعت كلبا أهلـــــه فى كـــده   قد سعــدت جدودهم بجـــده
وكل خير عندهم من عنـــــده   يظل مولاه له كعبــــــــده
يبيت أو فى صاحب من مهـــده   إذا غدا جلله بـــــــــبرده
ذا غـــرة محجـــلا بزنـــده   تلذ منـــه العين حسن قـــده
تأخير شدقيـــــه وطـول خـــده   تلقى الظباء عنتـــاً من طـــرده
تشرب كأس شـــدها فى شــده   يصيدنا عشرين فى مُرْقَـــدّه
يالك من كلب نسيج وحده

ومن شعر الناشى فى جارية مغنية جميلة :

فديتك لو أنهم أنصفـــوك   لردوا النواظر عن ناظـــريك
تديرين أعيننـــا عن سواك   وهل تنظر العين إلا إليك
وهم جعلوك رقيبـــا علينـــا   فمن ذا يكون رقيبا عليك
ألم يقرءوا ويحهم مايـــرو   ن من وحى حسنك فى وجنتيك

مات الناشى بمصر سنة ٢٩٣ هـ . والناشى مسهلة عن الناشئ وهو لقب غلب عليه وشرشير كذلك لقبه وأصله اسم طائر يصل إلى الديار المصرية شتاء من البحر وهو أكبر من الحمام ، والأنبار مدينة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . واللفظ فى الأصل جمع مفرده نبرٌ وهو هرى الطعام ، وإنما قيل للبلدة أنبار لأن ملوك الأكاسرة كانوا يخزنون بها الحبوب .

٣- ابن الحداد :

من كتاب «تلقيح الآراء فى حلى الحجاب والوزراء » (١) أنه كان مختصا بالعباس ابن أحمد بن طولون الذى ثار على أبيه ، فلما استبد بالسلطان استوزره وفر معه إلى برقة فظفر به أحمد بن طولون حين سيق إليه ابنه أسيرا ، فقتل ابن الحداد شر قتلة . وكان العباس لماهم بالانخلاع عن طاعة أبيه، مرتبكا فصنع بن الحداد قصيدة يحرضه بها ويشجعه ومنها :

إذا هممت فلا تربعَ وقم وثب فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب

ولم ينقل منها غير هذا البيت.

٤ – المريمى :

هو القاسم بن يحي بن معاوية. ذكر القرطبي أنه من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم، وأنه كان مختصا بخدمة أبى الجيش خمارويه، ومما خاطبه به من الشعر قوله يستهديه خيمة :

وقد عرضت إليك حويجةٌ لى مصغرة وموقعها جليـــــل
مقدرة من الخيم اللـــــواتى بها لطف وليس بها خمول
حواليها السيول ولا عليهـــا إذا أفضت إلى الخيم السيـــول
بناء يستهل القطـــر فيـــــه ولا يعفو كما تعفـــو الطلـــول
إذا حلت من الأطناب خـــرت كما خر النزيف أو القتيـــــل

---

(١) مخطوط بدار الكتب ضمن كتاب المغرب فى حلى أهل المغرب لإبن سعيد المغربي .

الكتابة الإنشائية
فى عهد الدولة الطولونية

تذكر الكتابة فى مباحث الأدب فيراد بها كتابة الإنشاء. وهى قسمان: الرسائل الإخوانية وهى التى تكون بين الإخوان تمثل العواطف الإنسانية من سرور وحزن وعتب وشكر، والرسائل الديوانية وهى تلك التى يتولاها أولئك الكتاب البلغاء يقومون بها من الخليفة أو الملك الكبير، فى شئون الدولة السياسية من حرب وسلم ومهادنة وصلح واستمالة عاص وتهديد خارج.

وقد عظم شأن هذا النوع من الكتابة حتى صار رئيسه فى الدولة العباسية وكل مملكة متفرعة عنها وزيرا يشير على الخليفة أو الملك، وله فى الدولة أعظم مناصبها إن لم يغلبه فى بعض الأحيان رئيس الجند، والديوان الذى يتولى شئونه هذا الوزير يسمى ديوان الإنشاء. وهناك كتابة أخرى هى كتابة خراج الدولة ومحاسبة عمالها وضبط أعطيات الجند فيها وتولى صرفها لأربابها. وهذا النوع من الكتابة يسمى كتابة الخراج، وله ديوان يسمى ديوان الخراج. وعمله فى الحساب فلا يتناول الأدب بحث أحواله.

★ ★ ★

والذى جرى عليه العمل أن ديوان الخراج كان يوجد حيث يوجد مال يحصل وينفق؛ فكما يكون فى دار الخلافة ديوان خراج يكون فى كل ولاية كذلك ديوان خراج لضبط حساب الجبايات والجزى، وصرف أعطيات الجند ومن إليهم من خدام الدولة.

أما ديوان الإنشاء فلا يكون كما ذكرنا إلا حيث دار الخلافة أو مقر الملك المستقل الواسع الرقعة، وقد كانت مصر قبل قيام الدولة الطولونية ولاية تابعة للخلافة بالمدينة ثم بدمشق ثم بغداد؛ فلم يكن بها ديوان إنشاء على النمط المعرف بحواضر الملك، وإنما كان الوالى هو الذى يتولى بنفسه كتابة الرسائل إلى دار الخلافة أو ينيب عنه كاتبا

لا يكون له شأن يذكر ، لا فى تمام ملكة الكتابة ولا فى مقدار الثقافة العلمية التى كانت تشترط فى كتاب ديوان الإنشاء بدار الخلافة بعد تحضر العرب .

فلما استقل أحمد بن طولون بمصر وأراد أن يجمع لها مظاهر الاستقلال ، احتاج إلى إيجاد ديوان للإنشاء على نمط نظيره فى بغداد يختار له فضلاء الكتاب ويجعل عليهم رئيسا يحرص على أن تتوافر فيه الكمالات التى تلتمس فى رؤساء هذا الديوان . ولم يكن عمل ابن طولون محض مباهاة للخلافة العباسية بل إن اتساع رقعة ملكه وتشعب مراسلاته وعظم مايدور فى هذه المراسلات من شئون . اضطره إلى إنشاء الديوان من ناحية ، وإلى أن يستجيد اختيار كتابه من ناحية أخرى .

لم يكن بمصر للأدب كله (نظما ونثرا) شأن يدانى شأنه فى بغداد أو العراق جملة فكان لابد لابن طولون من الاستعانة بالعراقيين فى إقامة ديوان إنشائه . وإن كان قد حرص أولا أن يكون كل عماله مصريين . وله فى ذلك حديث جرى مع صديقه أحمد بن خاقان . قال ابن الداية فى كتابه «سيرة ابن طولون» (١) «حدثنى أحمد بن خاقان وكان صديقاً لابن طولون. قال : لما استكتب أحمد بن طولون جعفر بن عبد الغفار اضطرب بما حمله فقلت له : يحتاج موضع هذا الكاتب إلى من هو أوفى منه وزنا. فقال أنا أحتمله لأنه مصرى. فقلت : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى . قال : لا والله ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه . وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع فى ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى عتقاد المستغلات به فتكون ضمانا لجناياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتى . والكاتب العراقى ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات ببلده النائى عنه وعنى يستبطئ الرباع . ومن يشير عليه أن يعمر البلد الذى يعمل فيه وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده ، فلهذا السبب زهدت فى كتاب «سرمن رأى» مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة » .

ولكن ابن طولون لم يستطع صبرا عن اصطناع البغداديين فى ديوانه فإنه لم يكد يحدث هذا الديوان حتى جعل رئيسه محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان ، الكاتب البليغ الذى أجمع من ذكروه على وصفه بالبلاغة ، فقال عنه القلقشندى «ومن

---

(١) ص ١٥ .

أشهر كتابهم (الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبد كان كاتب أحمد بن طولون وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها » . ويقول فى مقام آخر عنه «واستكتب ابن عبد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره» .

نعم لم نر من صرح يذكر موطنه الأول حتى نعرف أمصرى هو أم عراقى؛ ولكن الذى يغلب على الظن أنه ليس بمصرى لأن روح كتابته وقوتها تسامى نظائرها فى كتاب العراق ، ولو أنه كان مصريا حضر أيام ابن طولون الأولى لظهرت له فضيلته فاختاره للعمل بديوانه ولم يضطر إلى اتخاذ من اتخذهم من قبله ، فلا بد أن يكون طارئا على مصر ، والشأن فى الدولة الناشئة أن يقصدها الفضلاء من الأقطار لخدمتها والانتفاع ببذلها لأعوانها . أو أن يكون ابن طولون قد سمع بشهرته فاستدعاه للعمل معه .

وكيفما كان الحال فقد رفع ابن عبد كان من شأن الكتابة بمصر وأثرت عنه رسائل ممتازة تذكر إلى جانب رسائل البلغاء المشهورين .

وكتب لابن طولون أيضا أحمد بن محمد الواسطى ، وابن مفضل وقد خان هذا ابن طولون كما ذكر ابن الداية فى كتاب سيرة ابن طولون (١) قال : «حدث شعيب ابن صالح قال : إن نفس ابن طولون سئمت استخدام الكتاب منذ أشرف من ابن المفضل على دغل نفسه وسوء طويته وجرأته على اليمين على ربه فسأل ، عمن كان يكتب لحسين بن خادم فقيل له : الحسين بن مهاجر فقال له : كم صرف لك الحسين ابن خادم قال أربعة آلاف دينار وهى أكثر ما كان فى حاصله فى ذلك الوقت فقال : أحمد ما أحب من همتى لكاتبى ما وصلك به الحسين فهذا المال قليل لك فخلع عليه ووصله بمائة ألف » .

كذلك كان من كتاب أحمد بن طولون رجل بغدادى اسمه أبو يعقوب إسحاق ابن نصير وهو كاتب قدير كان يشتغل بإمرة ابن عبد كان ، وهو الذى كشف فضله وعرف مقداره ؛ ذلك أن ابن نصير قدم إلى مصر طالبا للعمل بديوانها فالتمس من ابن عبد كان التصرف فى المكاتبات فامتحنه ابن عبد كان فأبان الامتحان عن فضل كبير فقرره من كتابه وأجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر . وبقى ابن نصير فى ديوان الإنشاء إلى ما بعد أيام أحمد بن طولون ووفاة ابن عبد كان . فلما تولى أحمد بن على الماذرائى رياسة ديوان خمارويه صرف ابن نصير وكان الماذرائى ضعيف الكتابة فبان

---

(١) ص ٤٤

عجزه لخمارويه، فاضطر الماذرائى إلى استدعاء ابن نصير فكتب فأرضى خمارويه فسأل عن الخبر، فذكرت له قصة ابن نصير فأحضره وسأله عن رزقه فقال أربعون دينارا فقال للماذرائى اجعلها أربعمائة. وما زال ابن نصير يرتقى فى نظر خمارويه ويزيد فى رزقه حتى صار ألف دينار فى الشهر .

أما الماذرائى رئيس ديوان خمارويه فهو محمد بن على من ماذرايا وهى قرية بالبصرة. قدم مصر هو وأخوه أحمد بن على فكانا مع أبيهما على بن أحمد متولى خراج مصر لخمارويه . كتب الحديث ببغداد عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى وطبقته وتولى الكتابة لخمارويه وهو حدث كما حدث عن نفسه . (١)

ولد سنة ٢٧٥ هـ وتوفى بمصر وقد نيف على التسعين سنة ٣٤٥ هـ .

وفى شذرات الذهب (٢) قال عنه : كان من صلحاء الكبراء أما معروفه فإليه المنتهى قيل أعتق فى عمره مائة ألف رقبة .

ومن كتاب هذه الدولة غير من ذكرنا الحسن بن رافع كان من كتاب موسى ابن طولون ومنهم أيضا جعفر بن جدار وأحمد بن المؤمل ومحمد بن سهل المنتوف وكانوا مع العباس بن أحمد بن طولون حين خرج على أبيه .

ومن كتاب الدولة أيضا أحمد بن أيمن ذكره ابن الداية فى كتاب المكافأة ، كما أن منهم أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ولا نجد المؤرخين عنوا بكاتب من كتاب هذه الدولة عنايتهم بأحمد هذا، ولعل ذلك لما كان يجمع فى نفسه من الفضل ولما خلف من كتب عرف بها شأنه . لذلك نرى أن نفرده بحديث خاص نتناول فيه كتابه « المكافأة » .

أحمد بن يوسف المصرى :

له سمىّ بغدادى هو أحمد بن يوسف كاتب المأمون الذى يعد فى الذروة من كتاب الدولة العباسية فى عصرها الذهبى .

أما صاحبنا المصرى الذى نتحدث عنه فهو ليس بمصرى ميلادا وإنما هو بغدادى انتقل به أبوه مع سائر أسرته إلى مصر، وأقام بها فنشأ ابنه هذا، ونسب إلى مصر لنشأته

(١) تاريخ بغداد جـ ٣ ص ٧٩.
(٢) جـ ٢ ص ٣٧١ .

بها وخدمته لرؤسائها . كان أبوه يوسف بن إبراهيم فى خدمة إبراهيم بن المهدى يتولى كتابة إقطاعاته، فلما مات ابن المهدى سنة ٢٢٤ رأى أن «سر من رأى» لا تصلح لإقامته بعد ما اشتدت بها وطأة قواد الأتراك، فخرج إلى مصر بعياله وحاشيته يتقبل بها الصناع من أصحاب الإقطاعات. ومن يومئذ عرف بيوسف بن إبراهيم المصرى صاحب إبراهيم ابن المهدى وعاش بمصر إلى ما بعد سنة ٢٦٠ هـ .

وكان يوسف هذا — مع كونه من كتاب الخراج — محبا للعلم والعلماء ميالا بخاصة إلى الطب؛ حكى عن عيسى بن حكم الدمشقى الطبيب النسطورى وإسماعيل بن أبى سهل ابن نوبخت وجبريل بن بختيشوع وألف كتابا فى أخبار المتطببين كما ألف آخر فى الطبخ وآخر فى أخبار ابن المهدى .

ولما حل بمصر أقبل عليه المصريون وأحبوه لفضله، وحدث أن أحمد بن طولون حبسه فكلمه بعض وجوه المصريين فأفرج عنه، ذكر ذلك ابنه فى كتاب المكافأة .

أما أحمد ابنه فهو أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية، وإنما عرف بذلك لأن أباه يوسف كان ابن داية (ظئر) إبراهيم المهدى وكان هو (يوسف) رضيع المعتصم بن الرشيد ، حتى لقد تزوج إليهم ، فإن امرأته بنت ميمونة مولاة حمدونة أم محمد بنت الرشيد وقد صحبته إلى مصر . فأحمد حين يسمى ابن الداية فإنما يكنى فى ذلك بكنية أبيه .

نشأ أحمد بمصر فكان من فضلائها المشهورين، واتصل ببنى طولون حتى نسب إليهم. وكان إلى جانب فضله المعروف فى كتابة الإنشاء ، الذى تجلى فى كتابه «المكافأة» ممن له باع فى علوم كثيرة كالطب والنجامة والحساب والتاريخ وغير ذلك .

وقد عد له ياقوت عدة مؤلفات(١) منها «سيرة أحمد بن طولون» و «سيرة أبى الجيش خمارويه» و «سيرة هارون بن أبى الجيش» و «أخبار غلمان بنى طولون» و كتاب «المكافأة» و كتاب «حسن العقبى» و كتاب «مختصر المنطق» وكتاب «الثمرة» و «كتاب أخبار المنجمين» و «كتاب ترجمته» وزاد ياقوت كتابى «أخبار إبراهيم بن المهدى» و كتاب «الطبيخ» وإنما هما لوالده يوسف كما ذكرنا آنفا .

ولا نعرف له من بين هذه الكتب اليوم إلا «سيرة أحمد بن طولون» و «المكافأة» وليس فى كتاب سيرة بن طولون ما يستحق التعليق عليه؛ لأنها مجرد سرد لأخبار الرجل

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ولعل كل ما فى الكتاب من الميزة أنه بقلم شاهد عيان روى الحوادث مما رآه بنفسه أو سمعه من أهله . فلذلك كان الكتاب مصدرا جديرا بالاحترام والعناية لأخبار أحمد ابن طولون .

أما كتاب المكافأة فهو الذى يهمنا تفصيل الكلام عنه لأنه يمثل الناحية الأدبية فى مؤلفه ونحن فى هذا الباب إنما نعنى بتلك الناحية .

كتاب المكافأة :

الوصف المختصر لهذا الكتاب أنه قصص قصيرة لحوادث جرت للمؤلف ، أو رواها عن غيره من القريبين من عهده ، وكلها يدور على المكافأة على الإحسان أو الإساءة ، وقد جعل كلمة المكافأة شاملة للنوعين ، وهو وضع لغوى صادق ، فليست المكافأة إنما تكون فى الخير وحده كما يفهم ذلك بعض الناس .

ولذلك كان كتابه ثلاثة أقسام الأول «المكافأة على الحسن» والثانى «المكافأة على القبيح» وأورد فى الأول إحدى وثلاثين قصة وفى الثانى إحدى وعشرين .

ثم أتبع ذلك بالقسم الثالث وهو « حسن العقبى » ولعل هذا القسم هو الذى عده ياقوت كتابا مستقلا فيما روينا لك من إحصائه لكتب أحمد بن يوسف ، وقد روى المؤلف فى هذا القسم تسع عشرة قصة ثم ختم الكتاب بحكم مروية عن السابقين فى قيمة الصبر واحتمال الشدة ، وقدم لهذا القسم بقوله :

وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون عونا للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة فى الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام فى القبيح. وقد قالوا الخير بالخير والبادى أخير والشر بالشر والبادى أظلم ، رأيت أن أصل ذلك حفظك الله بطرف من أخبار من ابتلى فصبر فكان ثمرة صبره حسن العقبى .

وفكرة الكتاب كله أخلاقية تحمل قارئه على التمسك بأهداب الإحسان ، لأن صاحبه لا يأمن الدهر ، فهو يجد مكافأة على إحسانه حين يحتاج إلى هذه المكافأة ، فإن لم ينلها فى نفسه نالها فى عقبه ، وهكذا لا يضيع الإحسان أينما وضع ، كما أن فيه إنذارا للمسىء بأن

يلقى جزاء إساءته لايفلت من ذلك مهما احتاط وادعى القدرة على الخلاص، فهو تحذير لمن تحدثه نفسه بالشر ويكون قويا عليه ، أن يقربه لأنه لا منجى له من سوء العاقبة ، كذلك فيه تجميل لخلق الصبر واحتمال المكاره ، حتى يلقى الإنسان حوادث دهره غير جازع ولا واهى العزم، وفى ذلك ما فيه من الكمال المنشود للإنسان فى هذه الحياة . فالكتاب كتاب أخلاق عدل فيه مؤلفه عن النظريات الفلسفية فى تجميل الفضائل وتقبيح الرذائل، إلى الحوادث الناطقة بنفسها المبينة بالبرهان الذى لايعلق به شك أن الإحسان جزاؤه الإحسان والشر عاقبته الشر .

ولقد زاد هذه الحكايات قوة وجعلها أقوى على تأدية المقصود، منها أن المؤلف يرويها عن نفسه وعن عشرائه، مما يجعلها فى باب التأثير بمنزلة الروايات التمثيلية التى يراها الرائى، فيجزم أنها حقائق واقعة وينسى أنه أمام مسرح محدود المساحة، ويتوهم أن الدنيا قد ضاق أفقها أمامه فجرت حوادثها بسمعه وبصره، فهو لايشك فى أن ما يرى حقيقة لاخيال ، وواقع لا ادعاء .

أما عبارة الكتاب فهى سهلة مناسبة لموضوعه وهو القصص ، حتى صار الكتاب بسهولتها خليقا بأن يدرسه متوسطو طلاب العربية من غير ملل ولا شعور باستعصاء تراكيبه عليهم، وهى ككل ما كتب المصريون إلى عهد المؤلف كلام مرسل لا محاولة فيه لزينة لفظية .

وقد علمت أن ذلك أثر من آثار الثقافة المصرية الخالية من الفلسفة والمنطق وكل ماعقد الفكر واللفظ عند العراقيين ، بل ربما كان فى مؤلف الكتاب تسامح ظاهر فى استعمال ألفاظ عامية لايرضاها كبار الكتاب لأنفسهم ولا يرضاها لهم قراؤهم الحريصون على سلامة التعابير من العجمة . فهو يستعمل كلمة «ديوانيان» بمعنى حافظ الديوان . قال فى أول قصة من قصص المكافأة على الحسن ص ٤ : «قال كاتب خالد القسرى أن «ديوانيان» خالد أخرج من ديوانه وثيقة على بعض المتضمنين فدفعها إليه ببر يعجله له » وفى هذه المقالة يستعمل كلمة (فتدسس الديوانيان حتى دخل فى جملتهم) ولا أظن أن هذه الصيغة عربية .

وكذلك يستعمل فى ص ٨٢ كلمة تليس فى قوله : «توجه يوم سبت إلى ميخائيل فأحضره ثم دعا بتليس من شعر ، يطوله ميخائيل فأدخل رجلاه فى قرارته ثم أمر بالتليس فرفع وأقيم ميخائيل فبلغ رأس التليس إلى رأسه » وكلمة تليس وإن وجدت فى القاموس

المحيط بلفظ تليسة لما يتخذ من الخوص أو نحوه هي قبطية الأصل واستعمالها فى حر الكلام ليس من شأن المجودين من الكتاب .

وكذلك يستعمل كلمة «التزليل» بمعنى ما يحمل من مائدة صديق أو قريب وهى عامية قال فى ص ٩٥ (وأقلت أن يدعونى فأتحمل لهم «لعياله») .

كذلك يستعمل تعابير لانسب عريقا لها فى العربية كقوله فى ص ١١٢ ، واشتد الحصار ونزع السعر وتحلق المأكول (يريد إرتفاع السعر وعزة الطعام فعبر بالتحلق عن الارتفاع وأراد به بعد التناول .

وليس معنى هذا أن الكتاب ساقط العبارة أو رذل التراكيب ، بل هو كما قلنا يمتاز بالسهولة التى تقرب من حد الامتناع ، لأنه يؤدى المعنى فى أقرب الألفاظ دلالة عليه ، وهذا أقصى ما يطلب من البليغ ، على أن الكتاب فيه تعابير ترتقى فى سماء البلاغة العربية ، فمن ذلك ما ورد فى ص ٩ « إذا رأيت رجلا أحاطت به خيل تريغ سلبه فذدتها عنه فقد كافأت عارفتى فانصرف مصاحباً » وما ورد فى ص ١٧ «فقال يابنى إن كنت تصبر على التدلى منه فى محنه كما تتدلى فى نعمه وإلا فاعتزله ولا تفضحنا بالقعود عنه فى نوائبه » وما ورد فى ص ٣١« وترى فى بلدك جماعة قد ارتفعوا أبناء خاملين فلا تنهرهم بدقة أصولهم والصدق عما كان عليه سلفهم فإنه يزرع لك المقت فى قلوبهم » . وما ورد فى ص ٤٠ «اتصل بى من ضيق يحيي ما كدر عيشي وذكرت إحسانه إلى وحسن صنيعه بى فضاق بى العريض» .

وغير ذلك كثير لا يمكنك من جملته إلا قراءة الكتاب كله مع ما تجديه عليك هذه القراءة من إدراك حسن اتصال الكلام بعضه ببعض وسبكه فى قالب محكم يجعله كما قلت من السهل الممتنع .

* * *

وأخيرا نقول إن أحمد بن يوسف كان يمثل ثقافة الكتاب فى أيامه ، فهو يعرف التاريخ ويلم بالطب ، ويحذق العربية ، ويجيد الحساب ، وقد درس المنطق وألف فيه كما ألف فى التنجيم . وكان من نتائج حذقه للعربية أنه كان شاعرا حتى أخرج من شعره أجزاء . دخل يوما على أبى على الحسن بن المظفر الكرخى عامل خراج مصر مسلما عليه فقال له كيف حالك فقال على البديهة :

يكفيك من سوء حالى إن سألت به   أنى على طبرىّ فى الكوانين (١)

مات رحمه الله سنة ٣٣٠ أو سنة ٣٤٠ هـ كما رجحه ياقوت فى معجمه .

خواص الكتابة فى العهد الطولونى : (٢)

نريد بهذه الخواص ما ذكره المتقدمون من الأساليب المتبعة فى البدء والختام فى الرسائل الديوانية والإخوانية .

١ — فمن ذلك افتتاح الرسائل الديوانية بقولهم : من فلان إلى فلان كما كتب ابن عبد كان إلى العباس بن أحمد بن طولون عن أبيه قال : « من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه الملم بذنبه » وستأتى الرسالة رمتها فى نماذج كتابة هذا العصر .

٢ — ومن ذلك افتتاح الإخوانيات بالدعاء بالبقاء وما فى معناه كما كتب ابن عبد كان : « أطال الله بقاءك فى إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالى . وأدام عزك فى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى » .

٣ — أو الدعاء بدوام النعمة كما كتب ابن عبد كان أيضا : « أسبغ الله عليك نعمه الراهنة بنعمه المنتظره وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها فلم أر ولله الحمد نعمة قصدت مستقرها وتوخت وليها وتمنت كفئها إلا نعمتك » .

٤ — ومنها الدعاء بجعلت فداك . كما كتب أيضا : « جعلت فداك فإن فى ذلك شرفا فى العاجل ، وذخر العقبى فى الآجل » .

٥ — ومنها أن تفتح بلفظ « كتابى » أو « كتبت » ، كما كتب أيضا : « كتابى إليك وأنا استعتب الأيام فيك ، وأصانع الزمان فى تقـــــريبك »

---

(١) الكوانين أشهر الشتاء . والطبرى ثلثا الدرهم فى اصطلاح أهل الشام . ويريد أنه فقير يعيش على هذا القدر القليل فى أيام الحاجة إلى كثرة النفقة وهى أيام الشتاء .

انظر رواية البيت فى ترجمة أحمد بن يوسف فى الجزء الخامس من معجم الادباء الطبعة المصرية وما كان من هذيان فى شرحها .

(٢) ملخصة عن كتاب صبح الأعشى ج ٨ ص ١٦٠ وما بعدها .

وكما كتب أيضا: « كتبت وأنا من حنين الصبابة. إليك وإرزام الشوق نحوك. وأليم التشوق إليك ولاعج الاوعة بك على ما أسأل الله أن يرحم ضعفى ويتصدق على برؤيتك » .

والأجوبة ابتداؤها كما فى صدور الإبتداءات ثم يقع التعرض لوصول الكتاب . وقد تصدر بوصوله وهو الأكثر كما كتب أيضا : « وصل كتابك فدفع تباريح الشوق وقمع كآبة البين وأطفأ لهيب الحرقة وبرد حر الصبابة » .

أما الخواتم فتكون باستماحة الرأى إما بلفظ : « فإن رأيت » كما كتب أيضا : « . . . . . فإن رأيت أن تأتى فيه مؤتنفا مالم تزل تأتيه سلفا فعلت » .

واما بلفظ « فرأيك » كما كتب أيضا : « . . . . . فرأيك فيه بما أنت أهله فإن الرأى الذى أنت أهله فوق ما يلتمسه المسرف فى همته والمتبسط فى أمنيته » .

وكما كتب : « فرأيك فى ذلك بما تقضى به الحق وتصل الذمام وتحفظ الحرمة » .

★ ★ ★

نماذج من كتابة الإنشاء
فى العهد الطولونى

١ — كتاب إلى خارج عن الطاعة :

وهو الذى كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس حين خرج عليه . قال : (١) من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه العاصى لربه الملم بذنبه ، المفسد لكسبه العادى لطوره الجاهل لقدره الناكص على عقبه ، المركوس (٢) فى فتنته المبخوس من حظ دنياه وآخرته .

---

(١) صبح الاعشى ج ٧ ص ٥ .
(٢) المردود منقلبا .

سلام على كل منيب مستجيب ، نائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم (١) وحلول الغوث والندم ، وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل ، والطول الجليل . وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها وستعلم هبلتك الهوابل (٢) أيها الأحمق الجاهل الذى ثنى على الغى عطفه ، واغتر بضجاج (٣) المواكب خلفه ، أى موردة هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

وإنا كنا نقربك إلينا وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك وتأميلا لفيئتك ، فلما طال فى الغى انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تلين كبدك (٤) ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلا . بل لا تكنى بأبى العباس ألا تكرها ، وطمعاً بأن يهب الله منك خلفاً نقلده اسمك ، ونكنى به دونك ، ونعدك كنت نسياً منسياً ، ولم تكن شيئاً مقضياً .

فانظر — ولا نظر بك — إلى عار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت . واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك . والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل ، فى الليل ، تؤذن بحرب وبويل .

فإنا نقسم — ونرجو ألا نجور ونظلم — لانثنى عنك عناناً ، ولا نؤثر على شأنك شأناً ، ولا تتوقل (٥) ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد إلا عاجلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أقمت منهما . منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب

(١) الحلق أو مخرج النفس .
(٢) ثكلتك الثواكل .
(٣) الضجاج المشاغبة .
(٤) الكبد تلك الفلذة فى جسم الانسان وغيره وهى توصف باللين والشدة كناية عن لين صاحبها وشدته .
(٥) تصعد .

جليل حتى تستمر (١) من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ولا مزحزح لك عن ساحتك . وتعرف (٢) من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبلت !(٣) ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرى (٤) بك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما (٥) . وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور ، متمادياً فى مقابح أمور . من عقوق لا ينام طالبه ؛ وبغى لا ينجو هاربه ، وغدر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودّى قتيله (٦) وتقف على سوء رويتك ، وعظم جريرتك فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول . وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح. وتتلهف (٧) والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه (٨) مسرعاً ، وانقدت إليه منتصحاً .

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ، ما ورد به كتابك علىّ بعد نفوذى عن الفسطاط من التمويهات والأعاليل ، والعدات بالأباطيل. من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على ، حتى ملت إلى الإسكندرية فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة . ولا أنه خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك أردت التروح والاحتيال للهرب ، والنزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك ، ولعل مصيرك إليها يكفينيك ، ويبلّغ إلىّ أكثر من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعاً إلا تلوتك (٩) ولا تأتى بلداً

---

(١) تجده مرا .

(٢) معطوف على تستمر .

(٣) كان القياس أن يقال هبلت بالبناء للمجهول لأن الأصل هبلتك أمك ولكن صاحب لسان العرب نقل عن ابن الأعرابى أنه يقال هبلت (بالبناء للفاعل) .

(٤) ينقطع والمراد ينكشف .

(٥) صمم .

(٦) يؤخذ بثأره .

(٧) تتحسر .

(٨) أى باب التوبة .

(٩) تبعتك وكذلك قفوتك فى الفقرة بعدها .

إلا قفوتك . ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جد حبلها (١) وفصم عروتها . فإن أحداً لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين : من دنيا ودين . فأما الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسخاطه . وأما الدينا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقته وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهيأ لك مكاثرتنا (٢) بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب إليه فى إنمائها ، إلى ما أنت مقيم عليه من البغى الذى هو صارعك والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتناه (٣) من مصيرك إلينا فى حشودك وجموعك ومن دخل فى طاعتك لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا بأمر أظهروا فيه الشماتة بنا فما كان إلا بسببك . فأصلح أيها الصبي الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا واحزم امرك قبل استعمالك الحزم لنا . فما أحوجنا الله (وله الحمد) إلى نصرتك ومؤازرتك ، وإلا اضطررنا إلى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك « وما كنت متخذ المضلين عضداً » .

وليت شعرى على من تهول بالجنود ، وتمخرق (٤) بذكر الجيوش ، ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك ! ! دون رزق ترزقهم إياه ولا عطاء تدره عليهم . فقد علمت — إن كان لك تمييز أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية طرابلس ، وكيف خذلك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هزمت . فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك ولا رزق لهم على يدك . فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك ، فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا ، وجودهم (٥) من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا مالا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك والميل إلينا دونك ، ولو كانوا جميعاً معك ومقيمين على نصرتك لرجونا من الله أن يمكننا الله منك ومنهم . ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم . ويجرينا من عادته فى النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل بأمثاله علينا .

---

(١) قطع

(٢) مغالبتنا .

(٣) جعلتنا نرجوه .

(٤) المخرقة الإتيان بالباطل .

(٥) من وجد الشيء بمعنى حصل عليه .

ويتطول (١) بأشباهه . فما دعانى إلى الإرجاء(٢) لك والتسهيل من خناقك والإطالة من عنانك طول هذه المدة إلا أمران: أغلبهما كان على احتقار أمرك واستصغاره وقلة الاحتفال والاكتراث به وإنى اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الإباق إلى أقاصى المغرب شريداً عن منزلك وبلدك ، فريداً عن أهلك وولدك، والآخر أنى علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز إلى ما انحزت إليه، فأردت التسكين من نفارك والطمأنينة من جأشك وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد ، وتتوق إلى قربنا توقان (٣) ذى الرحم . فإن فى رفقنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تآخينا إياك ما يردك علينا . ولم يسمع منا سامع فى خلاء ولا ملاء (٤) انتقاصاً بك ، ولا غضباً منك ، ولا قدحاً فيك . رقة عليك واستماماً للنعمة عندك ، وتأميلا لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك وحظك . فأما الآن مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلى النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ، واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تدبيرك، فما أنت بموضع للصيانة ولا أهل للإبقاء والمحافظة. بل اللعنة عليك حالة، والذمة منك برية ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة والإضاعة لرحم الأبوة .

فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ولا قبل الله لك صرفاً (٥) ولا عدلا ، ولا ترك لك منقلباً ترجع إليه وخذلك خذلان من لا يؤبه له وأثكلك ولا أمهلك ولا حاطك ولا حفظك .

فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار، والغدو والآصال، ولأكتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك والبراءة منك والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ويأثرها (٦) غابر عن ماض وتخلد فى بطون

---

(١) ينعم .
(٢) الامهال والتأخير .
(٣) شوق ولجوء .
(٤) الملأ: التجمع بدز جبل ولعله هنا أراد أن يزاوج بها كلمة خلاء فجعلها على وزنها
(٥) الصرف : التوبة. والعدل : الفدية .
(٦) ينقلها .

الصحائف ، ويحملها الركبان ويتحدث بها فى الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً ما اطرد الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار ، فحينئذ تعلم – أيها المخالف أمر أبيه القاطع رحمه العاصى ربه – أى جناية على نفسك جنيت وأى كبيرة اقترفت واجتنيت . وتتمنى لو كانت فيك مسكة (١) أو فيك فضل إنسانية ، أنك لم تكن ولدت ولا فى الخلق عرفت– إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا ، خاضعاً ذليلا كما يلزمك فنقيم الاستغفار مقام اللعنة والرقة مقام الغلظة ، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها وذكر الله فاتقاه إن شاء الله تعالى .

***

٢ – من رسائل ابن عبدكان الإخوانية :

إن قلت فى كتبى إليك جعلنى الله فداك ، أكون قد بخستك حظ إحسانك إلى وحق مفترضك على ، لأن نفسى لا توازى ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك . وإنما يفدى مثلك بالأنفس التى هى أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

٣ – من كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف . القصة الخامسة عشرة من قصص المكافأة على القبيح قال :

حدثنى يوسف بن إبراهيم والدى قال حدثنى إبراهيم بن المهدى أنه دخل على الخيزران أم الرشيد فوجدها جالسة فى الدار المعروفة بها وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها ، على نمط (٢) أرمينى والنمط على بساط أرمينى ، وعن يمين النمط ويساره نمارق (٣) أرمينية وعلى أعلى نمرقة منها زينب بنت سليمان بن على ، وعلى يسار النمارق أمهات أولاد المنصور ونسوة من نساء بنى هاشم . إذ وقفت امرأة على طرف البساط فسلمت ثم قالت : يا زوج أمير المؤمنين أنا مُرَيّة زوج هشام بن عبد الملك ثم مروان ابن محمد من بعده نكبها الزمان وزلت بها النعل (٤) حتى أصارها إلى عاريّة (٥) ما تستتر به مما عليها .

---

(١) عقل راجح .

(٢) النمط ظهارة أى فراش أو هو البساط .

(٣) النمرقة الوسادة .

(٤) عثرت والمراد وقعت فى سوء الحال .

(٥) استعارة واقتراض .

فتبينت الدموع تدور فى عين الخيزران، وخافت زينب أن تدخلها رقة فقطعت على مُرّية الكلام بأن قالت : يا أم أمير المؤمنين اتقى الله أن تدخلك رأفة بهذه الملعونة فتتبوئى (١) مقعدك من النار . ثم التفت إلى مرية فقالت لها : بك فدام ما أنت فيه (٢) يا مريه كأنك نسيت دخولى عليك بحران (٣) وأنت جالسة بصحن دار مروان على هذا النمط، وتحته هذا البساط، وعن يمين نمطك ويساره هذه النمارق وعليها أمهات أولاد جبابرتكم، وقد مثلت فى مثل هذا المكان الذى أنت فيه ما ثلة ، وأنا أسألك وأتضرع إليك فى استيهاب (٤) جثة إبراهيم الإمام عن مروان لئلا يمثل به ، وقولك لى وأنت كالحة (٥) فى وجهى : ما للنساء والدخول فى أمور الرجال ؟ ثم أمرت بإخراجى من دارك بغلظة ، فلجأت إلى مروان فوجدته على حال أشد تعطفاً على رحمه منك وقال لى : لقد ساءتنى وفاة ابن عمى وما دبرت المثلة به . وقد خيرنى بين إطلاق تجهيزه (٦) له وبين تسليمه إلى فاخترت تسليمه . وأمر له بجهاز فقبلته منه .

قال إبراهيم فالتفتت مرية إلى زينب فقالت : كأنك يابنت سليمان حمدت لى عاقبة أمرى فى قطيعتى رحمى فأردت أن تزينى قطيعة الرحم لأم أمير المؤمنين ثم التفتت إلى الخيزران فقالت « قد صدقت زينب فيما ذكرت عنى ، وذلك الفعل منى أحلنى هذا المحل والسعيد من اتعظ بغيره » وانصرفت . فبعثت إليها الخيزران ما أعاد إليها حالها وكف اختلالها .

★ ★ ★

ويلاحظ أن هذه النصوص (فيما عدا القصة) هى لابن عبدكان . وقد لا يعثر الباحث هذه الفترة بعد طول التنقيب على نص أدبى لغير هذا الكاتب . وذلك وإن كان تابعاً

(١) تبوأ المكان جلس فيه .
(٢) ترتيب الكلام دام بك ما أنت فيه . والفاء فى فدام لتزيين اللفظ .
(٣) بلد بالشام والنسبة إليها حرنانى ولا يقال حرانى وإن كان القياس .
(٤) طلب الهبة .
(٥) مكشرة عابسة .
(٦) تكفينه .

لسنة بقاء الأصلح لأن هذا الكاتب كان خير كتاب هذا العهد . يفوت علينا كثيراً من الفوائد التى كان يجنيها تاريخ الأدب من وجود نصوص كثيرة لكتاب كثيرين ، فقد كان فى ذلك مجال كبير للبحث والموازنة . ولكن هذا النقص يكاد يكون ماثلا فى كل العصور فلا ذكر إلا لأشهر المشهورين ولا إبقاء إلا على أجل الآثار .

العلم فى الدولة الطولونية

كان العلم رائج السوق فى أيام هذه الدولة ويرجع ذلك إلى أسباب منها :

١ ـ أن مصر كانت منذ الفتح الإسلامى مباءة لكثير من الصحابة ثم التابعين من بعدهم وهؤلاء هم نقلة الدين ورواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك كانت مصر من الأمصار المشهورة برجال السنة فقصدها فى مدة هذه الدولة طلاب الحديث والفقه من كل مكان ، قصدها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦) (١) وأبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٣) . وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٧٥) ، وعبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى (٣٠٣) ، وهؤلاء هم أعلام السنة وأصحاب الكتب المعتمدة فيها .

وقصدها غيرهم من طلاب الحديث والفقه أيضاً كقاسم بن محمد الأموى (٢٧٩) الذى رحل إلى مصر رحلتين وتفقه على ابن عبد الحكم ، وعيسى بن مسكين (٢٩٥) قاضى القيروان الذى أخذ بمصر عن الحارث بن مسكين ، وجعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض (٣٠١) قاضى الدينور الذى كان كما يقال من أوعية العلم وكان مجلسه يحوى عشرة آلاف أو أكثر (٢) .

٢ ـ كان لانتقال الإمام محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر أثر عظيم فى نشاط الحركة العلمية بها ، فقد كان المذهب الوحيد الذى يعرفه المصريون هو مذهب الإمام مالك فلما حل الشافعى بمصر ونشر مذهبه بها ثارت الخصومة بين أتباعه وأتباع الإمام مالك وكان من أثرها ما كان من الجدل والنقاش فى العلم . وهو لا شك يبعث فيه الحياة . وقد نبغ على يد الشافعى رضى الله عنه علماء طارت شهرتهم فى أقطار الإسلام فقصدهم الناس من كل ناحية يتلقون عنهم ويقتبسون من فضلهم .

---

(١) نشير بهذا الوضع إلى سنة الوفاة .

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣٥ .

وأتباع الشافعى بمصر هم الذين حشاهم العلم حشواً كما يقول فى حديثه عن الربيع ابن سليمان المرادى .

٣ — وإن همة أحمد بن طولون وعمله على منافسة العباسيين فى مظاهر عظمتهم جعلاه يجتهد فى أن تكون مصر كعبة القصاد ومثابة العلماء والأدباء . فكان يخص أهل الفضل بكرامته حتى عرف عنه حبه للعلماء والجود عليهم . وهو الذى كان يبعث فى كل سنة إلى القاضى بكار بن قتيبة (٢٧٠) بألف دينار خارجاً عن المقرر له من وظيفة القضاء . وقد ساعد على أن يكون ابن طولون بهذه المثابة من تقدير العلماء أنه كان فى نفسه عالماً فاضلا كما قدمنا لك .

٤ — أن العلم الدينى وهو الذى كان رائجاً بمصر إبان هذه الدولة لا يحتاج إلى كثير من تشجيع الملوك ، لأن الحافز إليه غالباً هو الورع وحب إرضاء الله بنشر دينه وإنارة سبيل الخير للناس ، فالبخارى قضى حياته فى تنقل بين البلاد ، فرحل فى طلب الحديث إلى سائر الأمصار ، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر وكان يقول كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة (١) وأبو داود السجستانى كتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والحرميين ، وكان كما قالوا فى الدرجة العالية من النسك والصلاح (٢) . وعيسى بن مسكين الذى سمع بمصر من الحارث بن مسكين قالوا عنه أنه كان مستجاب الدعوة وأن ابن الأغلب أكرهه على تولى القضاء فولى له ولم يأخذ أجراً ، وكان يركب حماراً ويستقى الماء لبيته (٣) وغير هؤلاء كثير كان الزهد والرغبة فى رضا الله يحفزانهم إلى الجد فى طلب العلم الدينى وتحمل الضجر فى ذلك . فكان للعلم منهم أعظم النفع وصان الله بهم الدين وحفظ حديث رسول الله بعد الاجتهاد فى تنقيته من كل ما شابه .

٥ — أن للعصر حكمة فى نشاط الحركة العلمية فإن القرن الثالث الهجرى كان قرن الجد فى تحصيل العلم والسعى الحثيث فى تدوينه . فالعلوم الدنيوية من فلسفة وطب وغيرهما يشجع عليها الخلفاء والملوك فى كل مكان ، ويبذل أحدهم وزن الكتاب ذهبا لمترجمه كما كان يفعل المأمون ، والعلوم الدينية يدفع التقى والورع أصحابها إلى إذاعتها وصيانتها لأن الوازع الدينى كان قد ضعف فاحتاج الناس إلى التذكير ، والمذاهب الجامحة شاعت فاحتاجت

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ١٣٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

الحقائق أن تجلى وتجرد مما علق بها . فكان ما عرفت من الجهد الشاق فى طلب الصحيح من الأحاديث وتدوين الفقه وغير ذلك .

★ ★ ★

أنواع العلوم

لم تزد أنواع العلوم بمصر فى عهدالدولة الطولونية عماكانت عليه قبل هذا العهد فهى

١ — الحديث : وقدكان رائجاً بمصر كل الرواج وكانت مصر بسببه مقصد طلابه من كل الأقطار يرحل إليها أهل المشرق من أقصاه كبخارى وسمرقند وبلاد الترك، وأهل المغرب من الأندلس والمغرب الأقصى فيجىء إليها القرطبي والغرناطي والطنجى وغيرهم ، يقصدونها إما عامدين ليبقوا بها مدة يتزودون فيها من حديث رسول الله المروى عن صحابته الذين نزلوا مصر منذ الفتح الإسلامى ، أو يمرون بها فى طريقهم إلى الحج فيلقون رجال الحديث ويكتبون عنهم ما يمكنهم أن يكتبوه . وكذلك يفعلون وهم عائدون إلى بلادهم بعد حجهم. وقد علمت فى الفصل الماضى أن رجال السنة الموثوق بهم قد استفادوا من رجال الحديث بمصر وعول كل منهم فى تدوين سنده عليهم ، كالبخارى والنسائى وأبى داود وغيرهم .

٢ — الفقه : زاد فيه عنصر جديد هو رجال الحنفية، فقد كانت مصر منذ عهد بعيد لا تعرف غير مذهب الإمام مالك ، ثم عرفت مذهب الشافعى بعد رحلته إلى مصر على رأس المائتين ، فكثر أتباعه بعد ذلك وصاروا قوة لا يستهان بها أمام أصحاب مذهب مالك الذين بقوا حيناً لا يعرفون لهم نداً بمصر. وكان مذهب أبى حنيفة غير شائع بمصر حتى عرفه الأهلون من رجال القضاء الذين يوليهم الخلفاء العباسيون قضاء مصر، فعرف هذا المذهب منذ ذلك وصار له بها أتباع . ولم نكن نستطيع فى العهد الذى سبق الدولة الطولونية أن نعد منهم كثيرين ولكننا فى العهد الطولونى نستطيع أن نذكر منهم؛ بكار ابن قتيبة (٢٧٠) وأحمد بن أبى عمران (٢٨٥) والطحاوى (٣٢١) الذى يعد إمام المصريين فى هذا المذهب ، وأبا جعفر التل وغيرهم .

٣ — التاريخ : فى هذا العصر كان بمصر قصاص ومؤرخون خلفوا آثاراً عظيمة وإن لم تصل إلينا ، فمن المؤرخين عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسى صاحب

التاريخ على السنين ولد بمصر ومات بها سنة ٢٨٩. (١) ومنهم ابن دحية الحسن بن قاسم، كان إخبارياً (١) . وله فى الأخبار مصنفات ، مات بمصر سنة ٣٢٧ وقد نيف على الثمانين ومنهم الإمام الطحاوى أحمد بن محمد بن سلامة الفقيه الحنفى ، وله مؤلفات فى عصور كثيرة منها فى التاريخ « التاريخ الكبير » . مات سنة ٣٢١ . (٣)

وعاش بمصر من القصاص أبو الحسن على بن محمد بن أحمد الواعظ البغدادى ثم المصرى قال عنه ابن كثير : ارتحل إلى مصر فأقام بها وعرف بالمصرى وكان له مجلس وعظ عظيم ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث والوعظ والزهد مات سنة ٣٣٨ وله سبع وثمانون سنة (٣) .

★ ★ ★

٤ — النحو : أما النحو فإننا بمراجعة كتاب بغية الوعاة للسيوطى يمكننا أن نعد كثيرين من علماء النحو فى هذا العصر بمصر ، على حين نرى السيوطى نفسه فى كتاب حسن المحاضرة وقد تصدى لحصرهم يذكر رجالا قبل عصر الطولونيين ثم ينتقل إلى من بعدهم فيترك فجوة كبيرة وثلمة واسعة .

وقد استعنا بالصبر فى مراجعة كتاب البغية فوجدنا السيوطى قد ذكر كثيرين فى عصر الطولونيين نذكرهم على الترتيب :

١ — الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاّد روى كتب اللغة والنحو وكان نحوياً مجوداً أصله من البصرة ونشأ بمصر ولم يكن شىء من كتب النحو واللغة قبله بمصر. أخذ عن المهلبى تلميذ الخليل ثم عن الخليل نفسه ثم ناظر أستاذه المهلبى ولم يكن من الحذاق فغلبه فقال المهلبى له : لقد نقيت بعدنا الخردل ، كناية عن توفيق ولاّد وكثرة تنقيبه وصبره على البحث مات سنة ٢٦٣ (١) .

٢ — محمد بن حسان النحوى : قال بن يونس فى تاريخ مصر كان نحوياً مجوداً روى

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٨ ، ٣١٩ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) البغية ص ٤٠٥ .

عن أبي زرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحاق . مات سنة ٢٧٢ (١) .

٣ — أحمد بن جعفر الدينورى : أحد النحاة المبرزين أخذ عن المازنى كتاب سيبويه بالبصرة وعن المبرد ، وكان يخرج من دار ثعلب وهو جالس على بابها فيتخطى ثعلباً وطلبته ليتوجه إلى المبرد فيقرأ عليه وكان ثعلب يعاتبه فلا يلتفت إليه . دخل مصر فلما دخل إليها الأخفش الصغير عاد إلى بغداد فلما رجع إليها الأخفش عاد هو إلى مصر. صنف المهذب فى النحو . وضمائر القرآن ومات سنة ٢٨٩ (٢) .

٤ — محمد بن ولاّد التميمى : أخذ بمصر عن أبى على الدينورى ثم رحل إلى العراق وأخذ عن المبرد وثعلب ، وله كتاب فى النحو سماه « المنمق » مات بمصر سنة ٢٩٨ (٣) .

٥ — محمد بن عبد الله المعروف بالملطى : قال ابن يونس فى تاريخ مصر: كان نحوياً يعلم أولاد الملوك النحو . مات سنة ٣٠٣ هـ (٤) .

٦ — يموت بن المزرّع : نحوى أديب راوية ذكره الزبيرى فى نحاة مصر ، أخذ من المازنى وأبى حاتم السجستانى والأصمعى ، وكان من مشايخ العلم والشعر إخبارياً حسن الآداب . مات سنة ٣٠٤ (٥) .

٧ — الأخفش الأصغر : أبو الحسن على سليمان كان عالماً روى عن المبرد وثعلب واليزيدى وأبى العيناء . شرح كتاب سيبويه وألف كتاب الأنوار وكتاب التثنية والجمع وكتاب المهذب . قدم إلى مصر سنة ٢٨٧ وخرج إلى حلب سنة ٣٠٦ ومات ببغداد سنة ٣١٧ (٦).

٨ — محمد بن موسى الواسطى : قال ابن يونس : قدم إلى مصر وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن . مات بمصر سنة ٣٢٠ (٧) .

٩ — محمد بن إسحاق بن أسباط الكندى : مصرى نحوى قال الزبيدى : أخذ عن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٣) البغية ص ١١٢ .

(٤) البغية ص ٦٠ .

(٥) البغية ص ٤٢٠ .

(٦) البغية ص ٣٣٨ .

(٧) البغية ص ١٠٩ .

الزجاج وله كتاب فى النحو سماه « العيون والنكت » . وقال ياقوت : نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر ، وكان شيخ أهل الأدب ، وله تقدم فى المنطق وعلوم الأوائل وله فى النحو » المغنى » .

لم يذكر السيوطى فى البغية ولا ياقوت فى معجمه تاريخ وفاته حتى نهتدى به إلى عده ن رجال هذا العصر ولكننا نظرنا فوجدنا أنه كان تلميذ الزجاج والزجاج مات سنة ٣١١هـ وهو تاريخ قريب من عهد الدولة الطولونية فصح فى نظرنا كون الرجل من رجال هذا العصر .

★ ★ ★

لا نعلم أن شيئاً من الفلسفة والعلوم الأخرى كان يدرس بمصر إلى ذلك العهد فلنحمد الله على خلوص الثقافة المصرية للعلم والدين حتى نهاية العصر الطولونى.

تراجم بعض العلماء

١ ـ أبو عبد الرحمن النسائى (١)

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن على النسائى الحافظ ، كان أعلم أهل زمانه بالحديث وله كتاب السنن ، سكن مصر وانتشرت فيها تصانيفه وأخذ عنه الناس .

قال محمد بن إسحاق الأصبهانى : سمعت مشايخنا بمصر يقولون : إن أبا عبد الرحمن فارق مصر فى آخر عمره وخرج إلى دمشق فسئل عن معاوية وما روى عن فضائله فقال : أما يرضى أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟!! وهذا القول منه من أثر التشيع فيه ، فما زال أهل دمشق يدفعون فى حضنه حتى أخرجوه من المسجد ، وفى رواية أخرى يدفعون فى خصييه وداسوه ، فحمل إلى الرملة فدفن بها (الرملة من أرض فلسطين) وقيل إنه لما امتحن هذه المحنة بدمشق قال احملونى إلى مكة فحمل إليها وتوفى بها وإنه مدفون بين الصفا والمروة .

صنف كتاب « الخصائص » فى فضل على وأكثر روايته فيه عن ابن حنبل ويقال فى سبب تأليفه : أنه لما دخل دمشق فوجد أكثر الناس بها منحرفاً عن على أراد أن يهديهم الله بهذا الكتاب .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١ ، شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣٩ .

والنسائى نسبة إلى نسا وهى بلدة بخراسان .

توفى سنة ٣٠٣ هـ .

٢ — منصور التميمى (٢)

هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى المصرى الفقيه الشافعى الضرير أصله من رأس عين بالجزيرة وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعى، وله مصنفات فى المذهب منها : الواجب ، والمستعمل، والمسافر، والهداية . ولا يوجد منها الآن شيء وله شعر جيد سائغ منه قوله :

عاب التفقه قوم لا عقـــول لهم وما عليــه إذا عابوه من حــذر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ومن هنا أخذ المعرى قوله :

والنجم تستصغر الأبصــــــار رؤيته والذنب للطــرف لا للنجم فى الصغر

ومن شعره أيضاً :

لى حيلــــــة فيمن ينـــــ ــــمْ م وليس فى الكذاب حيلـــــــة
من كان يخلـــق ما يقـــــــــو ل فحيلتى فيـــــــه قليلـــــة

وقوله :

الكلـــــــب أحســـن عشرة وهـــو النهايـــة فى الخساســـــهْ
ممن ينـــــازع فى الريـــــــا سة قبـــل أوقات الرياســـــــة

قدم مصر وسكنها ، وكان فقيهاً جليل القدر ، متصرفاً فى كل علم شاعراً مجيداً لم يكن فى زمانه بمصر مثله ، وكان من أكرم الناس على قاضى مصر أ عبيد حتى كانت بينهما الجفوة بسبب مسألة الحامل المطلقة ثلاثاً .

وحكاية ذلك نوردها ، لأن فيها ذكراً لأسماء كثيرين من العلماء بمصر فى هذا العصر . قالوا : كان لأبى عبيد القاضى فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم خلا عشية يوم الجمعة فإنه كان يخلو فيها بنفسه ، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور هذا وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان ، وعشية يخلو فيها بالسجستانى ، وعشية يجعلها للنظر مع الفقهاء عامة .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٥ وشذرات الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ .

فجرى بينه وبين منصور فى بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثاً ووجوب نفقتها فقال أبو عبيد : زعم قوم أنه لا نفقة لها فى الثلاث وأن نفقتها فى طلاق غير الثلاث ، فأنكر ذلك منصور وقال : قائل هذا ليس من أهل القبلة . ثم انصرف منصور وحكى الخبر للطحاوى فحكاه الطحاوى لأبى عبيد فأنكره وبلغ منصوراً فقال ، أنا أكذبه . واجتمع الناس عند القاضى أبى عبيد وقد تواعدوا لحضور ذلك المجلس : فلما حضروا لم يتكلم أحد فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحداًيدخل على : ما أريد منصوراً ولا نصاراً ولا منتصراً أولئك قوم عميت بصائرهم كما عميت أبصارهم ، يحكون عنا مالم نقل ، فقال منصور : قد علم الله الكاذب ونهض فلم يأخذ بيده أحد غير أبى بكر بن الحداد .

زاد الأمر بين منصور والقاضى وتعصب الأمير ذكاء وجماعة من الجند لمنصور وتعصب للقاضى جماعة ، وشهد محمد بن الربيع الجيزى على منصور بكلام سمعه منه يقال إن منصوراً حكاه عن النظام فقال القاضى : إن شهد عليه آخر بذلك ضربت عنقه .

مات منصور سنة ٣٠٦ ه ولم يحضر القاضى الصلاة عليه خوفاً على نفسه من الجند ويروى أن منصوراً قال فى مرض موته

قضيت نحْبى فسر قـــــــــــوم — حمقى بهم غفلـــــــةٌ ونـــــــوْم
كأن يـــــــــــــومى عـــلى حتْمٌ — وليس للشامتين يــــــــــــــوم

٣ — الطحاوى (١)

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى الفقيه الحنفى . انتهت إليه الرياسة لأصحاب مذهب أبى حنيفة بمصر ، وكان شافعى المذهب يقرأ على المزنى فقال له يوما : والله لاجاء منك شيء فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى ابن أبى عمران الحنفى واشتغل عليه فلما صنف مختصره قال : رحم الله أبا إبراهيم «يعنى المزنى» لو كان حيا لكفر عن يمينه .

وكان الطحاوى ابن أخت المزنى ، قال الشروطى : قلت للطحاوى : لم خالفت خالك واخترت مذهب أبى حنيفة قال : لأنى كنت أراه يديم النظر فى كتب أبى حنيفة فلذلك انتقلت إلى مذهبه

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ وشذرات الذهب ج ٢ ص ٢٨٨ .

صنف الطحاوى كتبا مفيدة منها : أحكام القرآن ، اختلاف العلماء ، معانى الآثار ، الشروط ، وله تاريخ كبير ، وبيان السنة ، والمحاضر والسجلات ، شرح مشكل حديث رسول الله (١) .

توفى بمصر سنة ٣٢١ ودفن بالقرافة وكانت ولادته سنة ٢٣٨ .

والطحاوى : نسبة إلى طحا وهى قرية بصعيد مصر والأزدى نسبة إلى الأزد وهى قبيلة مشهورة من قبائل اليمن .

---

(١) الموجود من هذه الكتب هو معانى الآثار وبيان السنة وهما مطبوعان أما الباقى فمفقود كما ذكر ذلك فى كتاب الأعلام للزركلى ج ١ ص ٦٥ .

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الإخشيدية

من سنة ٣٢٤ إلى سنة ٣٥٧ هـ

- نبذ تاريخي
- أسباب انتعاش الأدب
- الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الإخشيدية

نبذ تاريخي عن هذه الدولة

انتهت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ كما علمت فعادت مصر ولاية عباسية كما كانت قبل هذه الدولة، وتولاها ولاة ضعفاء لم ترتق هممهم إلى ما ارتقت إليه همة أحمد بن طولون . فانقضى على مصر ثلاثون عاما وهى فى اضطراب أقل مافيه عدم استقرار الولاة بها، وهذه حال كما علمت لاتسمح باستقامة أمر ولاتنفيذ خطة إصلاح، كما يكون الشأن مع أمير يعقد عزمه على أن تكون البلاد له ولأولاده من بعده، فيدفع عنها العدوان ويوفر لها الطمأنينة ويثبت فيها الإصلاح، فتزدهر على يديه وتبين آثار الاصلاح فى كل شىء من نواحى الحياة فى البلاد .

انقضت هذه الثلاثون سنة فى اضطراب كان مظهره السياسى طمع الدولة الفاطمية القائمة بالمغرب وتطلعها إلى الاستيلاء على مصر حتى لقد وردت جيوشها إليها ودخلت الإسكندرية واستقرت فيها .

فلما ولى محمد بن طغج سمت نفسه إلى أن تكون مصر له كما فعل ابن طولون من قبله، ولا غرو فهو تركى مثله ينتهى نسبه إلى ملك فرغانة، وقد اتصل بابن طولون وخدمه وخدم ابنه خمارويه بمصر فانتفع بتجاربهما واقتدى بهما فى همتهما . كان لابن طغج أعداء كثيرون فى مصر ، وفى خارجها من قواد الدولة العباسية والأمراء المستقلين بولاياتهم ، وصاحب المغرب الذى تعلقت همته بمصر منذ سنين ، فعمل ابن طغج على التغلب عليهم .

عمل ابن طغج على كسب مودة الخليفة العباسى الراضى بالله فأهدى إليه كثيرا،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٢ .

فمنحه لقب إخشيد (١) وهو لقب آبائه فى مملكتهم ومعناه «ملك الملوك» وكذلك فعل من بعد الراضى مع المتقى فمنحه ولاية مصر ثلاثين عاما وولى ابنه أنوجور عهده من بعده ، واجتهد ابن طغج أن يحسن علاقاته بالقائم العلوى فى بلاد المغرب فكتب إليه يعرض تزويج ابنته لابنه المنصور ، فقبل القائم ذلك، فكانت هذه سياسة حكيمة قضى بها ابن طغج على أحقاد كثيرة كانت تقلق باله ، فتمكن من التفرغ لأعدائه الآخرين ، فتغلب على ابن رائق كبير أمراء الدولة العباسية الذى حارب ابن طغج بغير رضا الخليفة كما تغلب على سيف الدولة ابن حمدان الذى طمع فى الاستحواذ على بلاد الشام كلها . وبذلك استطاع أن يرد عن مصر كثيرا من الكيد الذى كان يدبر لها فيها وعن أيمانها وعن شمائلها .

خلفه محمد ابنه أنوجور ومعنى اسمه «محمود» ، ومنذ ذلك الحين قام كافور الإخشيدى بتدبير أمر المملكة ، ولم يكن لأبناء طغج شيء من الأمر .

وكان كافور سياسيا داهية عظيم الذكاء فعمل على حفظ الدولة لأبناء طغج لأن فى بقاء أمرهم بقاء السلطان له ، فخرج بابنى الإخشيد إلى الخليفة المطيع لله وأصلح أمرهما معه ، وصار يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، كما يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء حتى استقام له الأمر (٢) أقام كافور يدبر أمر المملكة باسم بنى الإخشيد إحدى وعشرين سنة ثم أقام ملكا مستقلا بنفسه سنتين وكان على ما ذكرنا من الدهاء فضمن لمصر الهدوء السياسى والانصراف إلى الإصلاح ، كما ضمن لها انتعاشا أدبيا بما كان له من نظر فى العربية والعلم والأدب (٣).

وقد انتهت الدولة الإخشيدية بموت كافور فى جمادى سنة ٣٥٧ ثم دخلت رايات المغاربة الواصلين مع جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله سنة ٣٥٨ .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٣) المصدر السابق .

أسباب انتعاش الأدب
فى الدولة الإخشيدية

إذا ذكرنا الدولة الإخشيدية فى هذا المقام فإنما نعنى كافورا الذى تولى أمرها ربع قرن من الزمان على حين لم تعمر الدولة إلا ثلاثين عاما تقريبا .

كان فى كافور تلك الصفات التى عهدناها تنعش الآداب فى كل العهود وتلك الصفات هى :

(١) الجود :

قال الذهبى : كان كافور كريما كثير الخلع والهبات . وقال أبو المظفر فى مرآة الزمان : كان كافور شجاعا مقداما جوادا يفضل على الفحول (١)

وقال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله العلوى النسابة ، ما رأيت أكرم من كافور !! كنت أسايره وهو فى موكب خفيف يريد التنزه فسقطت مقرعته ولم يرها خدمه فنزلت عن دابتى وتناولتها ثم دفعتها إليه فقال : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ماظننت أن الزمان يبلغنى حتى تفعل بى أنت هذا ، وكاد يبكى . فقلت أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ داره ودعنى فلما سرت التفت فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفى وإذا الأستاذ قد أمر بحمل مركبه كله إلى ، فكانت قيمة ذلك تزيد على خمسة عشر ألف دينار (٢) .

ويكفى أن يكون المتنبى قد قصد كافورا والمتنبى كما نعلم كثير المطامع وقد عوده سيف الدولة العطاء الكثير ، وكانت همته كذلك عالية حتى لقد ترفع عن مدح الصاحب ابن عباد مع أنه قد جعل له فى نظير ذلك أن يشاطره ماله . ولقد بلغ من طمع المتنبى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٤ .

فى كافور وعرفانه بقدر مماحته أن تجاوزت مطامعه المال والخلع إلى طلب الولايات فأشار إلى ذلك فى قوله .

وليس بعيدا أن يزورك راجــل   فيرجع ملكا للعراقين واليــا

(٢) النظر فى العلوم وحب الأداب :

قال الذهبى : كان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم (١) وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان فطنا ذكيا جيد العقل ذكر فى «العيون الدعج فى دولة آل طغج» (٢) أن كافورا لما وقف على قول المتنبي:

فجاءت بنا إنسان عين زمانه   وخلت بياضــا خلفها ومآقيا
قواصد كافور توارك غــيره   ومن قصد البحر استقل السواقيا

سر وطرب استحسانا ثم قال : ألا إن أبا الطيب هجن القصيدة بقوله فى أولها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيــا

وما ينبغى لمن قصد الملوك فى نجاح حاجة أن يكون أول مايخاطبهم به مثل هذا وقال ابن خلكان (٣) :

حكى عن المتنبي أنه قال: كنت إذا دخلت على كافور وأنشدته يضحك إلى ويبش إلى أن أنشدته :

ولما صــار ود النــاس خبــاً   جزيت على ابتســام بابتســام
وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمى أنه بعض الأنـــــام

قال فما ضحك بعدها فى وجهى إلى أن فارقته فعجبت من فطنته وذكائه .

وكانت مجالس كافور تحفل بالعلماء والأدباء ويجرى بينهم من الفكاهات والنوادر الأدبية مايدل على رغبة هذا الرجل فى الأدب والعلم ورجالهما . فمن ذلك (٤) :

---

(١) المرجع السابق ص ٦ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

(٢) مخطوط بدار الكتب وهو مما اشتمل عليه كتاب «المغرب فى حلى أهل المغرب» لأبن سعيد المغربى .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٢ .

(٤) المصدر السابق .

دخل رجل على كافور ودعا له فقال فى دعائه : أدام الله أيام مولانا بكسر الميم من أيام ، فتحدث جماعة الحاضرين فى ذلك وعابوه فقام رجل من أوساط الناس (هو أبو إسحق إبراهيم بن عبيد الله بن حبنس النجيرمى اللغوى والأخبارى كاتب كافور) وأنشد :

لا غرو أن لحن الداعى لسيـــــدنا ... أو غص من دهش بالريق أو بهـــر
فتلك هيبته حالت جلالتهـــــا ... بين الأديب وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام من غلــط ... فى موضع النصب لا عن قلة النظر
فقد تفاءلت فى هذا لسيـــدنا ... والفأل مأثورة عن سيــد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصـــــب ... وأن أوقاته صــفو بلا كدر

ومما يروى عن مجالس كافور الأدبية أن حضر أبو القاسم بن أبى العفير الأنصارى مجلس كافور فأنشد قصيدة ميمية أولها :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام »

فقال المتنبى له : العرب لاتقول إليه غرام وإنما تقول له فقال الأنصارى تقول : إليه ولديه وله حروف الخفض ينوب بعضها من بعض ، وكان الوزيران الروزبارى وابن الفرات حاضرين فأنشد الأنصارى مرتجلا قصيدة ومنها فى التعريض بالمتنى :

لما تعرض لى بمقت حاســدى ... أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
مازال ينشـــد قائما حتى إذا ... أنشدت عارضنى لأنى قاعـــد

وكان المتنبى يجرى مع كافور فى أنشاده شعره على طريقة غير التى كان عليها مع سيف الدولة . ذلك أنه كان يقف بين يدى كافور وفى رجله خفان وفى وسطه سيف ومنطقة وكان ينشد سيف الدولة قاعدا .

(٣) وهذا سبب خاص وهو فى نظرنا دناءة أصل كافور وكونه عبدا أسود بصاص اللون مشقوق الشفة السفلى عظيم البطن ثقيل البدن لافرق بينه وبين الأمة الحبلى ، اشتراه سيده محمد الإخشيد بثمانية عشر دينارا من الزياتين ، وكان سيده الأول يربط فى رأسه حبلا إذا أراد النوم فإذا أحب تنبيهه جذبه منه لأنه لم يكن يستيقظ بالصياح . وكان غلمان ابن طغج يصفعونه فى السوق كلما رأوه فيضحك فقالوا : هذا الأسود خفيف الروح ووصفوه لسيدهم فاشتراه (١)

---

(١) شرح البازجى لديوان المتنبى ج ٢ ص ٤٧١ .

فمثل هذا إذا ملك البيض الغطاريف احتاج إلى مايرفع شأنه فى نظرهم ويحدث له هيبة فى قلوبهم ، وإذا كان السيد المنحدر من أصلاب الملوك الصيد يحتاج إلى الشعر ليعظم مكانته فى النفوس فكيف بهذا الذى عملت فى أذنه يد النخاس وكان قدره يزيد وينقص بالفلس والفلسين .

لذلك رأينا كافورا (وقد كان شديد الذكاء) قد عرف حاجة مثله إلى المدح فبذل فى سبيل الشعر كثيرا ، وقد ذكروا أنه احتال على المتنبى حتى قدم عليه مادحا ، ولولا خوفه من مطامعه لأنس إليه أكثر مما أنس ولما جعله يفكر فى ترك جواره .

وقد رأينا كافورا يدرك فى كل حين خسة أصله ، وفى قصة مسلم العلوى وبكاء كافور مايدل على أنه لم ينس قدره وقياسه إلى أقدار الناس ، لذلك كان دائبا على تكميل هذا النقص والزكاة عن هذه الرفعة التى صار إليها متخطيا الأشراف الأمجاد .

وهذه قصة أخرى يجود فيها كافور على من يذمه ، وكأنه يدرك أنه حقيق بالذم ، وأن الناس معذورون فى ذلك ، فهو يتلافى ذلك بالإحسان الذى يرضيهم عنه وينسيهم هذا القديم المزرى .

ذكروا أن واعظا بمصر قال يوما فى قصصه : انظروا إلى هوان الدنيا على الله أعطاها لمقصوصين ضعيفين : ابن بويه فى بغداد وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر وهو خصى ، فرفع قوله إليه وظنوا أنه يعاقبه فتقدم له بخلعة ومائة دينار (١) .

(٤) وهذا سبب خاص أيضا بشخص كافور وهو أن انتماءه إلى جنس السودان جعله طروبا كثير النشاط ، يفرح للقليل الضعيف من الموسيقى ، ويغتر كذلك بالمدح وهى طبيعة فى كل هذا الجنس ذكرها لهم ابن خلدون فى مقدمته ، وروى عن جالينوس أنه ذكر من خصال السود « كثرة الطرب » .

فهذا الطرب الذى يسرع إلى هذا الجنس من الناس جعل كافورا حريصا على مجالس الغناء ، وقد قالوا عنه « وله ندماء وجوار مغنيات » كما كان حريصا على مجالس الأدب ، ففى الأولى يسمع الغناء وفى الثانية يسمع الثناء وكلاهما تطرب له النفوس ونفس مثل كافور أشد طربا .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

ومن شدة طربه ما حكوا من أنه كان جالسا على تخت ملكه ، وأرباب دولته وخدامه واقفون بين يديه ، فسمع من الطريق صوت آلات وإيقاعا منسجما فحرك كتفه على إيقاع الصوت ، ففطن إلى ذلك أرباب الدولة وخشى من انتقادهم فاتخذها عادة له (١).

---

(٢) أخبار الأول ص ١٦٩ وكتاب المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ٤٨ طبع ليدن مع اختلاف بسيط فى القصة إذ الذى فى المغرب أنه كان يسير فسمع هذا الايقاع .

الشعر فى الدولة الإخشيدية

أولا – المتنبي فى مصر

١ – مع كافور (١) .

كان المتنبي ملازما سيف الدولة بحلب فجرى له ماحمله على تركه مغاضبا له؛ ذلك أنه كان يوما فى مجلس سيف الدولة وفى المجلس أبو الطيب اللغوى وابن خالويه، فتكلم المتنبي فى مسألة لغوية جرت المناقشة فيها بين أبى الطيب اللغوى وابن خالويه، فكان كلام المتنبي تضعيفا لرأى ابن خالويه فأخرج هذا من كمه مفتاحا من حديد يلوح به فى وجه المتنبي فقال له المتنبي : ويحك اسكت أنت أعجمى وأصلك خوزى فمالك والعرب فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بالمفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه فغضب المتنبي وزاد فى غضبه أن سيف الدولة لم ينتصر له لا قولا ولا فعلا فكان ذلك أحد أسباب مفارقته له .

رحل المتنبي من حلب سنة ٣٤٦ فقصد دمشق لأنها أقرب بلد ليست من مملكة سيف الدولة ، وكانت تابعة لمملكة مصر ، وكان بها يهودى يسمى ابن ملك من قبل كافور الإخشيدى ، فطلب من المتنبي أن يمدحه فلم يلتفت المتنبي إليه .

علم كافور بنزول المتنبي دمشق فطلب من ابن ملك أن يحمله على قصد بمصر فحمل الغضب ابن ملك أن يشى بالمتنبي عند كافور فقال له ، إن المتنبي قال إذا قصدت مصر فإنما أمدح ابن سيد كافور لا كافورا .

نبت دمشق بالمتنبي فسار إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسن بن طغج هدايا نفيسة ، وخلع عليه وحمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفا محلى.

وكان كافور يقول لأصحابه أترونه يبلغ الرملة ولا يقصدنا ، وبلغ المتنبي أنه حاقد

---

(١) هذا البحث مستق من شرح ديوان المتنبي لليازجى ج ٢ ص ٤٧١ ، وكتاب الوفيات ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

عليه، ثم كتب كافور إلى صاحب الرملة يطلب منه المتنبي فسار إليه، فلما قدم المتنبي على كافور أمر له بمنزل ووكل به جماعة وأظهر التهمة له وطالبه بمدحه فلم يمدحه فخلع عليه فمدحه وكان أول ما مدحه به هذه القصيدة :

كفى بك دار أن نرى الموت شافيا وحسب المنـايا أن يكن أمانيـا

وقد مرت ملاحظة كافور على هذا البيت بعد سروره من قوله :

قواصـد كافور توارك غـيره ومن قصد البحر استقل السـواقيا
فجـاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضـا خلفها ومآقيا

ثم جعل يمدحه فى مناسبات كثيرة
وقد كناه أبا المسك فى قوله :

وأمضى سلاح قلد المـرء نفسه رجاء أبى المسك الكريم وقصده

وقوله :

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزا يخضب البيض بالدم

ومدحه فى شوال سنة ٣٤٧ بقصيدة مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وفيها يقول :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحـه وإن لم أشأ تملى على وأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتغـرب

ومنها :

يضاحك فى ذا العيد كل حبيبه حذائى وأبكى من أحب وأندب
أحن إلى أهلى وأهوى لقاءهم واين من المشـتاق عنقاء معـزب
فإن لم يكن إلا أبو المسك أوهم فإنك أحـلى فى فؤادى وأعذب
وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مـكان ينبت العز طيب

وآخر ما أنشده إياه وكان ذلك فى شوال سنة ٣٤٩ ولم يلقه بعده ، قصيدته التى شابها بالعتب ومطلعها :

منىً كن لى أن البياض خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب

ومنها :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة ... وإن كان قربا بالبعاد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب
أقل سلامى حب ماخف عنكمو ... وأسكت كيما لا يكون جواب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطاب

ثم أقام المتنبى بعد ذلك سنة لايلقى كافورا غضبا عليه، لكنه يركب فى خدمته خوفا منه، ولا يجتمع، به واستعد للرحيل وجهز كل ما يحتاج إليه، وقال فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التى هجا فيها كافورا وفى آخرها:

من علم الأسود المخصى مكرمة ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود

وقد أكثر المتنبى من هجاء كافور بعد خروجه من مصر فأتى فى ذلك بمعان كلها أبكار فمن ذلك قوله:

تظن ابتساماتى رجاء وغبطة ... وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى ... رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لاتدرى ألونك أسود ... من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويذكرنى تخييط كعبك شقه ... ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا ... بما كنت فى سرى به لك هاجيا
فأصبحت مسرورا بما أنا منشد ... وإن كان بالإنشاد هجوك غاليا
فإن كنت لا خيراً أفدت فإننى ... أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... ليضحك ربات الحداد البواكيا

وقوله:

أخذت بمدحه فرأيت لهوا ... مقالى للأحيمق يا حليم
ولما أن هجوت رأيت عيا ... مقالى لابن آوى يالئيم

وقد هجا مصر والمصريين من أجله فقال:

سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

وقال :

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

والبيت الذى يجمع هجاء كافور والمصريين معا هو قوله :

وقد ضل قوم بأصنامهم فأما بزق رياح فلا (١)

٢ – المتنبى مع أبى شجاع فاتك

أبو شجاع رومى أخذ صغيرا من بلاد الروم فتعلم الخط بفلسطين ثم أخذه الإخشيد من سيده صاحب الرملة كرها بلا ثمن فأعتقه سيده فصار عند الإخشيد حرا فى عداد المماليك . نشأ كريم النفس بعيد الهمة شجاعا كثيرا الإقدام ولذلك لقب بالمجنون.

كان رفيق كافور فى خدمة الإخشيد فلما مات سيده وتقرر كافور فى خدمة ابن الإخشيد أنف فاتك أن يقيم فى مصر كيلا يضطر إلى الركوب فى خدمة كافور لأنه صار أعلى منه مرتبة ، فانتقل إلى الفيوم وكانت إقطاعا له ولكنه استوخمها فاعتل جسمه بها وأحوجته العلة إلى دخول مصر فدخلها وأبو الطيب المتنبى بها ضيفا على كافور ، وكان المتنبى يسمع بكرم فاتك لكنه لايقدر على مدحه خوفا من كافور. ثم التقيا مصادفة بالصحراء وجرت بينهما مفاوضات فلما رجع فاتك إلى داره حمل لأبى الطيب من ساعته هدية قيمتها ألف دينار ثم أتبعها بغيرها – فاستأذن المتنبى كافورا أن يمدح فاتكا فأذن له فمدحه فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٨ بقصيدته المشهورة :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وعنها قوله :

لايدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعال
لا وارث جهلت يمناه ما وهبت ولا كسوب بغير السيف سآل

---

(١) يقول عهدنا فى الناس من ضل فعبد الصنم معتقدا أنه ينفعه ولم نر من فتن بزق منتفخ بالريح . يقرع المصريين على خضوعهم لكافور وهو ليس فى نظر المتنبى إلا قربة مملوءة هواء .

قال الزمان له قولا فأفهمه | إن الزمان على الإمساك عذال
تدرى القناة اذا إهتزت براحته | أن الشقى بها خيل وأبطال
كفاتك ودخول الكاف منقصة | كالشمس قلت وماللشمس أمثال

ثم توفى فاتك فى شوال سنة ٣٥٠ وكان المتنبى قد خرج من مصر فلما سمع بوفاته قال يرثيه :

الحزن يقلق والتجمل يردع | والدمع بينهما عصى طيع
يتنازعان دموع عين مسهد | هذا يجىء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبى شجاع نافر | والليل معي والكواكب ظلع

ومنها :

كنا نظن دياره مملوءة | ذهبا فمات وكل دار بلقع
وإذا المكارم والصوارم والقنا | وبنات أعوج كل شىء يجمع

وقال بالكوفة يرثيه ويذكر خروجه من مصر

لا فاتك آخر فى مصر نقصده | ولا له خلف فى الناس كلهم

ثانياً — شعراء الدولة الإخشيدية

يهمنا أول الأمر أن نحصى من عرفنا من كل من قال شعراً فى هذه الدولة، وذلك لأننا نجد فى كتب التاريخ والأدب نقصا كبيرا وتقصيرا زائدا فى إحصاء شعراء هذه الدولة. وليس هذا أمرا خاصا بها بل هو عام فى كل الدول التى قامت بمصر إلى عهد هذه الدولة. وليس هذا أيضا خاصا بالشعراء بل هو يشمل الكتاب والعلماء، كما لمست ذلك فيما كتبنا عن العهود التى سبقت هذا العصر بمصر، اللهم إلا فيما يتعلق بعلماء الدين فقد كانت بهم عناية خاصة أظهرت أسماءهم وأفصحت عن آثارهم وجميع أحوالهم فطالت بذلك تراجمهم فى الكتب، على حين يضن على الكاتب أو الشاعر بذكر تاريخ وفاته أو شىء عن نشأته أو برواية مقدار كاف من شعره. وأكثر من عرفنا بل كشفنا من شعراء هذه الدول إنما عرفناه من بعض قوله. وسترى فيمن نحصيهم من شعراء الدولة الإخشيدية كثيرا منهم إنما استدللنا على نسبتهم لهذه الدولة بأشياء عرضت فى شعرهم أو ملابسات اهتدينا بها إلى ذلك؛ كأن يقال فى عرض ذكر أحدهم أنه كتب إلى فلان يستهديه أو يدعوه، ويكون فلان هذا قد عرف عندنا بأنه من شعراء هذه الدولة

بطريق مثل هذا. وهكذا فإذا قمنا بسرد أسماء من قالوا الشعر فى هذه الدولة فليس عملنا هذا بغير ذى بال ، بل هو يهم الأديب جدا لأنه يستطيع أن يضع يده على شعراء دولة كان لايجد فى الكتب نسبتهم إلى تلك الدولة. فعملنا هذا إنما هو جهد وتوفيق نحمد الله عليه. وقد تلافينا مافات الثعالبى وغيره ممن كان همهم اختيار شعر جيد للشاعر فحسب ، كأنهم كانوا يظنوننا عائشين معهم نعرف مثلهم كل مايعرفون عن شعراء عصرهم .

وهذا بيان نحصى فيه أحوال ستة عشر شاعراً من شعراء هذه الدولة ذاكرين تاريخ الوفاة لمن وقفنا له على تاريخ وفاة مبينين طريقة الاستدلال على كونه من شعراء هذه الدولة :

١ — أحمد بن محمد بن إسماعيل الرسى ، المعروف بابن طباطبا والمترفى فى سنة ٣٤٥ ، كما فى ترجمة ابن خلكان له فى الوفيات ج ١ ص ٣٩ وفى سنة ٣٥٢ ، كما فى ترجمة المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ٥١ .

٢ — القاسم بن أحمد بن طباطبا ، لقيه صالح بن رشدين ، وصالح هذا إخشيدى كما ستعرف .

٣ — أبو الفضل جعفر بن الفرات ٣٩١ ، ترجم له ابن خلكان ج ١ ص ١١٠ .

٤ — صالح بن رشدين ، قال عنه فى اليتيمة« صحب المتنبى وروى شعره»

٥ — سعيد قاضى البقر ، فى المغرب ج ٤ ص ١٠٣ « أنه كان من شعراء الإخشيد »

٦ — أحمد بن عصام أو أحمد بن أبى العصام ، وفى المغرب ج ٤ ص ١٠٤ « أنه كان من شعراء الإخشيد».. وفى اليتيمة ج١ ص ٣٦١ أنه رثى صالح بن رشدين.

٧ — الحسن بن محمد السهواجى (١) ، قال عنه فى اليتيمة ج ١ ص ٣٥٥ أنه كتب إلى صالح بن رشدين يستهديه مشروباً فى يوم نيروز .

٨ — أحمد بن صدقة ، قال عنه فى اليتيمة ج ١ ص ٣٨١ « كتب إلى صالح بن رشدين يستهديه » .

---

(١) السهواجى هذا غير السهواجى المترجم له فى فوات الوفيات ج ١ ص ١٧٠ وفى معجم الادباء ج ١ ص ١٦٠ فإنه فاطمى مات سنة ٤٠٠ واسمه الحسين لا الحسن أما صاحبنا الحسن فإننا لم نطلع له على ترجمة يذكر فيها تاريخ وفاته ولا نعلم عنه إلا ما ذكره صاحب اليتيمة .

٩ — أبو تميم سـليمان بن جعفر ، ذكر عنه فى اليتيمة ج ١ ص ٣٥٧ عـلاقات له بصالح بن رشدين .

١٠ — الحسن بن على الأسدى كاتب السر ، فى اليتيمة ج ١ ص ٣٦٨ أنه كتب إلى أحمد ابن محمد بن إسماعيل يطلب منه كتابه المعروف بالأنيس ، وأنه كانت بينه وبين أبى الحسن جنبك الأخشيدى مودة .

١١ — إبراهيم بن أحمد الرسى ، هو أخو القاسم المذكور فى هذا البيان رقم ٢ .

١٢ — القاسم بن أبى العفير الأنصارى ، ناقش المتنبى فى مجلس كافور وقد مر بك ذلك.

١٣ — محمد بن الوزير الحافظ . فى يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٥ أنه أهدى إلى الأخشيد خاتماً .

١٤ — صالح بن مؤنس ، مدح صالح بن رشدين وهاجى بن أبى الجوع (اليتيمة ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٨) .

١٥ — العباس بن البصرى ، خدم أنوجور بن الإخشيد كما ذكر صاحب كتاب الديارات ص ١٣٠ .

١٦ — عبد الله بن محمد بن أبى الجوع ، أحد رواة المتنبى وأصحابه كما ذكر صاحب اليتيمة ج ١ ص ٣٥٣ .

ثالثاً — تراجم بعض شعراء الدولة الإخشيدية

١ — أحمد بن طباطبا :

من كتاب « مشارع الصفا فى حلى الشرفا » أنه أبو القاسم أحمد بن إسماعيل الرسى ابن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ... بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان من السرور والنبل وجلالة القدر على ما هو معروف مشهور ، وله أدب واسع وشعر فى الزهد والغزل مليح . وكانت نقابة الطالبين بمصر إليه .

ومن مليح شعره قوله :

لعمرك إنى للثريا لحاسـد ... وإنى على ريب الزمان لواجد
أيبقى جميعاً شملها وهى ستة ... وأفقد من أحببته وهو واحد

وقوله :

أأترك الشرب والأنواء دائمة والطل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان فى طرب والورد فى العود مطوى ومنشور
لا والتى تركتنى يوم فرقتها كأنما الرمل فى عينى منثور

وقوله :

قل للذى حسنت منه خلائقه باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفترقا يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقاً يودعه قبل الفراق فآلى : لا يفارقه

وقوله :

عيرتنى بالنوم جورا وظلما قلت : زدت الفؤاد هما وغما
اسمعى حجتى وإن كنت أدرى أن عذرى يكون عندك جُرْما
لم أنم لذة ولا نمت إلا طمعاً فى خيالكم أن يلما

وقوله : (١)

قالت : لطيف خيال زارنى ومضى صف ما به لى ولا تنقص ولا تزد
فقال : أبصرته لو مات من ظمأ وقلت قفْ عن ورود الماء لم يرد
قالت : صدقت. الوفا فى الحب عادته يابرد ذاك الذى قالت على كبدى

قيل وكان ممن حضر العقد لأبى القاسم أونوجور بن الإخشيد بالفسطاط وأنه قال فى ذلك — وقد طمع فى الأمر أبو المظفر بن طغج وغيره وتشذبت الأهواء :

مات إخشيدنا فها نحن فى أمر مريج وكل كف تمد
كلكم طالب بجد وحرص إنما الشأن أن يوافق جد
يا ولاة الأمور إن لم تنيبوا لانتظام ، فقد تناثر عقد

ومن قوله فى الغزل :

بنْتُمْ وخلتم أننى متغّيرٌ بالبين عند ترحل الأظعان
لا والذى جعل الدموع بمقلتى أبداً تجود بعارض هتان

---

(١) قال ابن خلكان ج ١ ص ٤٠ إن صاحب اليتيمة روى هذا الشعر له وإن كان قد نسبه فى أول الكتاب لذى القرنين الحمدانى .

ما اخترت تبديـل المودة ساعة | بعد الذى هجر الحمى وجفـانى
أنا ذاك لا عهدى يغير بالنوى | أبدا ولا وجهى يميـل لثـان
وإذا وثقت بود من أحببتـه | فبعاده ودنـوه سيـان

مات سنة ٣٥٢ على حسب رواية المغرب وسنة ٣٤٥ على حسب رواية ابن خلكان وطباطبا بفتح الطاءين لقب جده إبراهيم وقيل له ذلك لأنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء فقال يوماً لغلامه وقد قال له أجئ بدراعة لاطباطبا يريد قباقبا فبقى عليه لقباً . والرسى نسبته إلى بطن من بطون السادة العلوية .

٢ — صالح بن مؤنس :

قدمنا الدليل على أنه إخشيدى بكونه معاصراً لابن رشدين وابن أبى الجوع . وليس لدينا من دليل على إخشيديته غير هذا .

أورده صاحب اليتيمة وأكثر من رواية شعره، وهو يدور على الغزل وذكر الخمر شأن شعراء هذا العصر، وقد خالط شعره هجاء لابن أبى الجوع ويفهم من قول صالح أن مهجوه ناقضه ولكن لم نر فى المروى من شعر ابن أبى الجوع شيئاً من هذه المناقضة ولا ندرى سبب هذا التهاجى .

قال فى صالح بن رشدين متغزلا وان لم يعنون الثعالبى أقوال صالح فى صالح بهذا العنوان لكننا نرى ما قاله فى صاحبه غزلا صرفاً . قال .

بك يا صـالح أرضى | عن زمانى حين أسخـط
فأدم لى الوصـل إنى | بك فى العالم أُغبـط
أنت والرحمن مـذ كنـ | ـت عـلى قـلبى مسـلط
ومصـيب أنا فى الحـ | ـب ومن بعـدى يغـلط

وقال فيه أيـضاً :

يفـديك بالمهجـة يا صـالح | من كل ما تكرهـه صالـح
فانت غصن صـيغ من درة | على ذراه قمـر لائح

وقال فيه بديها :

شربنا مثل ماء الـور | د فى الطيب على الـورد
ونادمت ابن رشديـن | فما حـدت عن الرشـد

فتى كالبدر فى الرفعة والإشراق والسعد
كأنى منه فى الجنة لو أظفر بالخلد

وقال فى الخمر :

سأدمن شرب الراح مادمت باقيا وأمدح من شرّابها كل مدمن
فما تكمل الأوقات إلا بقهوة ولا تحسن الأيام إلا لمحسن

وقال فى غلام صوفى :

عشقت صوفيا له شاهد يقيم عذرى عند عذالى
قد قصد الله بأحواله فليته يقصد فى حالى

وقال متغزلا :

بعين الله أنت فإن عينى إذا ما غبت دامية الجفون
كأنك مهجتى فإذا تدانى فراقك حم لى ريب المنون

وسأله بن رشدين أن يسير معه إلى القاش فقال مرتجلا :

يا آمرى بالمسير فى لجج النيل كأن سخرت لى الريح
ماجمد الماء لى فأركبه كلا ولا صامت التماسيح

وله فى العناق :

لى سيد ما مثله سيد تصدت الحمى له فاشتكى
عانقته عند موافاتها والأفق بالليل قد احلولكا
فجاءت الحمى كعاداتها فلم تجد ما بيننا مسلكا

وقال فى البنفسج والورد :

بنفسج جاء فى حداد ووردنا فى معصفرات
فاشرب على مأتم وعرس جلا جميعاً عن الصفات

وقال يمدح بعض آل الفرات :

قد مر عيد وعيد ما اخضر لى فيه عود
وكيف تخضر عودى والماء منه بعيد
يامن له عدد المجد كلها والعديد

آل الفــــــرات نداهــــــم ... على الفـــرات يزيـــــــد
وأنت فضلك فيهــــــــم ... عليك منـــــــه شهـــود
وكل يـــــــوم لغـــيرى ... من راحتيـــــك مـــدود
هل لى إلى الرزق ذنـــــب ... إن كان منــــــه صـــدود ؟
ما النــــــــاس إلا شقّى ... فى دهــــــرنا وسعيـــد

وقال يهجو عبد الله بن أبى الجوع من قصيدة أولها :

هاجيك فيما قاله مــــــادح ... فأنت فى صفقتك الرابــــح
وما يقوت الفيــــلَ من بقة ... أمثالها فى فمـــــه طائـــح
ورب من ترفعـــه خزيـــة ... ميسمهــــا فى وجهــه لائح
ففخر عبد الله فى النـــاس أن ... يقول قد ناقضنى صالـــــح
يابن أبى الجوع قدحت امــرأ ... من فكره يحترق القــــادح
لقد تعرضت على غـــــــرة ... قريحة صاحبهــــا قـــارح
فاركب ذلول الأمــــر أو صعبه ... فى فقد جدبك المــــــازح
وعق من أهلك من شئتــــــه ... فإنما أنت له فاضـــــــــح
واغـــد بما تهــوى ورح إننى ... غاد بما تكرهه رائــــــــح
يأيها الصعـــــو الذى لم يزل ... يرقص حتّى دقه الجــارح (١)

وقال فيـــه أيضاً :

ياذا الذى عن رشده قد عمى ... لو كنت جلدا حدت عن أسهمى
لو كنت شهماً حازماً ضابطا ... لما تقلبت على الشيهم (٢)
ما أنت فى فعلك إلا كمـــن ... تطعّم الريق مــــــن الأرقم
كيف يخوض البحر من مثلـــه ... يغرق فى دائرة الــــــدرهم
فاثبت أو اجزع كل ذا واحـــد ... لا عاصم اليــــوم لمستعصم
استقدرَ الله عـــــلى كل مـــا ... ألصـــق منك الأنف بالمرغم
تجاسر الجــــوع على صالح ... تجاسر الكلب عــلى الضــيغم
وفاه باسمى مفصحاً بعدمـــا ... تركتــه أسكت من أبـــكم

(١) الصعو : العصفور الصغير .
(٢) الشيهم ذكر القنافذ أو ماعظم شوكه من ذكرانها .

وقال قوم قد غدا شاعرا   والشعر لا يعرف للمفحم
فقلت لا لوم على مثله   من أخذ الصفع قفاه حمى
أنا الذى ألبسته حسرة   بما جرى من ذكره فى فمى
والله لا يجهل من بعدها   وفى قفاه للردى ميسمى
أبِنْ به من ميسم واضح   يضىء كالغرة فى الأدهم
فليت شعرى كيف رام العلا   وهم أن يرقى بلاسلم

٣ ـ الحسن بن على الأسدى :

يلقب بكاتب السر ، كتب إليه أحمد بن طباطبا المتقدم يطلب منه كتابه الذى ألفه وسماه الأنيس ، فأنفذ إليه الجزء الأول منه وكتب إليه :

قد بعثنا بمؤنس لك فى الوحشة   ة خل يدعى كتاب الأنيس
فيه ما يشتهى الأديب من العلـ   ـم وفيه جلاءهم النفوس
فيه ماشئت من بدور معان   ضاحكات إلى وجوه شموس
والنفيس البهى ما زال يهدى   كل حين إلى البهى النفيس

فلما قرأ ابن طباطبا رقعته كتب إليه على ظهرها ارتجالا :

قد قرأت الكتاب ياخل نفسى   فهو لى مؤنس وأنت الأنيس
وهو تأليف ذى ذكاء وفهم   وهو وقف على العلوم حبيس

حدث الحسن بن على قال : كان أبو الحسين جنبك الإخشيدى من كرماء الناس وكانت بينى وبينه مودة وكنت أغشاه كثيراً للحوائج التى تعرض فاستخدم يوماً بواباً فحجبنى غير مرة فكتبت إليه :

يا علم المكرمات والسؤددْ   إليك أشكو بوابك الأسودْ
يبعدنى كلما دنوت ، وما   حق كريم الوداد أن يبعد
فى كل يوم ألقى بطلعته   طالع نحس يسوءنى أنكد
وجه شتيم بكل فاحشة   عليه من كل مشهد يشهد
كلب يهر الضيوف إن طرقوا   فناءك الرحب كالح اعقد
ابعده وانفى الخبيث عنك كما   ينفى القذى عنه خالص العسجد

أولا فلن تستطيع تنظم ما ... عنك من المكرمات قد بدد
وما انتفاع الورى ببحر ندى ... تذاد عنه العطاش لا تورد

فما كان من أبى الحسين إلا أن أرسل إليه الحاجب الأسود مع خادم يسمى بشيراً وأمره أن يضربه بحضرة الأسدى ثلاثين مقرعة ففعل بعد استعفاء من الأسدى وتشديد من أبى الحسين .

٤ ـ أبو الحسن محمد بن الوزير الحافظ :

كتب إلى صديق له يستدعيه ارتجالا :

لنا مُسمعة حلوهْ ... ولون يفتق الشهوه
فبالبارع من مجد ... ك إن لم تجب الدعوه

وأهدى إلى بعض إخوانه مقطا وكتب إليه :

إنى بعثت مقطا غير محتشم ... ولم أجل فى الغنى فكرى ولا العدم
ولو بعثت سوادى ناظرى بلما ... كانا كفاء لما تولى من النعم
فاقبله واجعله مما يستعان به ... فإنه خادم السكين والقلم

وقال يصف نرجسا :

خواتم من لجين ... فصوصها كابراء
وليس تضحك إلا ... إذا بكتها السماء

وأهدى إلى الأخشيد خاتماً وكتب معه :

وذى عنق لم يطل ... عليه ولم يقصر
ومتنين قد خصرا ... على قدر الخنصر (١)
وقد زاد فى ضمره ... على الفرس المضمر
وأسفله فضة ... وأعلاه من جوهر
بعثت به معسرا ... إلى ملك موسر
ولاغرو أن يهدى المقل إلى المكثر

---

(١) القدر – بفتح الدال كالقدر بسكونها .

وقال فى الوداع :

قد قلت إذ ســـار السفين بهم		والشوق ينهب مهجتى نهبـــا
لو أن لى عــزاً أصـــول به		لأخذت كل ســفينة غصــبا

٥ــ سعيد قاضى البقر :

كان من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه به لما كان فيه من الحلاوة والتنذير والهزل مع علو السمت وموارثة الدولة ومن شعره :

حى على الكأس فى الصبـــاح		مــطرحا نصــــح كل لاح
وانتهب العيش ماتـــــأتى		فأنت منــــه على جنـــاح
يارب ، دعنى بلا صـــلاح		يارب ذرنى بــــلا فــلاح
يدى مــدى الدهــر فوق دف		وراحتى تحــــت كاس راح

قالوا عنه : أنه كان من شعراء أبى الجيش بن طولون (وكان فى آخر عشر التسعين) ثم كان يبيت عند الإخشيد ويحادثه ويسامره (١)

٦ ــ صالح بن رشدين :

قال عنه ابن ســعيد المغربى صــاحب المغرب (٢) ، وجــدته فى تاريخ القرطبى موصــوفاً بالكاتب المصرى ، وأنه قال : كتب إلى أبو على أحمد بن صدقة الكاتب يدعونى سنة ٣٥٣ :

بالله يا صالح قم مسرعــــــا		إلى عــــقار أدركت تــبعا
تساعـــد الليلة فى شربهـــا		وخذ من السكر بهـــا مصرعاً
فقد بذلنا لك أرواحنـــــا		لما رأيناك لهـــــا موضــعا

فجاوبتـــــه :

ياسيداً يسمع ما قد دعـــا		خذنى بما ألزمتــــــه مسرعا

---

(١) المغرب ج ٤ ص ٣٣ .
(٢) ج ٤ ص ٨٧ .

منادماً ما شئت أعمالهـــا كأسا ترينـــا للسنـــا مطلعا
تشربهـــا حتى تـــرى الهم لا يهدى ولا يـــدرى لنا موضعـــا

وقال عنه فى يتيمة الدهر : (١) أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب ، صحب المتنبي وروى شعره وكان جيد المعانى أنشدنى له محمد بن عمر الزاهد :

قـــل لمولاى منعمـــا لم صـــرمت المتيمـــا
أنت أعطشتنى إليـــك وابكيتـــنى دمـــا
فإذا شئـــت أن تـــرى عاشقا ميتـــا ظمـــا
فأدر فىّ ناظـــريك تجـــدنى توهمـــا

وقولـــه :

أجنة نحـــن فيهـــا أم نحن فى المرزجـــوش
ما بين آس ومـــاء ينســـاب بين العـــروش
وقهـــوة ذات حســـن وطاجـــن ذى نشيـــش
وسيـــد رشت منـــه لما تطايـــر ريشى

زاره ابن أبى الزلال فى منزله فلم يره، فطرح له رقعة من طاق فى المنزل وكتب اســـمه على الباب ، فلما أتى صالح ورأى اسمه على الباب ووجد الرقعة ، فقرأها فوجده يعتب فيها عليه انقطاعه عنه ، ذهب صالح فى الوقت إلى منزل ابن أبى الزلال فلم يجده فكتب اسمه على بابه وترك رقعة فيها :

قد ومن خصنى بودك أذكى طول شوقى إليك فى القلب نارا
سرت فيه تلقاء دارى قصـــدا فإذا النور قد تغشى الديـــارا
فتعجبت أن أرى الأفـــق ليلا مدلهما وجوف دارى نهـــارا
وإذا خطك البديـــع على البـــا ب يبث الضياء والأنـــوارا
فتمنيت أن خـــدى نعـــلا أخمصيك اللذين نحـــوى سارا
غير مســـتنكر لمثلك أن يســـ بق فضلا وأن يفوت افتخارا
ثم أصبحت أشـــتكى عثر السكـ ر وعزمى زيارتيك ابتـــكارا

---

(١) ج ١ ص ٣٥٧ .

فإذا رقعــة تمر بها الريـــح يميـــنا طورا وطورا يســـارا
فتأملتها وكانت من الـــ ـــلا ئى تروق القلوب والأبصـــارا
ما توهمت أننى قبلهـــــا أقــــرأ خطا يزيـــــل عنى الخمـــارا
قابلتنى منهـــا سهام عتــــاب جعلت درعى الحصين اعتـــذارا
وأحاشيك أن تكون خليـــــلا نزق الود للصديق معــــــارا

٧ – ابن أبى العصـــــام :

جعله صاحب المغرب ابن عصام وجعله صاحب اليتيمة ابن أبى العصام كما مر بك فى البيان. وهو أبو هريرة أحمد بن عبد الله من شعراء الإخشيد ومن أصحاب النوادر والإدمان على شرب الخمر ، قال يرثى صالح بن رشدين :

قد أفسد المـــوت على صالح كل الذى أصلحه صالـــح
وانصرف البواب عن بابـــه وصاح فى مجلسه الصـــائح
خلوه فى دار البلى مفـــــردا وناح فى أوطانـــه النائـــح
ياليت شعـــرى ما الذى قاله إذ راح فى حفرتـــه الرائـــح
يا أيهـــا الناس ألا فاسمعـــوا قولى فإنى مشفق ناصـــــح
لاتؤثروا الدنيـــا على غيرها ففرق ما بينهمـــا واضـــح
فالحمــــد لله وشكــــر له كل امرئ عن أهلـــه نازح

ومما قاله فى وصف مجالس الشراب : (١)

مجلس لا يرى الإله بـــه غير مصـــل بلا وضـــوء وطهر
ســجد للكئوس من دون تسبـيح سوى نغمة لعـــود وزمـــر
أنا أشهـــر الأنـــام فى مثل ذا المجلس لا مجلس لنهى وأمـــر

وقال فى دير القصير :

كم لى بدير القصير من قصف مع كل ذى نشـــوة وذى ظرف
لهوت فيـــه بشادن غنـــــج تقصر عنـــه بدائـــع الوصـــف

---

(١) امتاز بإيراد هذه المقطوعة كتاب المغرب ج ٤ ص ١٠٣ . أما بقية القطع فهى من اليتيمة ج ١ ص ٣٦١ .

وقال فيه أيضاً :

أذكرتنى يادير مــــن قد مضى   من أهل ودى ومصافـــــاتى
كم كان لى فيـــك وفيهم معا   من طيب أيـــــام وليـــلات
أشكو إلى الله مصابى بهـــم   وفقـــدنا أهـــل المروءات

***

ونكتفى بهذا فقد استطعنا أن نصور لك العصر فى شعر شعرائه ويمكنك الرجوع إلى مالم نذكر بدلالة البيان الذى قدمناه لك قبل هذه التراجم .

رابعاً ــ وصف الشعر فى هذا العصر

قدمنا لك من الأمثلة ما ينطق بحالة الشعر فى هذا العصر : فهو شعر طرب ومرح وحياة وادعة تقضى بين الرياض والغياض فى مجالس الشراب على بسط الأعشاب وفى جموع الأحباب . وهى حياة ترف كل ساعاتها فراغ ولهو وكل ما بين الأصحاب فيها إنما هو استدعاء أو إهداء أو استهداء . برع فيها شعراء فى التنادر والفكاهة حتى على كبر السن وعلو السمت ، وعرف كثير منهم بإدمان الشراب ، وأحب الملوك منهم ذلك . فسعيد قاضى البقر يتصل بالإخشيد ويزيد اختصاصه به لحلاوة فكاهته وكثرة هزله «وابن أبى العصام» يشتهر بالإدمان لشرب الخمر حتى ما يكاد يفيق ولعله كان سكران حين رثى صالح بن رشدين بقوله : (راجع شعره ص ١٨٢) .

قد أفســد المــوت على صـــالح   كل الذى أصــلحه صـــالح

فهل سمعنا بمثل هذا الكلام فى رثاء قط .. ؟ أو هل تصور الشاعر الموت إلا واغلا أو رقيبا يدخل على القوم فيفسد عليهم مجلسهم ويكدر صفوهم فحسب ، فهذا ما تنطوى عليه هذه الألفاظ المخنثة الناعمة ، وهل بقى صالح بعد الموت فلم يضره إلا إفساد ما كان قد أصلحه وأعده للذاته .. ؟ ! يا لله إن لغة اللهو وأسلوبه قد غلبا على الرجل فأضحك حين أراد أن يبكى .

أما الذى يؤكد لى أنه قال هذا الشعر وهو سكران فهو قوله (وانصراف البواب عن بابه) كأن انصراف البواب هو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التى حلت بأهل الدار ، لا فقدهم عائلهم وموت كاسبهم وتيتم صغيرهم وضياع فقيرهم ومحتاجهم . ! !

ثم كيف يتصور وضع الحمد والشكر لله فى مقام الرثاء إلا أن يكون الشاعر هازلا أو متعمدا الفكاهة بقلب الأوضاع جاعلا الموت نعمة على الميت أو على أهله فهو يستوجب الشكر العاجل . أما ألفاظ الصبر واحتمال المكروه والرضا بالواقع والتأسى بالناس فتلك بعيدة عن ذهن الشاعر ، لأنه لا شك سكران أو هو لم يعتد القول فى هذه المآسى، لأنه لم يخالط محزونين وإنما قضى حياته كلها فى ضحك ولعب ولهو . وقد رأيت أن الشعراء ولجوا الأديرة وقصفوا فيها وإن كنا لم ننقل لك كثيرا مما قيل فيها، لأن الشعراء الذين أكثروا من ذلك لم يثبت لدينا بالبرهان أنهم إخشيديون ، ونحن لا نلقى الكلام على عواهنة وإن شئت فاسمع كلاما لا يختلف فى روحه ولفظه عما سمعت من شعر الشعراء الذين سقنا لك شعرهم يثبت لك على وجه التقريب — إلى أن نهتدى إلى زمانهم بالضبط — أن الشعراء فى أيام هذه الدولة وما قاربها أكثروا من وصف هذه الأديرة .

جاء فى كتاب الديارات غير ما نقلنا إليك سابقا من شعر ابن أبى العصام ، قول محمد بن عاصم (١) فى دير القصير :

إن دير القصير هاج أدكارى	لهو أيامى الحسان القصار
وزمانا مضى حميدا سريعا	وشبابا مثل الرداء المعار
عرفتنى ربوعه بعد نكر	فعرفت الربوع بالإنكار
فلو ان الديار تشكو اشتياقاً	لشكت جفونى وبعد مزارى
ولكادت نحوى تسير لما قد	كنت فيها سيرت من أشعارى

وهى طويلة .

ولابن الزنبقى المصرى (٢) فى هذا الدير من شعر طويل :

يا حسرة فى القلب ما أقتلها	كأنها فى القلب أطراف الأسل
دير القصير الفرد فى صفاته	يا من رأى الجنة فى رأس جبل
أشربها راحا شمولا قرقفا	تدب فى الجسم صباحى والأصل
يديرها ذو غنج بطرفه	يحى من شاء ومن شاء قتل
كأنه غصن من البان وقد	زاد عليه بالقوام المعتدل
الثغ حتف النفس وفى لثغته	تاه بها على الورى تيه مدل

(١) ، (٢) لم نستطع التوصل إلى معرفة الزمن الذى عاش فيه ولا عثرنا بذكر علاقة لهم مع شخصية معروفة فى هذا العصر .

إن قال نار قال ناغ أو يقـــل نور يقل نوغٌ بدل وغـــزل
ويضرب النـــاقوس فيه راهب ضربا على ريث وضربا بعجـــل
فاحنث كأس الراح يا ساقينـــا واغتنم الدهـــر فللدهر دول
من قبل أن يطرقنا بينٌ فـــلا ينفع عند البين ليت ولعـــل

وللعباس بن البصرى فى دير ما رحنا : (١)

يا حامل الكأس أدرهـــا واسقنى قد ذعر الشوق فؤادى فانذعر
أما ترى البركة ما أحسنهـــــا إذا تداعى الطير فيهـــا فصفر
أما ترى أنـــوارها أما تـــــرى حسن مسـيل مائها إذا انحـــدر
كأنما صفر الدنانير بهـــــــا مبذولة ليس لها من متجـــــر
كأنما الجوهـــــر فى ألوانــــه نثر فى تلك النواحى فانتـــثر

وله أيضاً فى دير نهيا :

يامن إذا ســكر النديم بكأســه غربت لواحظـــه بسكر الفُيق
طلع الصبـــــاح فسقنى تلك التى ظلمت فشُبـــه لونها بالزنبـــق

ولابن عاصم فى دير طمويه :

اشرب بطمويه من صهباء صافية تزرى بخمر قرى هيت وعانـــات
على رياض من النوار زاهـــــرة تجرى الجـــداول منها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفرى بهـــا كاسات خمر بدت فى إثر كاسات

والذى يدلنا على غلبة اللهو وشيوعه فى تلك الأيام أن نقيب الأشراف وسيد السادات العلويين بمصر — ومكانه مكان تجلة وموقفه موقف تزمت وتحرج — لم يستطع كبت ما فى نفسه من نزوع إلى اللهو وطيران إلى اللذة ولو لذة القول وحدها، فقال وأكثر من الغزل وآلى ألا يترك الشراب، وكانت حلفته بصنم حبه وهو محبوبته التى تركته يوم الفراق، «كأنما الرمل فى عينيه منثور » أنظر شعره ص ١٧٣ .

أفلا يقال بعد كل هذا أن العصر كان عصر مرح وإفلات من قيود الدين وأن الشعر كان فيه أصدق دليل على ذلك .

ثم ألا يقال إن شعراء هذا العصر استطاعوا أن يصوروا الحياة فى عصرهم تصويراً

---

(١) أثبتنا من قبل أن العباس بن البصرى من شعراء الاخشيدية بما ذكرنا من علاقته بأنوجور .

صادقاً فعرفنا من شعرهم ما كان فى مصر من ملاه ومقاصف وما كان لطبقة الشعراء من فراغ وعكوف على اللهو ، وما كان فى أولى الأمر من تسامح فى أن يذاع ويقال كل ما قيل وأذيع .. ؟ ! !

خامساً ــ الشعراء الطارئون على مصر فى عهد الدولة الإخشيدية

طرأ على مصر فى عهد هذه الدولة شعراء كما طرءوا عليها فى كل حين قبل ذلك يحدوهم ما يسمعون عن جود ولاة مصر أو ملوكها ، كما كان لمصر حديث بين الناس فى كل قطر يشوق محبى الاطلاع والمولعين بمناظر الطبيعة الفاتنة ، أن يقصدوا هذه البلاد.

لذلك قصد فى هذا العصر شعراء اشتهر من بينهم كشاجم محمود بن محمد بن الحسين المكنى بأبى نصر الملقب بكشاجم (١) ، والناشئ الأصغر على بن عبد الله بن وصيف . على قلة ما ورد عنهم مما يختص بحياتهم فى مصر ! !

أما الناشئ الأصغر فلا نروى له شعراً قاله فى مصر يمدح أميراً أوعظيما أو يصف مغنىً من مغانيها ، وكل ما يدلنا على قدومه إلى مصر قول ياقوت الحموى أنه « قصد كافوراً الإخشيدى ومدحه ومدح ابن خنزابه وكان ينادمه (٢) » ومع إطالته فى ترجمته لم يذكر لنا بيتاً واحداً أنشده فى مدح أحد هذين أو نادم به ثانيهما .

مات الناشئ الأصغر سنة ٣٦١ هـ ببغداد .

أما كشاجم فقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة (٣) أنه « أقام بمصر مدة فاستطابها ثم رحل عنها فكان يتشوق إليها ثم عاد إليها فقال :

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى فالآن عدت وعادت مصر لى دارا

واقتصر السيوطى على هذا البيت ، و بعده (٤)

أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطبحا طورا وطورا أزجى السير طيارا

---

(١) فى شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨ أنه هو الذى لقب نفسه بهذا اللقب فقال الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جواد والميم من منجم ، قيل ثم طلب الطب فزيد فى اسمه طاء فقيل طكشاجم ولكن لم يشتهر .

(٢) معجم الادباء ج ١٣ ص ٢٨٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) ص ٦٤ من الديوان .

بينا أسامى رئيسا فى رياسته | إذ رحت أحسب فى الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرته | وقد قضيت لبانات وأوطارا
من شادن من بنى الأقباط يعقد ما | بين الكثيب وبين الخصر زنارا

وما دام كشاجم معجباً بمصر ميالا إلى جمالها فقد كان له فيها حياة مرح ولهو فقصد إلى أديرتها ووصفها فقال فى دير القصير :

سلام على دير القصير وسفحه | فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لى بهن مآرب | وكانت مواخيرى ومنتزهاتى
إذا جئتها كان الجياد مراكبى | ومنصرفى فى السفن منحدرات
فاقنص بالأسحار وحشى عينها | وأغدو على الإنسى فى الظلمات
معى كل بسام أغر مساعد | على كل ما يهوى النديم مواث
وجرد عتاق كالظباء ضوامر | يبادرن فى مضمارها القصبات
ولحمان ما قد أمسكته كلابنا | علينا ومما صيد بالشبكات
طعام إذا ما شئت بادرت طبخه | على كثرة من غلمتى وطهاتى
وصفراء مثل التبر يحمل كأسها | شديد فتور الطرف واللحظات
كأن قضيب البان عند اهتزازه | تعلم من أعطافها الحركات
هنالك تصفو لى مشارب لذتى | وتصحب أيام السرور حياتى

ومما قال فى مصر : (١)

أما ترى مصر كيف قد جُمعت | بها صنوف الرياض فى مجلس
السوسن الغض والبنفسج والورد | وصفر البهار والنرجس
كأنها الجنة التى جمعت | ما تشتهيه العيون والأنفس
كأنما الأرض ألبست حللا | من فاخر العبقرى والسندس
وقد أحاطت بها شقائقها | كأنها من عقائق أكؤس

ويظهر أن كافورا لم يعطه ما يطمع فيه فقال يعرض به : (٢)

تراه فى الصدر ، من خساسته | كأنه فى أواخر المجلس

---

(١) ص ١٠٣ من الديوان .
(٢) ص ١٠٤ من الديوان .

لا يفهم القـــول والخطاب ولا يَفهمه فهو أبكم أخـــرس

يحكم فى مصر والشآم وقـــد كان كثيراً لمثله يحــــــرس

مات كشاجم سنة ٣٥٠ هـ على ما فى كتاب الأعلام للزركلى وسنة ٣٦٠ على ما فى الشذرات (١) .

---

(١) الأعلام ج ٣ ص ١٠١٨ ، الشذرات ج ٣ ص ٣٧ .

الكتابة فى عهد الدولة الإخشيدية

قد عرفت فيما مضى ما هو المراد من قولنا كتابة الإنشاء ، كما عرفت موقف رئيس ديوان الإنشاء من صاحب الأمر .

ولا نعيد القول فيما كانت تفتتح به الرسائل وتختتم ، فإن ذلك لم يتغير عما كان عليه الحال فى الدولة الطولونية لقرب العهد بين الدولتين .

أما الذى يذكر هنا فهو أن لقب الوزير لزم ذلك الكاتب الذى كان يتولى رياسة ديوان الإنشاء فعلى حين لم يكن ابن عبد كان يلقب إلا بكاتب ابن طولون لا نرى إبراهيم ابن عبد الله بن محمد النجيرمى زعيم كتاب الإخشيديين إلا ملقباً بلقب وزير وما ذلك إلا لتقدم الحضارة وشيوع ذلك اللقب فى نواحى الدولة .

وقد قرأنا سيرة آل الإخشيد فلم نعثر بكتاب لهم إلا إبراهيم هذا ومحمد بن كلا الذى كان يسفر بين الإخشيد ومحمد بن رائق ، ولابد أن يكون محمد هذا كاتباً يعمل تحت رياسة إبراهيم النجيرمى لأنهما كانا متعاصرين .

أما النجيرمى فهو أبو إسحاق النحوى اللغوى أخذ عنه أبو الحسين المهلبى وجنادة اللغوى الهروى وكثير من أهل العلم بمصر ، وكان هو قد أخذ عن الزجاج بالبصرة وكان ماهراً فى الكتابة عالماً بوجوهها ، حكى أنه ورد إلى الإخشيد كتاب من المانوس ملك الروم يفتخر فيه عليه ، ويزعم أنه له عليه المنة فى أن يخاطبه إذ قد جرت عادته ألا يخاطب إلا خليفة ، فقرئ الخطاب على الإخشيد فأمر بالإجابة عنه فأجاب عنه جماعة فلم يختر إلا جواب إبراهيم بن عبد الله النجيرمى .

وكان إبراهيم معجباً بكتابه جداً حتى إنه نسخ منه نسخاً وأنفذها إلى البصرة لإظهار مقدرته عند إخوانه ومن يعرفونه هناك . (١)

والنجيرمى هذا هو الذى كان حاضراً مجلس كافور فدخل عليه رجل يدعو له ويقول أدام الله أيام سيدنا (بكسر ميم أيام) فتبسم كافور إلى إبراهيم فقال من فوره :

---

(١) المغرب جزء ٤ ص ٢٣ .

لا غرو أن لحن الداعى لسيدنا وغص من هيبة بالريق والبهر

وقد مرت القصة ونزيد هنا أن كافوراً أمر لإبراهيم بثلثمائة دينار وبمثلها للداعى له .

أما جوابه الذى كان موضوع فخره فسنورده فيما بعد .

أما محمد على بن كلا فقد ورد عنه فى المغرب ما يلى : —

« سار الإخشيد لقتال ابن رائق واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى نزل الفرما وتقدمت طلائع محمد بن رائق فكانت بينهم مناوشة وسفر الحسن بن طاهر العلوى بين الإخشيد وبين محمد بن رائق فى الصلح وأنفذ الإخشيد كاتبه محمد بن كلا للرملة للموافقة على شرائط بينهما وتم الصلح » (١) .

ونعتقد أن الذين قاموا بالكتابة لهذه الدولة كثيرون ولكن أخبارهم كما ترى غامضة حتى إن الحموى ترجم ترجمة للنجيرمى فلم يذكر أنه كتب للإخشيديين .

★ ★ ★

نماذج الكتابة الإنشائية فى عهد الدولة الإخشيدية

لا نذكر هنا إلا كتاب إبراهيم النجيرمى الذى قدمنا أنه فاخر به أهل عصره حتى نسخ منه عدة نسخ وأرسلها إلى البصرة ليطلع عليه أهلها .

وها هى تلك صورة الجواب :

من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين إلى المانوس عظيم الروم ومن يليه .

سلام بقدر ما أنتم مستحقون ، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة وما نمى عنا إليك ، وصح من شيمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول الذى يليق بذوى الفضل والنبل ،

(١) المغرب ج ٤ ص ٢٥ .

ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصون وعالمون . وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

أما مانسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة فإنا نرغب إلى الله جل وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها وييسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها وعرة القسوة بها (١) ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته وموجبات مرضاته حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى فإنا فقراء إلى رحمته . وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم، وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقى على الدهر ، وأنك إنما اختصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد، وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة. فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته .

والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته، فهو أمر مهل يسير لأمر عظيم خطير وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم ، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأمر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه ولم يعذه من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو أمامكم ، وما توجبه عليكم سياستكم والتوصل

(١) معنى هذه الجملة أنه يدعو الله أن ييسره للاجتهاد فى تحصيل فضيلة الرحمة وأن يعصمه من أن يزيغ به الهوى عنها كما يعصمه من عار القسوة ولصوق وصفها به إذا لم يتبع سبيل الرحمة ويستمسك بأهدابها .

إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول فى الصواب ، أولى بنا من المسامحة فى الجواب لأضربنا عن ذلك صفحا .

وبقية الكتاب على هذا النمط فاطلبه فى كتاب المغرب وفى صبح الأعشى (١) .

* * *

والذى نراه فى هذا الكتاب أن عبارته لا زينة فيها مطلقاً، ولا فضيلة فيها للفظ أوحسن صياغة، وكأنما أراد الكاتب أن يفرغ معانيه فى أى قالب يظهرها واضحة جلية .

فهو بهذه المثابة يكاد يفقد شرط كتابة الإنشاء أو النثر الفنى وهو التفوق فى التعبير والتخير للألفاظ ، وعندى أن عذر الكاتب فى هذا واضح لأنه يعلم أن كتابه سيترجم والترجمة لا تبقى على شيء من جمال اللفظ وزينته ، فرأى الكاتب أن من العبث أن يتعب نفسه فى ذلك ، وجعل اهتمامه منصرفاً إلى المعنى الذى يحرص أن يصل إلى المكتوب إليه سليما واضحاً . لذلك ترى قوة الحجة واضحة وترتيب المعانى منسجماً .

فكنا بحاجة إلى نموذج آخر من كتابة النجيرمى ويكون قد كتبه إلى قارئ للعربية حتى نرى مقدار تفوقه فى عباراته وعنايته بحسن صياغتها .

وإن نظرة إلى هذا النص مع كر الطرف إلى النموذج الذى أوردناه لابن عبد كان ، لتجلى لك ما قررناه من الحكم على نموذج النجيرمى . حقاً إن كتابة المصريين لا تمتلئ بالزخارف ككتابة العراقيين ، ولكن لا ينتهى إهمال الصناعة فى الصياغة إلى الحد الذى وصل إليه النجيرمى ، فإنه يخيل إلينا أنه لو استطاع أن يقيم المعانى بلا ألفاظ ويؤدى المراد بلا تعبير لآثر ذلك .

(١) المغرب ص ١٨ ج ٤ وصبيح الاعشى ج ٧ ص ١١ وما بعدها .

العلوم فى الدولة الإخشيدية

انتهينا فى الكلام عن الدولة الطولونية إلى أن العلوم فيها كانت هى العلوم الدينية واللغوية والتاريخ ، وأنها لم تكن بعد قد عرفت علوم الفلسفة ولا المنطق ، مما تورط فيه أهل العراق فأفسد عليهم دينهم ولغتهم .

وقد بلغ من بعد مصر عن المذاهب الناشئة فى بغداد أن كانت سنية لا تعرف الاعتزال حتى لقد قالوا عن سيبويه المصرى (٣٥٨) الذى لحقته السوداء فاختلط عقله : إنه كان يظهر الكلام فى الاعتزال فى الأسواق فكان يحتمل لما هو فيه (١) ، فكأنهم كانوا لا ينتظرون هذا التطرف ولا يحتملون هذا الكلام إلا ممن أدركه لطف الله فاختلط عقله. مع أن الاعتزال فى بغداد كان معادلا للسنية لا غرابة فيه عند الناس .

ونقول إن حال العلوم فى الدولة الإخشيدية كان كحالها فى الطولونية ، فلم تزد أنواع العلوم عما كانت عليه ولم يتغير نهج المصريين فى دراستهم لها .

وكذلك ظلت الدوافع الدينية هى أقوى الأسباب لحفز العلماء إلى تحصيل العلم والصبر على ذلك معناه الرحلة فى سبيله ، وظل رجال الدولة يعطفون على العلماء ويوفرون لهم الاحترام والتجلة ويرفعون مجالسهم فى حضرتهم ويرفهون عن فقيرهم ، لا يألون فى ذلك جهداً ، لأنهم يرون فى رفعة العلم رفعه الدولة وفى حياته حياة الدين الذى يدعون الناس باسمه وتقوم ممالكهم على أسسه .

ولم يكونوا يكتفون بذلك بل طمعوا أن يكونوا شركاء العلماء فى فضيلة العلم فتعلموه صغاراً وظلوا على اتصال به بعد تمام السن والقيام بأعباء الملك ، يعقدون مجالسه ويحضرون دروسه ويشتركون فى مناقشاته ، ويحملون العلماء على التأليف ويثيبونهم على ذلك .

كان ذلك شأن القائمين بأمر الدولة الإخشيدية ، فكافور وهو الذى استبد بجملة عمر الدولة كان محبا للعلماء مكرماً لهم ، مجزلا لمثوبتهم عارفاً بقدرهم حضر جنازة ابن الحداد الفقيه هو وأنوجور الإخشيدى (٢) ، واقترح على محمد بن يوسف الكندى المصرى (٣٥٠)

(١) البغية ص ١٠٨ .
(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٨ .

أن يؤلف كتاباً فى « فضائل مصر » فألفه ، وهو على صغر حجمه عظيم الفائدة ، ذكر فيه على سبيل السرد من دخل مصر من الخلفاء والفقهاء والشعراء ، ومن كان بها من العلماء والفقهاء وغيرهم وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وكان ابن خنزابة (٣٩١) وزير الدولة الإخشيدية ، عالماً فاضلا حدث عن محمد بن هرون الحضرمى وطبقته من البغداديين وغيرهم . وكان يذكر أنه سمع من عبد الله ابن محمد البغوى مجلساً ولم يكن عنده فكان يقول : من جاءنى به أغنيته . وقد قصده الأفاضل من البلدان الشاسعة يطلبون عليه العلم ويروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع اشتغاله بالوزارة يدرس الحديث بمصر . وقد وجد مع مشاغله الكثيرة بالوزارة زمناً ألف فيه مسندا ، وله غيره تآليف فى أسماء الرجال والأنساب وغير ذلك(١) .

راجت العلوم بمصر وكثرت الرحلة منها إلى العراق للتحصيل كما فعل ابن ولاد (٢٣٢) تلميذ الزجاج البصرى ببغداد وكان حظياً عنده ، فكان يقول لكل من قدم عليه من مصر لى عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا (٢) . وكذلك قصد أبو جعفر النحاس (٣٣٨) بغداد وأخذ عن الزجاج والأخفش الأصغر والمبرد ونفطويه ، وعاد فانتفع به المصريون وحبب إليهم الأخذ عنه (٣) وكذلك رحل إلى مصر كثير من فضلاء العلماء ، ولاشك أن الدوافع لهذه الرحلة كثيرة منها ما بمصر من أفاضل العلماء الذين يحرص كل متعلم على الأخذ عنهم خصوصاً فى علوم الدين ، ومنها ما يجد هؤلاء القادمون إلى مصر من ترحيب بهم ورعاية لقدرهم وإدرار للخير عليهم .

قدمها على بن الحسين المسعودى المؤرخ الكبير فرضيها مقاماً له إلى أن مات بها سنة ٣٤٥ (٤) وقدمها المحدث عن بن عمر الدارقطنى (٣٥٨) الذى انفرد بالإمامة فى علم الحديث فى عصره ، ولم ينازعه فى ذلك أحد نظرائه ، قصدها حين علم أن أبا الفضل جعفر بن الفرات عازم على تأليف مسنده فحضر إليه ليساعده عليه ، وأقام عنده مدة فبالغ أبو الفضل فى إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئاً كثيراً ، وحصل له بسببه مال جزيل . (٥)

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١١ .

(٢) البغية ص ١٦٩ .

(٣) البغية ص ١٥٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٥ .

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣١ .

ونشأ بمصر من العلماء كثيرون يخطئهم العد وكان منهم غير من ذكرنا عبد الرحمن ابن أبي الحسن الصدفي (٣٤٧) وقد خلف أثرين جليلين في التاريخ أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين الناشئين بمصر ، والثاني وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين عليها وقد ذيلهما الحضرمي ، وقد فقدنا هذه الآثار .

ومنهم الكندي المذكور سابقاً وقد خلف كتباً : « تسمية ولاة مصر » و « أخبار قضاة مصر » وهما مطبوعان ، و « فضائل مصر » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، وقد سبق أن ألفه بإشارة كافور ، ولكنه جعله مختصراً مقتصراً على سرد الأسماء وياليته أطال وفصل حتى كنا اليوم نحصل على ثروة عظيمة من رجال مصر أصليين وطارئين ، لأننا نقرأ هذا الكتاب فنجد به أسماء لا نهتدي إلى معرفة شيء عنها في الكتب الأخرى التي بين أيدينا فيفوتنا بذلك علم كثير .

ونحن ننقل لك نموذجاً من هذا الكتاب لتقف على مدى اختصاره وإدماجه .

قطعة من كتاب فضائل مصر المحروسة :

« أخبرنا محمد بن يوسف الكندي قال : هذا الكتاب أمر بجمعه وحض على تأليفه الأستاذ أبو المسك كافور . ومنه :

وأما من دخلها من الفقهاء وغيرهم فالشعبي الشافعي وحفص الفرد وإبراهيم بن أدهم ومنصور بن عمار المتكلم . ودخلها من الخلفاء معاوية ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ومروان بن محمد والسفاح والمنصور والمأمون والمعتصم والواثق .

ودخلها من الشعراء نصيب وجميل بثينة وكثير عزة وابن قيس الرقيات والأحوص وأبو ذؤيب ومعلى الطائي وأبو نواس ودعبل بن علي والغيداق ويزيد ، وأبو صعصعة وأبو حجلة وابن جرار وغيرهم .

وأما من كان بها من الفقهاء والعلماء منهم يزيد بن حبيب والليث بن سعد وله مذهب منفرد به وعبد الله بن وهب وعبد الله بن لهيعة وأشهب وابن القاسم وعبد الله بن الحكم وأسد بن موسى ومحمد بن عبد الحكم والمزني وربيع المؤذن وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ولكل واحد منهم من الكتب المصنفة ما يعجز عن نظائرها سائر أهل الدنيا .

ومنهم سعيد بن عفير ويحي بن عثمان وابن فريد ومحمد بن يوسف الكندى والميسرى وابن أبي خثيمة وكل واحد منهم قد فاق أهل عصره وبرز عليهم فى الفقه والعلم والأخبار وأيام الناس والافتنان فى سائر العلوم » .

ويحسن الرجوع إلى الكتاب ذاته ليتحقق المطلع عليه من قولنا أن به أعلاماً كثيرة لا نعرف عن مسمياتها شيئاً .

تراجم بعض العلماء

– ابن الحداد الفقيه الشافعى

هو محمد بن أحمد بن جعفر كان مجتهداً فى مذهبه له فيه وجه. ولد يوم وفاة المزنى وسمع من النسائى ولزمه ومن ابن أبى الدنيا والقراطيسى وغيرهم .

كان مفننا فى العلوم تولى بمصر القضاء والتدريس وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصده فى الفتاوى والحوادث . وكان يقال فى زمانه : عجائب الدنيا ثلاث ، غضب الجلاد ونظافة السماء والرد على ابن الحداد . (١)

قال الأسنوى عنه : به افتخرت مصر على سائر الأمصار وكاثرت بعلمه بحرها بل جميع البحار ، إليه غاية التحقيق ونهاية التدقيق وله الإمامة فى علوم كثيرة خصوصاً الفقه. ومؤلفاته تدل عليه .

قال عن مؤلفاته : صنف كتاب الباهر فى الفقه فى مائة جزء كتاب جامع الفقه وكتاب أدب القضاء فى أربعين جزءاً ، وكتاب الفروع والمولدات وهو مشهور اعتنى الأئمة بشرحه (٢) وكان منصرفاً فى علوم كثيرة من علوم القرآن والشعر أيام العرب والنحو واللغة .

عاش ثمانين سنة وحج فى آخر عمره فمرض فى رجوعه منه ومات يوم دخل الحجاج مصر سنة ٣٤٤ وقيل ٣٤٥ .

ولما مات حضر جنازته الأمير أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد وكافور وجماعة من أعيان البلد (٣) والحداد نسبة إلى أحد أجداده كان يعمل الحديد ويبيعه .

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٨ .
(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٦٧ .
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٨ .

٢ ــ عبد الرحمن الصَّدفى

هو أبوسعيد عبد الرحمن بن أبى الحسن بن أحمد بن أبى موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفى المؤرخ المصرى الخبير بأحوال الناس المطلع على تواريخهم ، جمع لمصر تاريخين أحدهما وهو الكبير يختص بالمصريين ، والآخر وهو الصغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر (١) وهو حفيد يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعى رضى الله عنه والناقل لأقواله فى مصر كما مر بك .

مات أبو سعيد وله ست وستون سنة وقد تلقى عن أحمد بن حماد زغبة ، وكان أقدم شيوخه (٢) وكان أبو سعيد إلى جانب معرفته بالتاريخ محدثاً ثقة حافظاً وثبتاً يقظا ، ولما مات رثاه أبو عيسى الخولانى الملقب بالخشاب المصرى بقوله :

بثثت علمك تصنيفاً وتقريبـــا ... وعدت بعد لذيذ العيش مندوبا
أبا سعيد وما نألوك أن نشرت ... عنك الدواوين تصديقاً وتصويبـا
مازلت تلهج بالتاريخ تكتبــه ... حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا

والصدفى نسبة إلى الصدف بن سهل وهى قبيلة كبيرة من حمير نزلت بمصر (٣) .
توفى سنة ٣٤٧ ومولده ووفاته بالفسطاط .

٣ ــ ابن ولاد

هو أحمد بن محمد بن الوليد بن محمد ويعرف بابن ولاد .

أصله من البصرة انتقل جده إلى مصر وهو نحوى ابن نحوى وكان نحوى مصر وفاضلها : خرج إلى البصرة وسمع من أبى إسحاق الزجاج وطبقته .

وكان الزجاج يفضله ويقدمه على أبى جعفر النحاس وكانا جميعاً تلميذيه وكان الزجاج لا يزال يثنى عليه عند من يقدم بغداد من المصريين ويقول لهم : لى عندكم تلميذ من شأنه وحاله كذا وكذا ، فيقال له أبو جعفر النحاس فيقول : بل هو أبو العباس بن ولاد.

رجع ابن ولاد إلى مصر فجعل يفيد أهلها تدريساً وتأليفاً إلى أن مات ، وكان له

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٨ .
(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٧٥ .
(٣) ابن خلكان بالبيان السابق .

سماع كثير وكان يقول : (ديوان رؤبة رواية لى عن أبى عن جدى) (١)

ومع كونه تلميذ أبى إسحاق الزجاج كان أبو إسحاق يسأله عن مسائل فيستنبط لها أجوبة يستفيدها أبو إسحاق منه . (٢)

كان أبو العباس قد قرأ كتاب سيبويه على أستاذه الزجاج فأتقنه ودقق فى فهمه ثم ألف كتاب الانتصار لسيبويه من المبرد. وله أيضاً كتاب المقصور والممدود على حروف المعجم ، وكان قد أملى كتاباً فى معانى القرآن فتوفى ولم يخرج منه إلا بعض سورة البقرة .

وكان هو وأبو جعفر النحاس متعاصرين فجمع بينهما بعض ملوك مصر وأمرهما بالمناظرة أمامه فقال ابن النحاس لابن ولاد كيف تبنى مثال أَفْعَلَوْت من رميت فقال ابن ولاد أقول أرمييت فخطأه أبو جعفر وقال ليس فى الكلام العرب أَفْعَلَوْت ولا افعـــليت . فقال أبو العباس إنما ســألتنى أن أمثل لك بناء ففعلت . وكان أبو جعفر إنما تغفله بذلك (٣) .

قال الزبيدى : ولقد أحسن أبو العباس فى قياسه حين قلب الواو ياء . وقد كان أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش يبنى من الأمثلة مالا مثال له فى كلام العرب .

مات ابن ولاد رحمه الله سنة ٣٣٢ .

٤ ـــ المسعودى المؤرخ

على بن الحسين بن على ، من ولد عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. أصله من بغداد وأقام بها زماناً وطاف بالبلدان ثم دخل مصر فأقام بها أكثر مما أقام ببغداد ثم مات بها .

كان أخبارياً يذكر فى كتبه كثيراً من مشاهداته التى كانت تقع له بما طاف به من البلدان فيقول رأيت أيام كونى بمصر كيت وكيت ومن ذلك ما ذكره فى كتابه مروج الذهب «سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير « فرعون » فلم يخبرونى عن معنى ذلك (٤) له من الكتب : « مروج الذهب ومعادن الجواهر » وهو مطبوع فى أربعة أجزاء . وكتاب « التنبيه والإشراف » وهو

---

(١) ، (٢) كتاب أنباه الرواة ج ١ ص ٩٢ .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٤) ج ١ ص ٢١١ .

مطبوع بليدن ثم طبع بمصر و « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » فى ثلاثين مجلداً وهو مفقود ما عدا الجزء الأول منه فانه بفينا و « ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور » و « الرسائل والاستذكار بما مر فى سالف الأعــصار » و « وأخبار الأمم من العرب والعجم » و « خزائن الملوك وسر العالمين » و « المقالات فى أصول الديانات » و « البيان فى أسماء الأئمة » و « المسائل والعلل فى المذاهب والملل » و « الإبانة عن أحوال الديانة » و « سر الحياة » و « الاستبصار فى الإمامة » و « السياحة المدنية فى السياسة والاجتماع » (١) و « أخبار الخوارج » (٢) وهذه كلها مفقودة .

وله كتب غير هذه ذكرها فى مواضع من كتابه مروج الذهب منها كتاب « المبادى والتركيب » وكتاب « الرءوس السبعة » و « الزاهى » و « سر الحياة » و « مزاهر الأخبار وطرائف الآثار » و « طب النفوس » وكثير غيرها .

مات المسعودى بمصر سنة ٣٤٥ على ما ذكره فى شذرات الذهب (٣) وسنة ٣٤٦ كما فى معجم الأدباء (٤) لياقوت .

٥ — سيبويه المصرى

هو محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى ويعرف بابن الجبى .

كان عارفا بالنحو والغريب حتى لقب بسيبويه لذلك ، وله معرفة بأخبار الناس والنوادر والأشعار والفقه على مذهب الشافعى ، جالس ابن الحداد الذى مر بك ذكره وتتلمذ له وسمع من النسائى والطحاوى .

وكان يتكلم فى الزهد وأحوال الصالحين ويظهر الاعتزال ، واجتمعت فيه مزايا الأدباء والفقهاء والصلحاء، وبلغ من ذلك مبلغا جالس به الملوك (٥) وكان يتكلم فى الأسواق فى الاعتزال فيحتمل ذلك منه لما هو عليه (٦) ، ولحقته السوداء واختلط عقله واتصل به ذلك إلى أن مات .

---

(١) ذكر هذه الكتب كلها كتاب الأعلام للزركلى ج ٢ ص ٦٦٦ .

(٢) انفرد بهذا الكتاب معجم الأدباء ج ١٣ ص ٩٤ .

(٣) ج ٢ ص ٣٧١ .

(٤) ج ١٣ ص ٩٠ .

(٥) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦١ .

(٦) البغية ص ١٠٨ .

قال الثعالبي في اليتيمة (١) أنه كان يشبه في حضور جوابه وبيان خطابه وحسن عبارته وكثرة درايته بأبي العيناء وكان قد تناول البلاذر فعرضت له منه لوثة وكان الناس يتبعونه ويكتبون عنه مايقول . قال يوما للمصريين :

« يأهل مصر أصحابنا البغداديون أحزم منكم لا يقولون باتخاذ الولد حتى يقتنوا له العقد والعدد فهم أبدا يعزبون ولا يقولون باتخاذ العقار خوفا أن يملكهم شر الجار فهم أبدا يكنزون ولا يقولون بإظهار الغنى في موضع عرفوا فيه بالفقر فهم أبدا يسافرون »

ووقف يوما بالجامع وقد أخذت الحلق مأخذها فقال « يأهل مصر حيطان المقابر أنفع منكم يستند إليها ويستذرى بها من الريح ويستظل من الشمس ، والبهائم خير منكم تمتطى ظهورها وتؤكل لحومها وتحتذى جلودها »

وكان ابن خنزاية الوزير ربما رفع أنفه تيها فقال له سيبويه وقد رآه فعل ذلك : يشم الوزير رائحة كريهة فيشمر أنفه ؟؟ فأطرق واستعمل النهوض فخرج سيبويه فقال له رجل من أين أقبلت قال من عند هذا الزاهي بنفسه المدل بعرسه ، المستطيل على أبناء جنسه . وكانت زوجة الوزير ابنة الإخشيد .

وأخلى الحمام يوما لمفلح فجاء سيبويه ليدخل فمنع وقيل له الأمير مفلح داخل فقال لا أنقى الله مغسوله ، ولا بلغه سوله ، ولا وقاه من العذاب مهوله .

وكان جيد الشعر فمن ذلك قوله (٢)

أعذر أخاك على رداءة خطه ... واغفر رداءته لجودة ضبطه
فالخط ليس يراد من تحسينه ... وبيانه إلا إبانة سمطه
فإذا أبان عن المعاني سمطه ... كانت ملاحته زيادة شرطه

ومن شعره أيضا (٣)

من لم يكن يومه الذى هو فيه ... أفضل من أمسه ودون غده
فالموت خير له وأروح من ... حياة سوء تفت في عضده

مات سيبويه المصرى سنة ٣٥٨ هـ .

---

(١) ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) البغية ص ١٠٨ .

الفصل السابع

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ الى سنة ٥٦٦ ه

- نبذ تاريخي
- أسباب انتعاش الأدب
- شأن الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الفاطمية

نبذ تاريخي عن الدولة الفاطمية

حكمت هذه الدولة بعد سابقتها الإخشيدية ، انتزعت منها الملك وكانت من قديم تتطلع إلى مصر ، وطالما قدمت جيوشها فاحتلت الإسكندرية ولكن دهاء كافور وحسن استعداده كانا يحولان دون فتح الفاطميين لمصر . فلما مات كافور تهيأت لهم كل أسباب هذا الفتح .

علم المعز لدين الله الفاطمي بما صارت إليه مصر من تفكك الكلمة وتخاذل الأمر فتأهب لفتحها . وقيل إن بعض المصريين كتبوا إليه يطلبون القدوم فجهز قائده جوهرا في مائة ألف مقاتل (١) . « فدخلوا مصر في شعبان سنة ٣٥٨ وأخذها جوهر بلا ضربة ولا طعنة . (٢)

وقدم المعز بعد هذا الفتح فجعل مصر مستقره وولى على المغرب من قبله ، وأقام خليفة بمصر ثلاث سنين ثم خلفه ابنه العزيز بالله فدامت له الخلافة إحدى وعشرين سنة . ثم قام بعده الحاكم بأمر الله . وهوسه وسوء تدبيره مشهوران متعارفان ، حتى إنه كان يأمر بالشيء ، ثم ينهى عنه ، ويهدم الكنائس والبيع ثم يبنيها ووصل به الحال أن ادعى الألوهية فكان المصريون يقومون على أقدامهم صفوفا إعظاما لذكر اسمه في المساجد ثم يخرون سجدا حتى كان يسجد من سجودهم أهل الأسواق . (٣) فلقي

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ١٧ .

الناس منه عنتا لم يلقوه من حاكم لمصر منذ الفراعنة (١) وبقيت البلاد تعانى من جنونه كل مهول حتى قتل بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة .

ثم ولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله وكانت فيه رأفة بالرعية وعدل وعفة وحلم وتواضع وقد أزال الرسوم التى أقامها الحاكم . ولم يكن يغالى فى تشيعه مغالاة أبيه وجده فاستقام له الأمر وأقام خليفة ست عشرة سنة . ثم ولى المستنصر بالله ، واسمه أبو تميم معد وهو ابن الظاهر . ولى الخلافة ستين سنة . ولا يعلم فى الإسلام أحد طالت مدته من الخلفاء أو السلاطين مثل المستنصر .

وفى أيامه كان الرفض وسب الصحابة شائعا فاشيا (٢) والسنة والإسلام غريبين ، ولكن بغداد كانت قد ضعفت وعانت من بعض الخارجين على الخلافة فيها المتشيعين للخلافة بمصر ، شدة شديدة فخطب للمستنصر على منابر بغداد أربعين خطبة فى أربعين جمعة (٣) .

وهو الذى غنته مغنية بالبيتين

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

فطرب لذلك ووهب لها أرضا بمصر جائزة (٤)

وولى بعده ابنه أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فبقى سبع سنين ثم أعقبه ابنه الآمر بأحكام الله وكانت مدته تسعا وعشرين سنة وكان سيئ الرأى جائر السيرة مستهترا مظاهرا باللهو واللعب وظلم الناس وأخذ أموالهم ، وارتكب المحظورات واستحسن القبائح فقتل وابتهج الناس بقتله .

ثم ولى الحافظ لدين الله ابن المستنصر لأن الآمر لم يعقب ذكرا ، وقد غلبه على الأمر وزيره أحمد بن الأفضل أمير الجيوش ودعا لنفسه على المنابر بلقب ناصر إمام الحق . وقد بقى الحافظ عشرين سنة . ثم أعقبه ابنه الظافر وكانت أيامه مضطربة لحداثة

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣ .
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٥٦ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢ .

سنه واشتغاله باللهو وبقى أربع سنوات ثم جاء بعده الفائز فدام سبع سنين ثم العاضد فدام إحدى عشرة سنة وبه انتهت الخلافة الفاطمية بمصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ وقد بدأ ضعف الدولة من أيام المستنصر فلم يكن له ولا لمن بعده من الخلافة سوى الاسم لاستيلاء وزرائهم على الأمور وحجرهم عليهم، وقد تلقب هؤلاء الوزراء بألقاب الملوك فكانوا معهم كخلفاء بغداد مع بنى بويه.

أسباب انتعاش الأدب فى عهد الدولة الفاطمية

تجمعت فى هذه الدولة أسباب انتعاش الأدب ، وقد كان قويا فيها قوة لم تعهدها مصر قبل هذه الدولة وذلك للأسباب الآتية .

١ — غنى الدولة :

كانت الدولة الفاطمية غنية مؤثلة الغنى قبل حضورها إلى مصر ، إذ ملكت بلاد المغرب إلى المحيط الأخضر «الإتلانتى» ودان لها الحاكم المسلم الوالى على جزيرة صقلية وبلغ من وفرة الغنى عند هؤلاء الملوك أن جيش المعز لدين الله الذى كان يقوده جوهر الصقلى ، كان مؤلفا من مائة ألف مقاتل (١) مهدت لهم السبل إلى مصر وحفرت الآبار وأعدت المنازل لراحة الجند فى الطريق ، وخول جوهر أربعة وعشرين ألف ألف دينار ينفق منها على جنده (٢) .

واتفق أن كانت مصر تعالج أمورا شديدة فى أواخر الدولة الإخشيدية ، وكان منها القحط فأرسل إليها سفنا تحمل المئونة وراقب التجار فى معاملاتهم للناس . (٣)

ولما بلغ المعز فتح مصر أخرج من قصور أبائه بالمهدية من الأموال ماهو حمولة خمسمائة جمل ثم سار بها نحو الديار المصرية . (٤)

وقد عملت الدولة على الإصلاح والتعمير منذ دخولها البلاد ، فإن جوهرا — فى المدة التى حكم فيها مصر قبل قدوم المعز — لم يأل جهدا فى ذلك وربما كان أول دليل على مانقول أنه لم يكد يدخل مصر حتى أمر ببناء القاهرة . فخطت بالليل .

قال بن خلكان (٥) «ودخل جوهر قبل العصر وطبوله وبنوده بين يديه ، وعليه

---

(١) و (٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧١ .
(٥) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٠ .

ثياب ديباج مثقل وتحته فرس أصفر وشق مصر ونزل فى مناخه «موضع القاهرة اليوم» واختط القاهرة . ولما أصبح المصريون حضروا إلى القائد للهناء ، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل وكان فيه زورات جاءت غير معتدلة فلم يعجبه ثم قال «حفرت فى ساعة سعيدة فلا أغيرها» .

وما زال خلفاء الدولة يعملون فى إصلاح أمور الناس بحفر الترع وإقامة الجسور والاعتدال فى جباية الخراج حتى شمل مصر رخاء لم يمر بها ، وكذلك عملوا على توسيع رقعة ملكهم فخضعت لهم بلاد النوبة ودخلت فى حوزتهم الشام ومكة والمدينة . وكانت مملكة العزيز بالله بن المعز تمتد من المحيط الأخضر «الإتلانتى» إلى شرق الحجاز ومن اليمن إلى أعالى الفرات . وزادا تساع الدولة فى العراق أيام المستنصر حتى دانت له بغداد وخطب له أربعون خطبة فى أربعين جمعة كما ذكرنا سابقا وهرب خليفتها العباسى .

وقد أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها كما يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرأينا الدولة الفاطمية يزداد بذخها ويعظم غناها وتفخم مظاهرها فى معيشة خلفائها ووزرائهم وقوادهم وما ابتنوا من قصور واقتنوا من نفائس ، وملكوا من عبيد وما خلفوا بعد موتهم من أموال .

ورد فى المقريزى « أن الفاطميين رصعوا بالجواهر آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعا كذلك وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس . وصاغوا من الذهب المرصع تماثيل آدمية ووحشية : من الفيلة والزرافات وغيرها .

وكانت لهم دور بالقاهرة يختزنون فيها أدوات الترف ويسمونها «الخزائن» فمما أخرجوه من خزانة الجوهر أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (المتوفى سنة ٤٨٧) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد ، سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا : إنما تعرف قيمة الشىء إذا كان مثله موجودا . وخلفت رشيدة بنت المعز ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار . ومن ذلك بيت هارون الرشيد الذى مات فيه بطوس وكان من الخز الأسود وأهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها هدايا من جملتها ثلاثون فرسا من الذهب بمراكبها منها مركب ؛ واحد مرصع ومركب من البلور ، وتاج مرصعا بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر .

ولا موضع للعجب فى هذا فقد رواه الثقات بل شهده بعضهم ، ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير فقد ذكروا فى حوادث سنة ٥٦٧ هـ التى أقام فيها السلطان صلاح الدين

الخطبة للعباسيين واستولى على ما كان باقيا فى قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب. فى فتنة المستنصر وغيره ، قال « وحمل الجميع إلى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، فمنه حبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا أشك لأنى رأيته ووزنته . (١)

كذلك كان من مظاهر الثروة الطائلة ما شهده التاريخ وبقيت بعض آثاره إلى اليوم من المبانى الفخمة التى تنافس فيها ملوك هذه الدولة ، فمن ذلك القصران : الكبير الشرقى وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك ، والآخر تجاهه ويعرف بالقصر الغربى وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج وعلى ما كان بجانب الخليج من البركة التى يقال لها بطن البقرة ، ومن البستان المعروف بالبغدادية وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق ، وجنان الزهرى .

ومما ابتدعه الفاطميون بمصر بناء المناظر وهى مشرفة يجلس فيها الخليفة فى المواسم والأعياد ليشرف منها على الناس ، وبعضها كان بأطراف المدينة وخارجها ، يتخذها الخليفة للنزهة ويقضى فيها أوقات مسراته حين يزدهر الربيع ويفيض النيل . وقد كانت كثيرة منها :

منظرة الجامع الأزهر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة بركة الحبش ومنظرة الأندلس .. وغيرها قال المقريزى فى وصف منظرة اللؤلؤة (٢) « وكان للخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة ، كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ويطل من غربيه على الخليج وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المبانى شيء ، وإنما كان بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة اهـ » .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٨ .
(٢) ج ١ ص ٤٦٧ .

٢ ـ فصاحة الفاطميين وجودهم :

كان خلفاء هذه الدولة عربا فيهم السماحة والكرم وكانت لهم أريحية العربي : يهتز لسماع المديح فيجود بما استطاع .

قالوا عن المعز « كان أديبا جوادا ممدحا (١) وقالوا عن ركوبه لصلاة الجمعة » ومن حين يركب من القصر إلى الجامع حتى يعود والصدقات تعم الناس » (٢)

وقالوا عن العزيز « كان كريما وفيه رفق بالرعية وكان أديبا فاضلا (٣) »وقالوا عنه أيضا « كان حازما فصيحا » (٤) وهو الذى قال لعمه حيدرة «ياعم: أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون كله من عندى (٥)

وقالوا عن الظاهر : « كان جوادا ممدحاً سمحا حليما محببا إلى الرعية » (٦) . وقد مر بك ماجاد به المستنصر على الطبالة التى غنته .

وأما ملكاتهم فى العربية فقد كانت ملكات قوية ينشئون بها القول نثرا وشعرا ويزنون بها مايسمعون فيغلون قيمة جيده ويردون زيف زائفة .

ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة : أن المعز لدين الله توجه من المغرب فى شوال سنة ٣٦١ هـ فوصل الإسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ وتلقاه أعيان مصر فخطب هناك خطبة بليغة . (٧)

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إنه لما لقى أهل الإسكندرية وعظهم وطول حتى أبكى بعضهم (٨) وقالوا أيضا عن المعز هذا إنه قد أتقن فنونا من الأدب والعلم ومن شعره قوله (٩) .

لله ما صنعت بنا ... تلك المحاجر فى المعاجر (١٠)
أمضى وأقضى فى ... النفوس من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم ... تعب المهاجر فى الهواجر

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٨
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤
(٣) المصدر السابق ١١٣
(٤) المصدر السابق ص ١٢٤
(٥) المصدر السابق ص ١٢٥
(٦) المصدر السابق ص ٢٥٤
(٧) ج ٢ ص ١٦
(٨) ج ٤ ص ٧١
(٩) المصدر السابق ص ٧٩
(١٠) المعاجر : ضرب من الثياب

وجاء فى يتيمة الدهر عن العزيز نزار . (١) قال «أنشد نى أبو حفص بن على الفقيه لأبى منصور نزار بن معد أبى تميم ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المأتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا ... أولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهمو ... طرآ وأفراحنا مآتمنا

وفى كتاب وفيات الأعيان (٢) فى ترجمة أبى على تميم بن المعز : وكان تميم المذكور شاعرا فاضلا ماهرا ثم روى له :

ما بان عذرى فيه حتى عذرا ... ومشى الدجى فى خده فتحيرا
همت تقبله عقارب صدغه ... فإستل ناظره عليها خنجرا
والله لولا أن يقال كغيرا ... وصبا وأن كان التصابى أجدرا
لأعدت تفاح الخدود بنفسجا ... لثماً ، وكافور الترائب عنبرا

روى له أيضا :

وما أم خشف ظل يوما وليلة ... ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدرى إلى أين تنتهى ... مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضر بها حر الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشقها أنعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدت حمولهم ... ونادى منادى الحى : أن لاتلاقيا

ثم قال : وأشعاره كلها حسنة :

وكما كان خلفاء هذه الدولة بهذه المثابة فى الشعر كانوا كذلك يلهجون بالخطب ويجيدون مواقفها ويحرصون عليها .

ذكروا أن الآمر بأحكام الله كان فيه هوج إذا خطب ، فأراد وزيره أن يمنعه من الخطبة فاحتال للأمر حتى أنابه عنه فيها فكان يخطب بدله أيام الجمع وهى ثلاث فى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٤
(٢) ج ١ ص ٩٧

الشهر جرى على ذلك كل الخلفاء وجعلوا جمعة فى كل شهر راحة لايخطب فيها الخليفة ، ولكن الآمر عاد فاشتاق إلى الخطابة فكان يخطب فى الأعياد (١) .

٣ — استقرار الأحوال :

كانت الدولة مستقرة الأحوال فى غالب أيامها فقد أمن الناس فى أسرابهم وابتسمت لهم الحياة فأقبلوا على مباهجها لايتركون لذة إلا استوفوها وشربوا كأسها حتى ثمالتها . والمصريون بطبعهم ميالون للسرور متأنقون فى أسبابه ، وقد صادف ذلك منهم ميل الخلفاء الفاطميين إلى تعظيم شأن الدولة وإظهار أبهتها .

قال المقريزى «وكانت مدة خلافة الظاهر خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء فتأنق الناس فى أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما » .

وإذا ادعى مدع أن أيام هذه الدولة كانت كلها مواسم وأعيادا لم يكن مبالغا فإن هذه المواسم عندهم كانت كثيرة جدا ذكر منها المقريزى (٢) :

موسم رأس السنة . موسم أول العام . يوم عاشوراء . مولد النبى عليه الصلاة والسلام . مولد على . مولد الحسن . مولد الحسين . مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنهم . مولد الخليفة الحاضر . ليلة أول رجب . ليلة نصف رجب . أول شعبان . نصفه . موسم رمضان . غرة رمضان . سماط رمضان ليلة الختم . موسم عيد الفطر . عيد النحر . عيد الغدير . كسوة الشتاء . كسوة الصيف . فتح الخليج . يوم النوروز . يوم الغطاس . يوم الميلاد . خميس العدس . أيام الركوبات .

وفى كثير من هذه المواسم تمد موائد الخليفة يقتحمها الناس لافرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير ، وفيها يبعث الخليفة إلى أهل بيته وكبار دولته بالألطاف والهدايا وربما خرج فى بعضها بركبه العظيم وأبهته البالغة .

وهذا بيان ما كانت تحتاج إليه دار الفطرة التى كان من مراسم الدولة أن توزع على الناس من رجال الدولة وغيرهم فى العيد .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٤
(٢) الخطط ج ١ ص ٤٩٠

دقيق ، ألف حملة . سكر ، سبعمائة قنطار . قلب فستق ، ستة قناطير . قلب لوز . ثمانية قناطير . قلب بندق ، أربعة قناطير . تمر ، أربعمائة أردب . زبيب ثلثمائة أردب . خل ، ثلاثة قناطير . عسل نحل ، خمسة عشر قنطارا . شيرج ، مائة قنطار . خطب ، الف ومائتا حملة . سمسم ، أردبان . آنسون ، أردبان . زيت طيب برسم الوقود ، ثلاثون قنطارا . ماء ورد ، خمسون رطلا . مسك ، خمس نوافج . كافور قديم ، عشرة مثاقيل . زعفران مطحون ، مائة وخمسون درهما .

وكان العمل فى الفطرة يبدأ من أول رجب إلى آخر رمضان . وكانت توزع على الأمراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس حتى تعم الكبير والصغير والقوى والضعيف .

قالوا : وكان الفراشون لايزالون يخرجون بالطيافير (الصينيات) ملأى ويدخلون بها فارغة فبمقدار ما تحمل المائة الأولى تعبأ المائة الثانية . لايفتر ذلك حتى تنتهى التفرقة .

وقد كان الجود فى خلفاء هذه الدولة طبعا يرجع إلى كونهم عربا يرتاحون للمكارم فقد ورد فى كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» (١) أن الحاكم بأمر الله اتصل به عن أمين الأمناء أبى عبد الله الحسن بن طاهر الوزان وزيره أنه توقف فى تنفيذ توقيعاته بالعطاء فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله ومستحقه

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهى وله الفضـــــل
جـــــدى نبى وإمامى أبى ودينى الإخلاص والعـــدل

ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، والمال مال الله ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض . أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام .

ولقد ساعد على المرح والانطلاق فى أسباب اللهو مدة هذه الدولة ما عرف عند خلفائها من رغبة فى الترفيه عن الأهالى وكسب مودتهم بكثرة ما يقيمون لهم من المآدب وما يجودون عليهم به من المال فى المناسبات المرتبة فى الأعياد وغيرها مما كان يطرأ لحينه. كما ذكروا أن الظاهر تصدق بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم (٢)

---

(١) ص ٢٩
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٥٥

كما أن ولى العهد المستنصر بالله أبا تميم معدا مر من القاهرة إلى مصر وقد زينت له الطرقات فنثر على العامة خمسة آلاف دينار فكان يوما عظيما .

وقد كان شرب الخمر مباحاً لا إنكار عليه إلا فى شهر رمضان (١) ، فكثر شربها حتى شربها الناس أمام الخلفاء فى المجامع العامة وشربها الخلفاء أنفسهم على تلك الحال .

فقد كان من عادة المستنصر بالله أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة (٢)ـ وهو بظاهر القاهرة من بحريها وهو موضع نزهة ـ بهيئة أنه خارج للحج على سبيل اللعب والمجانة . وربما حمل معه الخمر فى الروايا بدل الماء يسقيه من معه . أنشده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة .

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نفرهمو إلى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والناء

قال ابن دحية فخرج من ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق . فأقام فيها سوق الفسق على ساق .

وفى وصف القاضى الفاضل ليوم النوروز أيام الدولة الفاطمية ، دليل على تلك الإباحة المطلقة التى أفلت فيها المصريون من كل قيد وأطلقوا لطبعهم المرح العنان حتى أتوا بمالا نكاد نسمع مثله اليوم عن أكثر الأمم إباحة قال : (٣) كان يوم النوروز بمصر فى الأيام الماضية من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة والفواحش صريحة . فى يومه يتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهى وترتفع الأصوات وتشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم فى الطرقات ويتراش الناس بالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالأقذار . فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته . فإما فدى نفسه وإما افتضح .

ولقد أعان على ذلك أيضا كثرة المتنزهات التى أعدها خلفاء هذه الدولة حول القاهرة على النيل متصلة بالصحراء وأقاموا لأنفسهم فيها مناظر لتكون مجالسهم أيام

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٤٩١
(٢) المرجع السابق ص ٤٨٩
(٣) المرجع ذاته ص ٤٩٣

الفيضان وهو موسم الفرح والطرب . على ظهر النيل فى السفن المعدة لذلك . وقد عددناها لك سابقا . ونسوق لك هنا حديثا مطولا عن إحداهما وهى بركة الحبش وليست بخيرها .

كانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها بين الجبل والنيل ومن أحسن ماوصفت به قول عيسى بن موسى أمير مصر وقد خرج إلى الصحراء فرآها فقال لمن معه: أتتأماون الذى أرى ؟ قالوا وما الذى يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان وجنان نخل وبستان شجر ومنازل سكنى وذروة جبل وجبانة أموات ونهرا عجاجا وأرض زرع ومراعى ماشية ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وقانص وحش وملاح سفينة وحادى إبل ومفازة رمل وسهلا وجبلا . فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ؟ وفى أيام النيل تكون أرض مصر أحسن شيء منظرا .ولا سيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، ويتناوبها ذوو الآداب والظرف .

وقد اتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموسا فى خلع بدور ، وجسوم نار فى غلائل نور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال بعضهم (هو أمية نفسه) .

لله يومى ببركة الحبـــــش — والأفق بين الضيـــاء والغبش
والنيـــل تحت الرياح مضطرب — كصارم فى يمين مرتعــش
ونحن فى روضـــة مفـــوفة — دبج بالنـــور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمـــام لنـــا — فنحن من نسجها على فـــرش
فعاطنى الراح إن تاركهـــا — من سورة الهم غير منتعــش
وأثقل النـــاس كلهم رجـــل — دعاه داعى الهوى فلم يطــش
فاسقنى بالكبـــار مترعـــة — فهى أشفى لشدة العطــش

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطـــرب — وباكر الراح بالبانات والنخب
أما ترى البركة الغنـــاء لابســة — وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد الروض فى حلل — قد أبرز القطر منها كل محتجب

من سوسن شرق بالطل محجره ... وأقحوان شهى الظلم والشنب
فانظر إلى العود يحكى خد محتشم ... ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب
والنيل من ذهب يطفو على ورق ... والراح من ورق يطفو على ذهب
ورب يوم نقعنا فيه غلتنا ... بجاحم من فم الإبريق ملتهب
شمس من الراح حيانا بها قمر ... موف على غصن يهتز فى كثب
أرخى ذؤابته واهتز منعطفا ... كصعدة الرمح فى مسودة العذب
فاطرب فدونكها فاشرب فقد بعثت ... على التصابى دواعى اللهو والطرب

ومن متنزهاتهم العجيبة البديعة بناء بناه الآمر بأحكام الله بجزيرة الفسطاط المسماة «الروضة» وسماه «الهودج» وكان ذلك لمحبوبته البدوية . قال القرطبى فى تاريخه.

تذاكر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذكر الآمر بأحكام الله حتى صارت أحاديثهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال ، وألف ليلة وليلة ، وجملة هذا الحديث . أن الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى البدويات وصارت له عيون بالبوادى فبلغه أن جارية بالصعيد شاعرة من أكمل العرب وأظرفهم.فيقال أنه تزيا بزى بداة الأعراب وكان يجول فى الأحياء حتى انتهى إلى حيها وبات فى ضائفة هناك وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع إلى مقر ملكه وأرسل إلى أهلها يخطبها فتزوجها . فلما وصلت إليه صعب عليها مفارقة ما اعتادته وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور بالهودج وكان غريب الشكل على شط النيل ولسنا بحاجة إلى أن نكرر لك ما تقرر فى نفسك منذ قديم من أن غنى الدولة وروعة مظاهرها وجليل آثارها . من مبان ومغارس نبات دعائم قوية اصرح الأدب .

فهل غرد طائر إلا على فنن مورق ، فوق جدول جار ، أمام حب منثور ، فى دعة وأمن لمن ختل الخاتل المتربص ؟ !

وهذا ولا شك حال هذه الدولة فى أكثر أيامها . يسر شامل وترفيه من الخلفاء على الناس ومرح فى المواسم العامة وقصور شامخة وأبهة للدولة تروع الناظرين ، ومتنزهات يروح إليها الناس فى أيام الربيع وحين يفيض النيل ، وتبتسم حوله الرياض . فيرتعون ويلعبون ويقصفون ويلهون ومعهم وسائل السرور من قيان وزقاق خمر وندماء .

فهنالك تحت سماء هذه الحرية وبين هذه المناظر البهيجة ، وبنشوة هذه الخمر ، وعلى أصوات هذه القيان تنطلق الشاعرية من مكانها فى النفوس . فتسمع المرقص والمطرب ويسجل التاريخ لدولة الأدب مفاخر تبقى على الأيام . فتكون عوضا عن هذا الماضى المجيد لمن كان يتشوف إلى مناظره الجميلة ويتسمع لألحانه الشجية .

شأن الشعر فى عهد الدولة الفاطمية

كانت أسباب نهضة الشعر متوافرة فى هذه الدولة ، ذكرنا لك كثيرا منها فيما مضى ونزيد عليها هنا ، أن الدولة الفاطمية كانت تنافس الدولة العباسية فجعلت تبارى خلفاءها فى البذل للشعراء وتقريب مجيديهم ، حتى يكونوا عنوان عظمتها ومظهر فخامتها .

وإن فى حديث ابن هانىء مع المعز لدين الله لدلالة واضحة على مانقول . روى صاحب كتاب «هبة الأيام» فى باب نوادر الصلات والجوائز ، قال (١) : ويروى أن المعز العلوى سمع شعر أبى القاسم الحسن بن هانىء المغربى الأندلسى ، فأنفذ إليه وأوفده إليه ، رغبة فى الأدب ، ومنافسة على شرف الرتب ، فلما اتصل بخدمته مدحه بقصائد يتضمنها ديوانه ، فكان كلما مدحه بقصيدة أعطاه ضيعة . فلما خرج مملوكه جوهر وأخذ مصر خرج المعز ، فلما جلس للهناء دخل عليه ابن هانىء واستأذن فى الإيراد فأذن له فأنشده قصيدة يقول فيها :

ألا إنما الأيـــام أيامك التى   لك الشطر من نعمائها ولنا الشطر

فالتفت إلى وزيره وقال . اكتب له بالإسكندرية وسلموها إليه بمن فيها فهى شطر وقد خصصناه به وأول هذه القصيدة :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمـــر
وقد جـــاوز الإسكندرية جوهـــر   تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودهـــا   وزيد إلى المعقـــود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت   وأيديكمو منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى خلا   فذلك عصر قد تقضى وذا عصر

ونحن لم نورد هذه القصة على ما أوردناها عليه إلا لنملأ يديك من نتائج تستنبط منها بأيسر محاولة . فمنها .

---

(١) ص ٢٨ ، ٢٩ .

١ – استدراج الخليفة المعز للشاعر حتى أقدمه عليه واختص به بعد أن سمع شعره وعرف قدره ، فعلم أنه جدير بأن يضن به .

٢ – توسع الخليفة فى الجود حتى لم تكن عطاياه دارهم أو دنانير ، وإنما كانت ضياعا لكل قصيدة ضيعة . وكانت الإسكندرية إحدى هبات الخليفة للشاعر وهذا أمر عجيب لم يسمع به قبل المعز ولا بعده .

٣ – أن الشاعر عرف ماتنطوى عليه نفس الخليفة من المنافسة للعباسيين ومناهضتهم ومحاولة استلال ملكهم منهم فجعل شطرا كبيرا من القصيدة فى تساؤل العباسيين عن فتح مصر ورده عليهم بأن الأمر قد قضى إلى آخر ماتراه فى الأبيات . ويضاف إلى هذه القصة أن المعز لما بلغه موت بن هانىء فى طريقه إلى مصر حزن عليه حزنا شديدا وقال. كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك. وهذه التتمة توضح بجلاء ما ذكرناه من أمر المنافسة للعباسيين وقد اشتهرت هذه الدولة ببذل المال ونثاره على الجماعات المحتشدة لها فى اجتماعاتها أوفى طرقها إلى نزهها ، فيلتقط الناس ما استطاعوا ويضيع فى الرمل مازاد على ذلك ، حتى يأتى المغربلون فيغربلوا الرمل لاستخراج مابه من دنانير . ولم يذكر مؤرخ أنهم كانوا يجودون بما دونها . وإن دولة هذه شهرتها مع ماعرفت لها من حسن تقدير للأدب وولع بالشعر يقوله خلفاؤها وأمراؤها ، لابد أن يكون ما نال الشعراء منها كثيرا جدا يفوق الحصر .

ولقد بلغ من عنايتها بالشعراء أن حصرت أسماءهم ورتبتهم على أقدارهم وجعلت لهم نظاما فى الإنشاد يتعاقبون عليه فى المواسم والأعياد .

ذكر المقريزى عند الكلام على فتح الخليج . أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحب الباب لحضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ولهم منازل على أقدارهم . الواحد يتقدم الآخر بخطوة فى الإنشاد وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب .

وأدل من ذلك على عنايتها بالشعراء أنهم لم يكونوا معروفين عند الدولة بأسمائهم وأقدارهم فحسب بل عرفتهم كذلك بصورهم ، فكان فى منظرة بركة الحبش (وقد تهدم وصنعها طاقات وعليها صور الشعراء . كل شاعر واسمه واسم بلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المرح ، وعلى الجانب الآخر رف ظريف مذهب ، فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار

أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (١) أما كثرة الشعراء فى هذه الدولة فهذا أمر مستتبع لهذه العناية التى فصلنا مناحيها . والتاريخ إلى جانب ذلك يؤيد هذا الاستنباط . فيذكر ابن خلكان فى ترجمة الوزير ابن كلس أنه غداة دفن زار الشعراء قبره فرثاه مائة شاعر وأجيزوا جميعا .

كما ذكر صاحب المغرب فى كلامه عن أبى العباس أحمد بن مفرج أن الشعراء كانوا قد أمروا فى مدة الحافظ أن يختصروا ماينشدونه فى موقف الإمامة فقال أبو العباس :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا ... لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لابد أن تجـرى سوابقنـا ... حتى يبين لها فى مدحك الأثر

فأمروا بالعودة إلى ما كانو اعليه وجعل لهم الرسم يوما كاملا . (٢)

ولعل هذه القصة أبلغ من سابقتها فى الدلالة على كثرة الشعراء فى هذه الدولة ووفرة ماينتجون من الشعر ، فإن الأمر لايصدر بالاختصار إلا من أثر الملل الذى يصيب الخليفة من جراء الاستماع إلى منشديه . ثم لما سمح لهم أن يقولوا على سجيتهم لم يكفهم إلا يوم كامل يتعاقبون فيه على الإنشاد حتى يفرغوا جميعا .

ولعل أبلغ من هذا فى الدلالة على كثرة الشعر ونفاق سوقه فى هذه الدولة أن تعلم أن أحد وزرائها وهو الصالح بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد آخر خلفائها ، كان له شعراء اختصوا به وبآل بيته حتى عقد لهم صاحب خريدة القصر « بابا خاصا » وكذلك فعل غيره من المؤلفين .

وكان الصالح هذا يغرى بين الشعراء ويحرض بعضهم على بعض ، ليستفيد هو من وراء ذلك مدحا قد جوده ذلك التحريش الذى كان الوزير يصطنعه وقد ذكر صاحب الخريدة أيضا أن الشاعر أبا محمد الحسن بن على بن الزبير قال : يعرض بشاعر من شعراء الصالح يعرف باسم « المفيد » :

فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة ... ولكنها من بيته ليس تــبرح
ليهنك (لاهنيت) أن قصـائدى ... مع النجم تسرى أو مع الريح تسرح

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٤٨٦ إلى ٤٨٧ .

(٢) فى المجلد الثانى من كتاب المغرب — وقد ذكرها أيضاً العماد الأصفهانى فى الخريدة جزء ٢ ص ٦٤ .

وأنه قال مرة يخاطب الصالح :

يأيها الملك الذى أوصـــافه غرر تجلت الزمان الأسفــع
لاتطمــع الشعــراء فىّ فإننى لو شئت لم أجبن ولم أتخشع
إن لم أكن ملء العيــون فإننى بالقول يابن الصيــد ملء المسمع

وقد رأينا من آثار هذه الكثرة أن المؤلفين فى أدب هذه الدولة كانوا يقسمون الشعراء طوائف ويميزونهم أصنافا ؛ فشعراء العلماء ، وشعراء الكتاب ، وشعراء الشرفاء ، وشعراء الوزراء ، ثم شعراء طارئون على البلاد ، وآخرون نشئوا فيها ، وغيرهم رحلوا عنها .

ترى هذه الفصول فى كتاب خريدة القصر وكتاب المغرب فى حلى المغرب وغيرهما .

شعراء الدولة الفاطمية

هم كثير . وقد رأينا أن نحصى فى كتابنا هذا من استطعنا أن نثبت مصريته (أصالة أو طروءا) ثم معاصرته لهذه الدولة .

ونعتقد أننا بذلك قد قدمنا للباحث خلاصة تنقيب كثير ومراجعة متعبة .

وسنقدم لك بيانا نبدؤه بذكر كل من وقفنا له على تاريخ وفاة ثم نعقب ذلك بذكر من لم نعرف لهم تاريخ وفاة مضبوط ودلت القرائن على كونهم من شعراء مصر فى أيام هذه الدولة .

وهذا هو البيان :

١ — على بن النعمان القيروانى ، (— ٣٧٤) ، كان قاضى القضاة للفاطميين بمصر وشاعرا مجودا (١) .

٢ — الحسن بن على بن وكيع التّنّيسى ، (— ٣٩٣) ، مصرى . ذكر فى الوفيات ج ١ ص ١٣٧ .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣

٣ — أحمد بن محمد الأنطاكى «أبو الرقعمق» ، (— ٣٩٩) ، طارئ ذكر فى الوفيات ج ١ ص ٤٠ .

٤ — الحسن بن محمد السهواجى ، (٤٠٠) ، مصرى ذكر فى الفوات ج ١ ص ١٧٠

٥ — صريع الدلاء ، (— ٤١٢) ، طارئ ذكر فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٩ .

٦ — ابن الضيف حيدرة بن عبد الظاهر ، (— ٥٠٠) ، من دعاة الفاطميين ذكر فى الخريدة .

٧ — على بن عباد الإسكندرى ، (— ٥٢٥) ، مدح ابن الأفضل وقتل معه لما قتله الحافظ (١) .

٨ — أبو الصلت أمية ، (— ٥٢٨) ، طارئ ذكر فى الشذرات ح ٤ ص ٨٣ .

٩ — ظافر الحداد ، (— ٥٢٩) ، اسكندرى ذكر فى الشذرات ج ٤ ص ٩١ (٢).

١٠ — محمد بن على الهاشمى (أبو الغمر) ، (— ٥٤٤) ، إسنائى قال فى الخريدة «أشعر أهل زمانه» (٣) .

١١ — محمود بن قادوس ، (— ٥٥١) ، دمياطى كاتب الإنشاء بمصر وشيخ القاضى الفاضل (٤) .

١٢ — الجليس بن الحباب ، (— ٥٦١) ، مصرى سمى بالجليس لأنه كان يجالس صاحب مصر (٥)

١٣ — المهذب بن الزبير ، (— ٥٦١) ، مصرى مدح الصالح بن رزيك (٦)

١٤ — الرشيد بن الزبير ، (— ٥٦٣) ، «أسوانى» ذكر فى الشذرات ج ٤ ص ١٩٧ .

١٥ — يوسف بن محمد (ابن الخلال) ، (— ٥٦٦) ، مصرى صاحب ديوان الإنشاء أيام الحافظ (٧) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٤ . (٢) وكذلك فى الوفيات ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) وذكره السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٤ .

(٤) المرجع السابق . (٥) المرجع السابق .

(٦) وذكره بن خلكان فى ترجمة أخيه الرشيد بن الزبير ج ١ ص ٥١ .

(٧) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٧

١٦ — نصر الله (ابن قلاقس) ، (— ٥٦٧) ، مصرى إسكندرى ذكر فى الوفيات ج ٢ ص ١٥٦ .

١٧ — عمارة اليمنى ، (— ٥٦٩) ، طارىء دخل مصر مرتين فى سفارة ودخلها فى المرة الثانية سنة ٦٥٢ فبقى بها إلى أن شنق .

١٨ — محمد بن القاسم بن عاصم ، مصرى شاعر الحاكم ذكر فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٤ .

١٩ — مسعود الدولة ، مقدم الشعراء أيام ابن الأفضل بن أمير الجيوش (١) .

٢٠ — أبو المظفر بن أحمد المصرى ، كان يعيش سنة ٥٧٦ ولقيه صاحب الخريدة بمصر

٢١ — شرف الدولة يحي بن حسن ، مدح صالح بن رزيك . ذكره فى الخريدة .

٢٢ — طلائع الآمرى ، كان قريبا من الأفضل ذكره فى الخريدة .

٢٣ — الناجى المصرى ، هجا الأفضل . ذكره فى الخريدة .

٢٤ — النجيب بن وزير المصرى ، كان يعيش سنة ٥٧٣ ولقيه صاحب الخريدة .

٢٥ — أبو العباس أحمد بن مفرج ، من شعراء الحافظ ذكره فى الخريدة .

٢٦ — حسن بن زبيد أو على بن الزبد ، دس عليه هجاء الحسن بن الحافظ وسعى به فقتل .

٢٧ — على بن محمد بن النضر ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .

٢٨ — على بن البرقى ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .

٢٩ — عبد الله بن الطباخ ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .

٣٠ — محمود بن ناصر الإسكندرانى ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .

٣١ — مروان بن عثمان اللكى ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .

٣٢ — أبو الفتيان مفضل العسقلانى ، قدم مصر ذكره فى الخريدة .

٣٣ — هبة الله بن الصياد ، من شعراء الصلاح بن رزيك .

٣٤ — الحسين بن الجمل الأصغر ، من أهل الفسطاط من شعراء المائة الرابعة (٢) .

٣٥ — على بن الحسين العقيلى ، متأخر عن المائة الرابعة (٣) .

---

(١) الخريدة .

(٢) المغرب ج ٤ ص ١٠٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٢

٣٦ – علم الملك (النحاس المصرى) ، كان يعيش سنة ٥٦١ ذكره فى الخريدة .

٣٧ – على بن أحمد بن الزبير ، ابن الرشيد بن الزبير .

٣٨ – ناصر الدين بن شاور ، وزير العاضد . ذكره فى المغرب ج ٤ ص ٩٢ .

٣٩ – أبو الفتح البينى ، تجاوز المائة الرابعة . ذكره فى المغرب .ج ٤ ص ١٠٣ .

٤٠ – الماهر المحجوب المصرى ، مصرى من شعراء المائة الخامسة رحل عن مصر قال عنه الباخرزى : ماطرأ علينا أعذب منه عذبة لسان ولا أبرع منه براعة بيان .

٤١ – القاسم بن أحمد الرسى ، هجا ابن كلس مخاطبا المعز (١) .

٤٢ – أبو القاسم عبد الغفار ، شاعر الحاكم مدح الفضل بن صالح قائده (٢) .

تراجم بعض الشعراء فى الدولة الفاطمية

١ – تميم بن مسعد :

ملاحظة : لم نذكره مع الشعراء فى البيان السابق ونبدأ به الحديث عن الشعراء لأنه فى مكانته الشعرية جدير أن يكون حامل لواء الشعر فى هذا العصر . هو أبو على تميم ابن مسعد ، وهو ابن صاحب مصر المعز لدين الله ، لم يل الخلافة . كما يقول ابن خلكان لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه (٣) .

كان شاعرا مجيدا وصفه ابن فضل الله العمرى فقال «تشبه بابن عمه ابن المعتز وتشبث بذيله وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره » .

شـــعره كثير (٤) . أورد له الثعالبى فى اليتيمة مقطوعات دلت على علو كعبه فى البلاغة وتغلغل فكره فى الخيال وقد طرق فى شعره أغلب أغراض الشـــعر ولكن يغلب عليه الغزل وهو أليق الأغراض بأمير مترف كتميم . وقد رق غزله حتى كان منه مايتغنى به كقوله :

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧١

(٢) اليتيمة ١ ص ٣٨٩ والوفيات ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٣) الوفيات ج ١ ص ٩٧

(٤) طبعت دار الكتب المصرية ديوانه

قالت وقد نالها للبين أوجعه | والبين صعب على الأحباب موقعه
إجعل يديك على قلبي فقد ضعفت | قواه عن حمل مافيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى | من شت شمل الهوى بالبين يجمعه
كأنني يوم ولت حسرة وأسى | غريق بحر يرى الشاطى فيمنعه

ومن غزله قوله :

وليلة بتها على طرب | آخرها مشبه لأولاها
أقبّل البرق من ترائبها | وألثم الشمس من محياها
سقتني الراح وهى خداها | بأكؤس السكر وهى عيناها
إذا أدارت مزاجها جعلت | بآخر اللحظ فى فمى فاها
فيالها قهوة معتقة | وليس ألا الخدود مأواها
حبا بها الثغر حين تمزج لى | ونُقلها اللثم حين أسقاها
لله أيامنا التى سلفت | بدار حزوى ما كان أحلاها
إذ نجتنى اللهو من أصائلها | والعز من فجرها ومغداها
إن عرضت لذة ملكناها | أو صعبت خُطة حويناها

وقوله :

سقّيانى فلست أصغى لعذل | ليس إلا تعلّة النفس شغلى
أأطيع الرسول فى ضد ما أهوى | كأنى اتهمت رأيى وعقلى
عللانى بها فقد أقبل الليل | كلون الصدود من بعد وصل
وانجلى الغيم بعد ما أضحك الرو | ض بكاء السحاب فيه بوبل
عن هلال كصولجان نضار | فى سماء كأنها جام ذبل(١)

وقد ظهرت فى شعره نفثات من الشكوى لأن الخلافة لم تكن من نصيبه ، ولم ترض همته أن يحرم منها . فمما يشتّم منه رائحة الشكوى قوله :

أما والذى لايملك الأمر غيره | ومن هو بالسر المكتّم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما | لإعلانها عندي أشد وآلم
وبي كل ماتشكو العيون أقله | وإن كنت دائما أتبسم

---

(١) الذبل : عظام دواب بحرية تتخذ منها الأساور والأمشاط والخواتم : عن الديوان .

ومن قوله يذكر نيل مصر :

أما ترى الرعـد بكى فاشتكى ... والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجا ... أضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل فى مده ... كأنه صندل أو مسكا

مات سنة ٣٦٨ هـ .

٢ — أبو الرقعمق

هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المنبوز بأبى الرقعمق ، من شعراء الشام قصد مصر وأقام بها زماناً طويلا ، حتى إن معظم شعره كان فى ملوكها ورؤسائها . مدح المعز ، وولده العزيز ، والحاكم ،وجوهر القائد ، والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيان مصر . (١)

ويرجح ابن خلكان أنه مات بمصر (٢)

أما شعره فتغلب عليه الفكاهة التى كان طبع الرجل قد اشتهر بها منذ أيامه بالشام حتى قيل : هو بالشام كابن حجاج بالعراق . وابن حجاج هذا هو الذى يقال فى شأنه وشأن ابن سكرة : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخى جدا .

قال عنه الثعالبى (٣) هو نادرة الزمان وجملة الإحسان وممن تصرف بالشعر الجزل . فى أنواع الجد والهزل وأحرز قصب الفضل ، وهو أحد المداح المجيدين والفضلاء المحسنين » .

وقد كان يخلط جد شعره بالهزل فيجعل الهزل مفتتح قصائده ويخاطب المحبوبة خطاباً مضحكاً ويذكر أنه تعرض من أجلها لصفع القفا وعانى فى سبيل هجرها نتف السبال وهكذا مستبيحاً فى ذلك إستعمال الألفاظ المولدة حتى يحسن وقع فكاهته فى نفوس سامعيه . فإذا هو انتقل إلى المدح أو غرضه الجدى من القصيدة رأيته شاعراً مجيداً حصيف الرأى ، غائصاً على المعانى الكريمة . ملتمساً للألفاظ الجزلة . وتستطيع أن تتمثل ذلك فى قصيدته .

كفى ملامك يا ذات الملامات ... فما أريد بديلا بالرقاعات

---

(١) الوفيات ج ١ ص ٤١ — (٢) اليتيمة ح ١ ص ٢٦٩
(٣) الوفيات ج ١ ص ٤١ — (٤) الوفيات ج ١ ص ٥٢٦ .

كأنني وجنود الصفـــع تتبعني | وقد تلوت مزامير الرطانات
قسيس دير تلا مزماره سحــراً | على القسوس بترجيع ورنات
وقد مجنت وعلمت المجون فما | أدعى بشيء سوى رب المجانات
وذاك أني رأيت العقل مطرحا | فجئت أهل زماني بالحماقات
أفدى الذين نأوا والدار دانية | وشتتوا بالجفا شمل المودات
كم قد نتفت سُبالى فى صدورهم | والصد أصعب من نتف السبالات

ومنها فى المدح

لو نيل بالمجد فى العلياء منزلة | لنال بالمجد أعنان السمـــوات
يرمى الخطوب برأى يستضاء به | إذا دجا الرأى من أهل البصيرات
فلست تلقاه إلا عند عارفــة | أو واقفا فى صدور السمهريات

وقد يسفل فى فكاهته فيذكر العورات ويطيل ويجعل ذلك مفتتح قصائده فى مدح العظماء ، وكأنهم كانوا يتقبلون ذلك منه لما اشتهر به من دعابة .

قال يمدح الأمير تميما (اليتيمة ج ١ ص ٢٨٢)

كــل يــوم أنـــا من شـــيـــئ فى أمــر عـــجاب
ليس يخــــليني من هــم وحـــــزن واكتــــئاب
لم يـــدع لى ذهـــبا إلا رمــــــاه بذهــــاب
هل مجـــيـــر لى مــــنه | أهــــل ودى وصـــحابى
أنـــا مــــبلى من بــلايـــا | ه بنصــــب وعـــذاب
أنا لولاه لألفيت قليل الإضطراب
ولمـــا طـــال انــتزاحى | من بـــلادى واغــــترابى

ومنها فى مدح الأمير

وباحســـان تمـــيم | عذت من عظم مصـــابى
بالأمير الســــيد المـــا | جد والقرم اللبـــاب
والإمام المنعم المفضـــل والبحـــــر العبـــاب
والذى لا فرق بين جداه والسحاب

مات سنة ٣٩٩ هـ

٣ ـ أبو الصلت أميـــــة

هو ابن عبد العزيز الأندلسى الدانى . كان فاضلا فى علوم الآداب ، صنف كتابا سماه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر ورسالة (الأسطرلاب) والوجيز فى علم الهيئة والأدوية المفردة وديوان شعر وكل ذلك مفقود . وتقويم الذهن فى المنطق وهو مطبوع (١)

وكان كما ترى من تأليفه عارفاً بعلوم الحكمة فكان يقال له « الأديب الحكيم »

انتقل من الأندلس وسكن الإسكندرية ، ومن شعره قوله

إذا كان أصلى من تراب فكلها ... بلادى وكل العالمين أقـــــاربى
ولابد لى أن أسأل العيس حاجة ... تشق على شم الذرا والغوارب

وقوله

وقائلة ما بال مثلك خامـــــــــلا ... أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبى إلى القوم أننى ... لما لم يحوزوه من المجــــــد حائز
وما فاتنى شىء سوى الحظ وحده ... وأما المعالى فهى عندى غرائز

وقوله

ومهفهف شركت محاسن وجهه ... ما مجه فى الكأس من إبريقـــــه
ففعالها من مقلتيه ، ولونهـــــا ... من وجنتيه ، وطعمها من ريقه

قال ابن خلكان (٢) : وشعره كثير جيد

انتقل فى آخر أيامه إلى المهدية ومات بها سنة ٥٢٩ .

٤ ـ ظافر الحداد

هو أبو منصور ظافر بن القاسم الجذامى الإسكندرى المعروف بالحداد كان من الشعراء المجيدين وله ديوان شعر مخطوط (٣) وأكثر شعره جيد ، وكان صاحب بديهة .

---

(١) الأعلام للزركلى ج ١ ص ١٣١
(٢) الوفيات ج ١ ص ٨٠
(٣) الأعلام ج ٢ ص ٤٥٤

ومن شعره قوله

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ... ماسح وابل دمعه ورذاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه ... حتى وهى وتقطعت أفلاذه
لم يبق منه مع الغرام بقية ... إلا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن ... أبدا من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور فإنه ... نظر يضر بقلبك استلذاذه
يأيها الرشأ الذى من طرفه ... سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك منه نظامه ... خمر يجول عليه ، من نباذه
وقناة ذاك القد كيف تقومت ... وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه
رفقا بجسمك لا يذوب فإننى ... أخشى بأن يجفو عليه لاذه (١)
هاروت يعجز عن مواقع سحره ... وهو الإمام فمن ترى أستاذه
تالله ما علقت محاسنك امرأ ... إلا وعز على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت ... طوعا وقد أودى بها استحواذه
مالى أتيت الحظ من أبوابه ... جهدى فدام نفاره ولواذه
أياك من طمع المنى ، فعزيزه ... كذليله ، وغنيه شحاذه

ومن بدائهه أنه دعى لقطع حلقة خاتم كان قد ضاق على إصبع الأمير سعيد بن ظفر أيام ولايته بالإسكندرية فلما قطعها أنشد بديها :

قصر عن أوصافك العالم ... وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

توفى بمصر سنة ٥٢٩ ﻫ (٢)

٥ — الرشيد بن الزبير

هو القاضى الرشيد أبو الحسن أحمد بن أبى الحسين .. ابن الزبير الغسانى الأسوانى ، أديب متفقه ، عارف بالهندسة والطب والموسيقا والنجوم .

ولد بأسوان وكان أسود غليظ الشفة قصيراً ، مبسوط الأنف كخلقة الزنوج قدم القاهرة بعد مقتل الظافر وجلوس الفائز فتقدم عند أمرائها ووزرائها وأنفذ إلى اليمن فى رسالة فلما بلغها قلدقضاءها وأحكامها ولقب (قاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن) .

---

(١) جمع لاذة وهى حرير أحمر صينى ... (٢) الوفيات ج ١ ص ٢٤٢ .

سمت نفسه إلى الخلافة فسعى إليها وأجابه قوم فسلموا عليه بها وضربت باسمه نقود نقشها (قل هو الله أحد ، الله الصمد) وعلى الوجه الآخر (الإمام الأمجد أبو الحسن أحمد) فقبض عليه الصالح بن رزيك ، ثم ورد الأمر بإطلاقه فعاش آمنا .

ولما حاول شيركوه اقتحام مصر انضم إليه الرشيد هذا وكاتبه فاتصل ذلك بشاور وزير العاضد فطلبه فاختفى بالإسكندرية ، ثم ظفر به شاور فقتله صلبا بعد أن شهر به .

ألف كتاب (جنان الجنان وروضة الأذهان) فى أربع مجلدات وهو معدوم و (أمنية الألمعى ومنية المدعى) وهو مقامة مطبوعة و (المقامات) وهو نحو خمسين ورقة على نسق مقامات الحريرى ، وديوان شعر نحو مائة ورقة وهما معدومان (١)

قال عنه ابن خلكان (٢) : كان مجيداً فى الشعر . وروى له قوله .

جلت لدى الرزايا بل جلت هممى ... وهل يضير جلاء الصارم الذكر
غيرى يغيره عن حسن شيمته ... صرف الزمان وما تأتى به الغير
لو كانت النار للياقوت محرقة ... لكاد يشتبه الياقوت بالحجر
لا تغررن بأطمارى وقيمتها ... فإنما هى أصداف على درر
ولا تظن خفاء النجم من صغر ... فالذنب فى ذاك محمول على البصر

وهذا المعنى مأخوذ من قول المعرى .

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

أورد له العماد فى الخريدة قوله فى الكامل بن شاور .

إذا ما نبت بالحر دار يودها ... ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهبه بها صبا ألم يدر أنه ... سيزعجه عنها الحمام على رغم
ولولا الأجل الكامل الملك أرقلت ... بى العيس فى البيداء والسفن فى اليم
ولم تكن الدنيا تضيق على فتى ... يرى الموت خيرا من مقام على الهضم

وقال فى رجل لم يحمد خلقه

لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما ... ظننت بأنى قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتنى منك منة ... ملكت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذرتنى كل صاحب ... وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

---

(١) الأعلام للزركلى ج ١ ص ٥٤ (٢) الوفيات ج ١ ص ٥١ .

وقال فيه أبو الفتح محمود بن قادوس هاجيا :

ياشبه لقمان بلا حكمـــــة	وخاسرا فى العلم لا راسخـــا
سلخت أشعار الورى كلهـــا	فصرت تدعى الأسود السالخـــا

ومدح وهو باليمن على بن حاتم الهمدانى فقال :

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا	فلست أنال القحط فى أرض قحطان
ومذ كفلت لى مأرب بمـــآربى	فلست على أسوان يوما بأســوان
وإن جهلت حقى زعانف خنـــدف	فقد عرفت فضلى غطارف همـــدان

فكتب الداعى باليمن بهذه الأبيات إلى صاحب مصر ، فكانت سبب الغضب عليه فقبض وجرد من ماله فلما رجع إلى مصر قتله شاور للسبب الذى مر بك فى أول الترجمة قتل سنة ٥٦٣ .

٦ — ابن قلاقس

هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله اللخمى الإسكندرى الملقب بالقاضى الأعز ، قال عنه ابن خلكان كان شاعراً مجيداً وفاضلا نبيلا وكان كثير الشعر ، كثير الحركات فى السفر ، دخل اليمن وامتدح بمدينة عدن ، ياسر ابن أبى الندى وزير صاحب اليمن فأحسن إليه وأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى منه ، فركب البحر فانكسر المركب وغرق جميع ما كان معه بجزيرة الناموس بالقرب من دهلك فعاد إليه وهو عريان ودخل عليه فأنشده القصيدة التى أولها

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا	فعدنا إلى مغناك والعود أحمـــد

قال ابن خلكان (١) — وهذه القصيدة من القصائد المختارة ولو لم يكن فيها سوى هذا البيت لكفاه . ثم عاد فأنشده قصيدة يصف فيها غرقه وأولها . —

سافر إذا حاولت قـــدرا	سار الهلال فصـــار بـــدرا
والماء يكسب ما جـــرى	طيبا ويخبث ما استقـــرا

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ١٥٧ . لم ننقل حكم بن خلكان على شعره مع كون ديوانه مطبوعاً وقد اطلعنا عليه إلا لندل على شهادة القدماء له بالإجادة وناهيك بابن خلكان إذا حكم على شعر فإنه نافذ الرأى صائب الحكم .

وبنقـــلة الدرر النفيســـــــــة بدلت بالبحر نحـــــرا
يا راويا عن يـــــــــاسر خبرا ولم يعرفه خـــــــبرا
إقرا بعـــــزة وجهــــــــه صحف المنى إن كنت تقـــرا
والثم بنان يمينــــــــــــــه وقل . السلام عليك بحـــرا
وغلطت فى تشبيهـــــــــــه بالبحر ، فاللهم غفــــــــرا
أولست نلت بذا غــــــــنى جما ونلت بذاك فقــــــــرا
وعهــــــــــدت هذا لم يــزل مدا وذاك يعـــــــود جزرا

قال ابن خلكان (١) . وهذه القصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان وله فى جارية سوداء وهو معنى غريب

رب سوداء وهى بيضاء معنى نافس المسك عندها الكافـــور
مثل حب العيــــون يحسبه النا س سوادا وإنما هو نــــــور

ودخل صـــقلية قبل اليمن فاتصل بالقائد أبى القاسم بن الحجر فأحسن إليه فصنف له كتابا سماه « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » ، ولما ترك صقلية وكان الزمن شتاء ردته الريح إليها فكتب إلى أبى القاسم يقول :

منـــع الشتاء من الوصـــــــــو ل مع الرســـــول إلى ديـــارى
فأعادنى وعـــــلى اختيــــــا رى جاء من غير اختيــــار
ولربما وقع الحمــــــــــــــار ر وكان من غرض المـــكارى

وكان وهو بالإسكندرية قد اتصل بالحافظ السلفى أحد أئمة الحديث وكان قد قدم الإسكندرية فقصده الناس من الأماكن البعيدة وأجله صاحب مصر فبنى له العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الظافر العبيدى مدرسة بالثغر سنة ٥٤٦ وفوضها إليه.

وكان الحافظ كثيراً ما يثنى على ابن قلاقس ويتقاضاه مدحه فأكثر فيه من غرر المدائح على قدر ما انتفع من صحبته ، وقد قصد بن قلاقس القاضى الفاضل ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان وأولها :

ما ضر ذاك الريم ألا يريم لو كان يرثى لسليم سلـــــــيم
وما على من وصله جنـــــــة ألا أرى من صده فى جحـــيم

---

(١) المرجع السابق .

أغيد ماهمت به روضـــــــة   أعـــل جسمى لأكون النسيم
رقيم خد نام عـــن ساهـــــر   ما أجـــدر النوم بأهل الرقيم
وكيف لا يصرم ظبي وقـــد   سمعت فى النسبة ظبى الصريم

ومنها فى وصف المحبوب

يارب خمر فمه كأسهـــــا   لم أقتنع من شربها بالشميم
أتبعت رشفا قبـلا عندهـــا   وقلت هـــذا زمـــزم والحطيم
فافتر إما عن أقاح الــــربا   يضحك أودر العقـود النظـيم
أو كان قد قبل مستحسنـــا   ما قبل الفاضــل عبد الرحيم

توفى ابن قلاقس سنه ٥٦٧ ه‍ .

وقلاقس . جمع قلقاس وهو النبات المعروف ، واللخمى نسبه إلى قبيلة لخم وكان منها .

ملاحظة : —

عد بعض المؤلفين ، ابن قلاقس من رجال الدولة الأيوبية، ولعل ذلك لأنه رأى فى ترجمته أنه مدح القاضى الفاضل ، وذلك لا يستلزم أن يكون من شعراء هذه الدولة لأن القاضى الفاضل إنما خدمها بعد خدمته للدولة الفاطمية قبلها .

ويكفى فى نفى هذا الزعم أن يكون ابن قلاقس قدمات سنة ٥٦٧ وهى نهاية الدولة الفاطمية .

وصف الشعر فى الدولة الفاطمية

قد مر بك مقطوعات من هذا الشعر ، وإن شئت أشبعت نهمتك بترويد الطرف فى يتيمة الدهر ودمية العصر وخريدة القصر والمغرب فى حلى المغرب ففيها مقدار شاف من هذا الشعر .

والمتأمل فى ذلك الشعر يرى فيه طابع النفس المصرية ، وهو خفة الروح ، وظرف الفكاهة ، والرفيف إلى اللهو ، والأنس بالدعابة ، كما يرى فيه لين اللفظ وسهولته ، بل هلهلته فى بعض الأحيان ، فالجفاوة غير مألوفه فيه لأنها فى الكلام بمثابة العبوسة فى

الوجوه ، وقلما عرف المصرى إلا بالطلاقة والسماحة والاحتفال بالبادرة والتقدير للنادرة.

ومن أجل ذلك ما راج « أبو الرقعمق » عند المصريين حتّى ألهاه احتفاؤهم عن العودة إلى بلاده ، وكذلك رأينا ابن الصياد قد ولع بكبر أنف الجليس بن الحباب فقال فيه ألف مقطوعة كما ذكروا .

* * *

هذا شأن الشعر فى صياغته ، فأما فى معانيه فالمدح يغلب عليه غلبته فى كل شعر عرفته العربية منذ جعل وسيلة للكسب ، وقد زاده فى هذه الدولة ما علمت من رغبة خلفائها وأمرائها ووزرائها فى المدح مع الإغداق على الشعراء ، ولا ثواء عند الشاعر إلا أن يثنى على العوارف ، ويتمدح بما يصادف من ظل وارف ؛

ويلى هذا الغرض فى هذه الدولة ، الغزل الذى ساعد عليه عند المصريين رقة طباعهم وقلق نفوسهم إلى اللهو وكثرة ما مر بهم من رخاء وإباحة للخمر واللهو فى مدة هذه الدولة .

وكان وصف الطبيعة يساوق الغزل لأن كليهما لا يحلو إلا مع صاحبه ، فالحبيبان إنما يتناجيان على بساط الخضرة وفى ظل الأغصان المتهدلة .

وإذا وصف المصرى الطبيعة فليس مقلداً ولا متخيلا وإنما هو يستملى ذلك الجمال الذى يتضمنه النيل فى تسلسله والبساتين فى تنسيقها البديع الذى كان موضع العناية من خلفاء هذه الدولة .

وإذا أردنا الموازنة بين الشام ومصر فى هذه الآونة وجدناهما تلتقيان فى وصف الطبيعة والغزل ؛ إذ كانت الشام غنية بمحاسنها والغزل ينشأ حيث الطبيعة الجميلة والظلال الوارفة .

لكن مصر والشام تختلفان وتفترقان فى خفة الروح وليونة التعبير وقد خصصناهما بمصر .

وإذا أثبتنا لشعراء الشام الجزالة ، فيما كان لها من عروبة أهلها نسباً وقربهم من مطارح البداوة العربية مسكنا .

وللثعالبي في هذا المقام كلام لا بأس بإيراد ما يناسب موضوعنا منه . قال (١) « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ... والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم » .

وقد عرف الناس ميزة الرقة للطبع المصري والخفة لما تتحرك به ألسنتهم من الشعر ، فقال بن سعيد المغربي نزيل هذه البلاد أيام الدولة الأيوبية : —

أسكان مصر ، جاور النيل أرضكم ... فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقي ... سوى أثر يبدو على النظم والنثر

(١) اليتيمة ج ١ ص ٨ .

الكتاب فى عهد الدولة الفاطمية

ذكرنا فى حديثنا عن الدولة الطولونية أن مصر لم تعرف ديوان الإنشاء إلا فى أيامها وقد بينا هناك خطر هذا الديوان ومنزلة صاحبه من رجال الدولة ، وأنه لقب بالوزير وأن اختياره كان يشغل بال صاحب الأمر بمصر لأنه بكتابته إلى الموالين والمعادين يمثل أبهة المملكة ويعرب عن فخامتها ويستطيع أن يجذب إليها النافر وينزل الأعصم بما يبنى عليه كتبه من رأى حصيف وعبارة بليغة .

وإذا كانت الدولتان الطولونية والإخشيدية قد احتاجتا إلى ديوان الإنشاء وإلى رئيسه فإن الدولة الفاطمية إليها أحوج ، فهى تلك الدولة الواسعة الأطراف المجاهرة بالعداوة والمعارضة للدولة العباسية ، فهى تحتاج إلى إحكام أمرها وتدبير شئونها حاجة ظاهرة ، ثم هى إذا أمنت هذا الجانب فإن العظمة التى حرصت على الظهور بها فى أعيادها وجميع مراسمها تقضى عليها أن يكون لها هذا المظهر الذى هو لمثيلاتها من الدول .

عنيت تلك الدولة بأمر ديوان الإنشاء عناية كبيرة واتبعت فيه نظاماً دقيقاً ومهدت السبل لبريده إلى كل النواحى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنها كانت أول من اتخذ الحمام بمصر للتراسل .

قال القلقشندى فى صبح الأعشى (١) :

« أول ما نشأ الحمام المسمى بالحمام الهدى (بريد الزاجل) ببلاد مصر والشام ، وأول من اعتنى به ونقله من الموصل الشهيد نور الدين زنكى صاحب الشام سنة ٥٦٥ .

حافظ عليه الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابه وألفت فيه الكتب . وبلغ ثمن الطائر الفاره منه ٧٠٠ دينار وبيع طائر جاء من خليج القسطنطينية بألف دينار ، وكانت بيضة الطائر الفاره منه بعشرين ديناراً » .

* * *

---

(١) ج ٢ ص ٨٧ .

اعتنى الفاطميون بديوان الإنشاء وكتابه ، وكان متوليه عندهم يلقب بالوزير وقد يتولى مع ديوان الإنشاء بقية أمور الدولة فيلقب برئيس الرؤساء . ذكر ابن منجب الصيرفي صاحب كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » من هؤلاء رئيس الرؤساء عمار ابن محمد قال . وكان له ديوان الإنشاء ، وصدقة بن يوسف الفلاحى قال عنه . كان موصوفاً بالبراعة فى صروب الكتابة وقد عظم شأنه إلى أن صار يتولى جميع أمور الدولة أيام خلافة الظاهر فلا يخرج شيء عما يرسمه ولا يفعل الوزير إلا ما يحده له ويمثله.

وكانت العناية بالوزراء فى هذه الدولة عظيمة تقدم لهم الهدايا أول مايتولون وتجرى عليهم الجرايات ماداموا يعملون للدولة ، ذكر الصيرفى أن الرئيس فهد بن إبراهيم لما تولى الرياسة حمل إليه هدية هى عشرة آلاف دينار وسفط فيه حلة . ودرج فيه جوهر وطيب ، وخمسون رأسا من الخيل والبغال . وكان الفاطميون فى حرصهم على الاستفادة من كل نابغ فى فنه لايفرقون فى اختيارهم للوزير (للخراج أو الإنشاء) بين مسلم وذمى ، فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز ثم العزيز ، ووزراء العزيز وهم الرئيس فهد بن إبراهيم والشافى زرعة بن نسطورس ، وقسيم الخلافة صاعد بن عيسى بن نسطورس كلهم نصارى . وكان صدقة بن يوسف يهوديا ثم أسلم .

* * *

وذكر صاحب صبح الأعشى تحت عنوان (ما كان عليه الأمر من ابتداء الدولة الفاطمية إلى انقراضها ، الوزراء الذين ولوا ديوان الإنشاء خاصة فى عهد هذه الدولة قال (١)

« ولما ولى الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه فارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم مابين مسلم وذمى .

فكتب للعزيز بالله بن المعز ، أبو المنصور بن سوردين النصرانى ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى أبوطاهر البهزكى ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران ، ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة وأبو سعيد العميدى . وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أبى أسامة الحابى إلى أن توفى سنة ٥٢٢ فكتب بعده ولده الأجل

---

(١) ج ١ ص ٩٦ .

أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المبصرى المعروف بابن الصيرفى والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس، وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره ، القاضى الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى البيسانى . ثم شرك العاضد مع الموفق بن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الدين محمود بن الأنصارى، ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ٥٦٦ فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم » .

رسوم كتابتهم فى البدء والختام

كانت المكاتبات الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بنى العباس . ذكر صاحب الأعشى (١) أن هذه المكاتبات عند الفاطميين كانت تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ثم يقال « من عبد الله ووليه فلان إلى فلان » ويذكر نعته إن كان الإمام قد شرفه بنعت ثم يقال بعد ذلك (سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله والأئمة المهديين ويسلم تسليما) ثم يقال « أما بعد » وتقص المعانى معنى معنى ، فإن كان الموضوع أمرا أمر به الإمام قيل بعد انقضاء الكلام «وأمر أمير المؤمنين بكذا» ثم يقال «فاعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه واعمل بحسبه» ثم يقال للمخاطبين من الطبقة العالية (والسلام عليك ورحمة الله) ويفرد بالسلام من دون هذه الطبقة .

وهذه المكاتبة عامة للناس جميعا فى الأمور السلطانية التى تنشأ فيها الكتب من الدواوين ولا يخاطب فيها أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

وكان الابتداء بقولهم «من عبد الله ووليه فلان» .. فى أول دولتهم إلى أواسطها ثم صار الابتداء فى أواخر دولتهم بخطبة مفتتحة بالحمد لله .

* * *

---

(١) ج ٦ ص ٤٣٢ وما بعدها .

أما المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين من ولاتهم وغيرهم فرسمها أن يقال بعد البسملة . «أفضل صلوات الله وبركاته وأشرف رضوانه وتحياته على مولانا وسيدنا الإمام الفلانى أمير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين » إن كان له أبناء وإلا قيل مكان الأكرمين «المنتظرين » ثم يقال « كتب عبد الموقف النبوى، خلد الله ملكه ، من مقر خدمته ناحية كذا ، وأمور ماغدق(١) به ورد إلى نظرة منتظمة بسعادة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى جده والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم تسليما » ثم يقال العبد ينهى كذا وكذا» ويختم الكتاب إن كان مبنيا على المطالعة ببعض الأخبار يقول الكاتب «أنهى العبد ذلك ليستقر علمه بالموقف الأشرف إن شاء الله تعالى» وإن كان مبنيا على الاستئمار فى بعض الأحوال قيل فى هذا الموضع «ولمولانا أمير المؤمنين الرأى العالى فى ذلك إن شاء الله تعالى» .

★ ★ ★

وكانت إلى جانب ماذكرنا ، رسوم أخرى تتبع فيما يكتبه الخليفة إلى خاص كالوزير أو نحوه ، وما كان يكتب به الإخوان بعضهم إلى بعض ولا نرى خيرا كثيرا فى تفصيل هذه الرسوم فهى قيود التزمها أصحابها لايلزمنا اتباعها ولا نرى فيها كبير نفع ولا ناحية دلالة بلاغية .

نكتفى بما ذكرنا هنا . أما نماذج الكتابة التى تتمثل فيها هذه الصور فسنوردها فيما بعد تحت عنوان «نماذج من كتابة الإنشاء» فإذا عنيت بتطبيق الذى قلناه هنا وجدته متمثلا فيما ننقل من تلك الرسائل .

وأخيرا نقول: إنه بلغ من عنايتهم بالكتابة أن أقاموا فى ديوان الإنشاء عالما نحويا أديبا يتصفح الرسائل قبل خروجها من الديوان لتلافى ما لعله قد يقع بها من غلطة أو تعبير ناب ، وقد كان القائم بذلك يوما ما هو النحوى الذائع الصيت وأحد الأعلام فى فنون العربية طاهر بن أحمد المعروف بابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٥٤ (٢) .

أغراض كتابية خاصة بمصر ، أو بالفاطميين وحدهم

جرت العادة أن يكاتب السلطان عماله وولاته بسلامة المواسم الإسلامية كلها ،

(١) بمعنى ضم إليه ونيط به

(٢) الوفيات ج ١ ص ٢٣٥ .

لأنها يشاهدها جميع أصناف الرعايا وذوى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة والقلوب المتعادية ، وكل متربص لفتنة ينتهز فرصتها ، فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورة أو حدوث أحداث منكرة ، فإذا أنعم الله بالسلامة منها وجب التحدث بنعمته والشكر لمشيئته وأن يكتب الرئيس الأعلى بسلامة ماقبله إلى عماله لتسكن الكافة إلى ذلك ويشتركوا فى حمد الله تعالى عليه .

اعتاد الخلفاء ببغداد أن يركبوا فى عيدى الفطر والأضحى فكانوا يكتبون بالسلامة فى ركوبهما . والخلفاء الفاطميون بمصر كانوا يركبون فى هذين العيدين وغيرهما مثل غرة السنة وأول رمضان والجمع الأولى والثانية والثالثة منه وكذلك فى عيد الغدير وهو من أعياد الشيعة ، كما كانوا يركبون لفتح الخليج وغير ذلك من الأعياد التى استحدثوها بمصر .

فكانوا يكتبون على أثر هذه الأعياد يبشرون بالسلامة فيها ، كما يكتبون بالبشارة بوفاء النيل ، وكل هذه الأعياد ماعدا عيدى الفطر والأضحى خاصة بمصر فما كان يصدر فى شأنها من كتابة فإنما هو خاص بمصر لم يكن له شبيه فيما كتب فى غير مصر من البلاد .

وأنت ترى أن بعض هذه الأعياد لم تكن مصر تعرفه قبل الفاطميين ولا سمع ببقائه بعد زوال مملكتهم كعيد يوم الغدير فهو من الأعياد الخاصة بالفاطميين لأنهم هم الذين روجوا المذهب الشيعى بمصر وكانت سنية قبلهم وبعدهم. أما البشارة بوفاء النيل والسلامة فى الركوب لفتح الخليج فقد قال فى صبح الأعشى عن ذلك (١) .

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لايشاركها فيها غيرها من الممالك . ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماما بشأن النيل وإظهارا للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب المؤدى إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية ،وقد كان للخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الإهتمام وكانت عادتهم فى ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتبا مفردة وبفتح الخليج كتبا مفردة .»

---

(١) ج ٨ ص ٣٢٨ .

نماذج من الكتابة الإنشائية فى عهد الفاطميين

١ – نسخة ما كتب به العزيز بالله الفاطمى إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطى بالشـام سنة ٣٦٧ (١) من عبد الله ووليه نزار أبى المنصـور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين بن القاسم ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله الا هو ويسأله أن يصلى على جده محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار الطاهرين المطهرين وسلم تسليما .

أما بعد فالحمد لله الملك العظيم العليم الحليم ذى الطول الكريم والمن الجسيم والعز المديد والمجال الشديد ولى الحق ونصيره وماحق الباطل ومبيده المتكفل بالنصر والتمكين والتأييد والتحصين لأوليائه المتقين وخلفائه المصطفين الذابين عن دينه والقائمين بحقه والدالين على توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم وإفلاح حججهم وظهورهم على أعدائهم المشاقين له ، الضالين عن سبيله الملحدين فى آياته الجاحدين نعمه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على من عصاه فحاده وصد عنه فناده ، القاضى بالعواقب الحسنى والفوز والنعماء لمن أسلم وجهه له وتوكل عليه فى أمره وفوض إليه حكمه . وبعد كثير من الحمد يقول أيضا حامدا :

والحمد لله الذى حبا أمير المؤمنين وانتخبه لخلافته وجعله صفيه من خلقه وأمينه على عباده وهاديا إلى سبيله قائما بحقه مقسطا فى أرضه ذابا عن دينه محييا ما أماته أهل الكفر من أحكامه وأيده بنصره وأمده بقوته وتكفل له بالنجح فى مسعاه والظفر بمبتغاه ونيل طلبته فيما أمه وارتآه ، وحكم بكبت كل عدو له وخزيهم وإذلالهم ومحقهم وخذلهم وإيهان كيدهم ، وضرب الذلة عليهم حيث كانوا وأين كانوا فلا ينعق ناعق منهم بضـلال أو يسعى بفسق وخبال أودفع إلى ا يفتراء على الله أو مروق عن دينه أو إذهاب مافرضه الله عز وجل من طاعة إلا اصطلمه وأخزاه وأكبه لوجهه وأرداه وقضى عليه بالشقوة فى دنياه وعذاب الآخرة فى أخراه .

ثم مازال يحمد ويحمد حتى انتهى إلى قوله :

وإنه مما يستغرق الحمد والشكر ويفوت الإحصاء والنشر أمر اللعين التركى وهربه من بين يدى أمير المؤمنين ، وأنه لم يلو على شىء إلى أن بلغ طبرية ، للذى تداخله من

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٣ .

الفرق واستولى عليه من القلق ولما سكن قلبه من الرعب وحشاه من الرهب بقصد أمير المؤمنين إياه وإغذاذه السير فى طلبه ومواصلته لأسباب ومتابعته الإدآب ووصف أمير المؤمنين ماعليه عزمه فى تتبعه واقتفاء أثره والحلول بعقوته حيث قصد وحل ، لثقته بالله ربه وتوكله عليه وتفويضه إليه . ولم يزل جل وعز يولى أمير المؤمنين بعد نفوذ كتابه من عز يؤيده وظفر يؤكده ونصر يوطئه وآلاء يجددها ومواهب يتابعها وعدو يذله ومناو يقله وشارد يصرفه إلى طاعته ، ومارق يعيده إلى موالاته ، إلى أن تم له من ذلك ما واصل به حمد الله عليه وتهيأ له ماتوافر شكره له جل وعز فيه .

وكان مع ذلك مواصلا إلى اللعين الإعذار ومتابعا الإنذار ومحذراً له مايعذر ومستدعيه إلى ما يختار ويؤثر وممنيا له ما يمنى به مثله من العفو عنه وتغمد ماجرى منه والإقالة لعثرته والتجاوز عن هفوته والامتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحية من نواحى الشام وإدرار الأرزاق عليه وعلى رجاله وأصحابه وإيثاره بالفضل الجليل واختصاصه بالطول الجزيل ، فما نجح فى الفاسق وعدو لانجع فيه وعظ ولا وفق إلى قبول حظ ، ولا أصغى إلى قبول تذكرة ولا أناب إلى تبصرة ، ومازال جادا فى تهوكه ، متمادياً على تمهكه ، جاريا على ضلالته سالكا سبيل عمايته مترددا فى غوايته ، متلددا فى جهالته ، مقدرا أن بأس الله لايرهقه وسطوته لاتلحقه ، ورجزه لايمحقه ، وذنوبه لاتزهقه وأجرامه لاتوبقه .

ثم يقول فى وصف زحف الجنود بعد أن أعدهم أمير المؤمنين للقتال :

فمشوا على ما أمروا وساروا على ماسيروا ، فعندما دنوا من عدو الله أصابوه للجلاد معدا ، وفى المحاربة مجدا ، واستخاروا الله عز وجل وتدانوا للتلاق والأخذ بالنواصى والأعناق ، وقامت الحرب على ساق وتجرع منها أمر مذاق فاستطار شرارها وتأججت نارها وارتفع دخانها وعظم شأنها ، والتزم الأقران بالأقران واشتد الضرب والطعان إلى أن مشى أمير المؤمنين بنفسه وجمهور موكبه متوكلا على الله ماتا إليه بجده محمد صلى الله عليه وسلم ، متوسلا بمتقدم وعده وسالف إنعامه عنده وقصد اللعين غير متلوم عن مصادمته ولا معرج عن ملاحمته ، فقويت نفوس أوليائه وعبيده ومن اشتملت عليه عساكره المنصورة وجيوشه المظفرة بما تبينوه من إقدامه وشاهدوه من اعتزامه وحملوا على الفاسق وأحزابه وقذف الله فى قلوبهم الرعب فتزلزلت أقدامهم وأرعشت أيديهم ونخبت أفئدتهم وولوا الدبر منهزمين ومنحوا ظهورهم مولين .

وما زال يصف انهزام الأعداء وقتل المقتول منهم وأسر أسيرهم إلى أن قال :

فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله رب العالمين على إعطائه الهنى وحبائه السنى وما أيد أمير المؤمنين وأعز الدين وقمع المشركين إذ كان الفاسق اللعين التركى الغوى المبين ثلة من ثللهم وركنا من أركانهم وحزبا من أحزابهم ووثنا من أوثانهم وطاغية من طواغيتهم .

«وأمير المؤمنين يرغب إلى الله أن يوزعه الشكر على ما أولاه ويوجده سبيلا إلى بلوغ مبتغاه من إعزاز الملة والدين وإحياء شريعة جده سيد المرسلين ومجاهدة الترك والمشركين وقمع الظالمين والقانطين والمارقين حتى يكون الدين كله لله ويجمع القلوب على طاعته بإذن الله .

★ ★ ★

٢ ـ نسخة كتاب بالبشارة بوفاء النيل من إنشاء محمود بن قادوس : (١)

النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر تنشر فى الآفاق أعلامه واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك فى النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجرز فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان . فسبحان من جعله سببا لإنشاء الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ووفر به مواد الأرزاق والأقوات ، وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك وخلع على القاضى فلان فى يوم كذا وطاف بالخلع والتشريفات والمواهب المضاعفات بالقاهرة المحروسة ومصر ، على جارى عادته وقديم سيرته ، ونودى على الماء بوفائه ستة عشر ذراعا وإصبعا من سبعة عشر ذراعا ، واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق وواصلوا بالشكر مواصلة لاتستوقفهم عنها العوائق ، وبدأ من مسرات الأمم وابتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد وينيلهم المنال السعيد ويقضى لهم بالمآل الحميد ، وموصل هذا الأمر إليك فلان فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه وإجمال تلقيه وإفضاله إلى ماجرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء واكرام واعتناء ليعود شاكرا . فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله .

---

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ .

٣ ــ نسخة كتاب بالبشارة بالسلامة فى الركوب فى غرة رمضان من إنشاء ابن الصيرفى (١)

الحمد لله كالئ خلقه فى اليقظة والمنام والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصيام وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب أخاص ولى وأشرف وصى وأفضل إمام وعلى الأئمة من ذريتهما الدائمين الى دار السلام صلاة دائمة الاتصال مستمرة فى الغدو والآصال وإن من المسرة التى تتهادى ، والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى . مامن الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا إعلاما بأول الشهر وافتتاحه وأن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وعبيده والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهرة ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتى الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة وتشكر النعمة السابقة على أهل الملة وتتلوها على أهل عملك وتطالع بكائنك فى ذلك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

موازنة بين الكتاب فى مصر وبغداد

إذا أردنا أن نعقد موازنة بين الكتابة فى بغداد ومصر على عهد الدولة الفاطمية ، وجدنا أن مصر لاتقصر عن بغداد فى بلاغة كتابها ، وأن مظاهر الكتاب فيهما واحدة من الإطالة فى التحميدات ، والإطناب فى كثير من المقامات ، والتزام السجع ولكن مع قوة التعبير وتمكن القوافى .

وإذا رأينا مصر تسامى بغداد فى ذلك فهو فضل كبير ومنزلة عظيمة وصلت إليها ، لأن بغداد كانت دائما بين عواصم الأقطار العربية هى المثل الأعلى فى البلاغة فى عصورها كلها ، فإذا سامتها مصر أو دانتها فى المنزلة فإنما يدل ذلك على منافسة شديدة ومحاولة عنيفة بذلها المصريون للوقوف فى صفوف البغداديين . ولا نرى عونا على ذلك إلا رفع شأن ديوان الإنشاء بمصر وتمكين كتابه ورئيسهم من الرزق الغدق والمنزلة السامية

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣١٦ .

وقد ذكرنا لك فيما قدمنا من إحسان الخلفاء الفاطميين إلى كتابهم مايحمل على الإجادة والسمو إلى أعلى المراتب . ويحسن بنا أن نوازن بين رسالتين كتبتا فى عهدين متقاربين بمصر وبغداد

فأما إحداهما فهى الرسالة التى كتبت عن العزيز بالله الفاطمى إلى عامله على مصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطى سنة ٣٦٧. وقد مرت بك فى النماذج.

والثانية هى ما كتبه أبو إسحاق الصابى وهو من هو فى الشهرة والفضل ، عن الخليفة الطائع إلى صمصام الدولة بن عضد الدولة بسبب كردويه الخارج عن الطاعة، والطائع والصابى كانا يعيشان فى النصف الثانى من القرن الرابع فهما معاصران للعزيز الفاطمى . وقد تولى الطائع سنة ٣٦٣ والعزيز سنة ٣٦٥ . والرسالة التى كتبها الصابى تجدها فى صبح الأعشى (١) ونحن ننقل منها فقرة تدل عليها وتمكنك من الموازنة بينهما وبين رسالة العزيز .

قال :

وقد عرفت – أدام الله عزك – ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك وجاحد صنيعته وصنيعتك فى الوثبة التى وثبها ، والكبيرة التى ارتكبها وتقريره أن ينتهز الفرصة التى لم يمكنه الله منها ، بل كان من وراء ذلك دفعه ورده عنها ، ومعا جلتك إياه الحرب التى أصلاه الله نارها وقنعه عارها وشنارها حتى انهزم والأوغاد الذين شركوه فى إثارة الفتنة على أقبح أحوال الذلة والقلة ، بعد القتل الذريع ، والإثخان الوجيع .

فالحمد لله على هذه النعمة التى جل موقعها وبان على الخاصة والعامة أثرها ، ولزم أمير المؤمنين خصوصا والمسلمين عموما نشرها ، والحديث بها ، وهو المسئول إقامتها وإدامتها برحمته .

---

(١) ج ٦ ص ٣٩٦ .

العلوم فى عهد الدولة الفاطمية

فى عهد هذه الدولة راجت حركة العلم رواجا عظيما ، لأن خلفاءها أرادوا ذلك وهم كما عامت كبار الهمم متخرقون فى العطاء ، فكانت مصر على أيامهم فى حركة دائبة : مصريون يدأبون فى التحصيل لينالوا ماتشرئب إليه أعناقهم من تكريم ومنزلة سامية ، وأغراب يقصدون البلاد لما سمعوا من جود خلفائها وأمرائها ووزرائها واحتفالهم بكل ذى قدم فى فنه أو علمه ، ثم خلفاء مقبلون بأنفسهم على العلم يدرسونه ويعنون بأخبار العلماء فى أقطار الدنيا فيبذلون لهم الرغائب ليحضروا إلى مصر ويجعلوها بيئتهم العلمية أو مجال تجاربهم الفنية .

هذه المظاهر جعلت من مصر بيئة علمية ناشطة فمرت بالبلاد أيام لم يسبق لها عهد بها ، ونحن نعزو ذلك لأسباب منها : المنافسة التى اشتعلت جذوتها فى صدور الفاطميين للعباسيين ، فهم لم يطيقوا — وقد مكنهم السلطان مما مكن منه العباسيين من مال وقدرة واتساع جاه — أن يكونوا أقل منهم فى شيء مما يقدرون عليه . وكان العلم فى بغداد فى أسمى مراتبه بأقطار الإسلام ، فاجتهد الفاطميون أن تكون لهم فى مصر مثل سمعة العباسيين ببغداد ، فكان ما أرادوا .

كذلك كان للغنى والثراء أثر فى العناية بالعلم لأنه كمال ترفه به حال البلاد وتزداد حضارتها فكان الغنى فى ذاته داعيا إلى الاهتمام بالعلم استكمالا لأسباب الرفاهية والحضارة ، ولا شك فى أن المال وسيلة الوسائل فى تحصيل الآمال مهما بعد مناطها .

وقد يكون لاشتغال الخلفاء أنفسهم بالعلم وإقبالهم على دراسته أثر ظاهر فى احتفال جمهور الناس به لأن الناس على دين ملوكهم .

ذكروا عن الحاكم بأمر الله أنه كان يستحضر علماء دار الحكمة بين يديه يأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون العباسى . وكذلك العزيز قبله ، يعنى بخزانة كتبه ويستدعى قيمها ليقرأ له الكتب وينادمه (١) وقد بلغ من تقديرهم للعلماء أن الطبيب منصور

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٨

ابن مقشر وكان من الأطباء المتقدمين بالديار المصرية على أيام الفاطميين ، كان طبيب العزيز بالله فاعتل وكان العزيز أيضا وجع الرجل ، فلما تماثل ابن مقشر كتب إليه العزيز بخطه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم :

طبيبنا سلمه الله ، وأتم عليه النعمة ، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب ، وبرؤه والله العظيم لقد عدل عندنا مارزقنا نحن من الصحة فى جسمنا ، فتمم الله عليك النعمة وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ورد كيد من يريد الكيد فى نحره وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك وإقالتك العثرة ورجوعك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته . والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليما .

ويذكر القفطى عن (بن مقشر) خبرا يتعلق بالحاكم بأمر الله فيقول (٢) :

ابن مقشر هذا طبيب مصرى كان يطبب مولانا الحاكم وهو من أطباء الخاصة بالديار المصرية له يد فى المباشرة والمعالجة ولم يشتهر عنه علم فى هذا الشأن ولا ظهر له تصنيف، وبلغ مع هذا أعلى المنازل وأسناها ولما مرض ابن مقشر عاده الحاكم بنفسه ولما مات أسف عليه وأطلق لمخلفيه مالا جزيلا وافرا ، وكان فى حياته واسع الحال .

وروى أيضا حديث الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس البصرى صاحب التآليف فى علم الهندسة والإتقان له والتفنن فيه قال (٣) :

«وبلغ الحاكم صاحب مصر من العلويين ـ وكان يميل إلى الحكمة ـ خبره وما هو عليه من الإتقان لهذا الشأن فتاقت نفسه إلى رؤيته ثم نقل له عنه أنه قال لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال فى طرف الإقليم المصرى ، فازداد الحاكم إليه شوقاً وسير إليه سراً جملة من المال وأرغبه فى الحضور فسافر نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق وأمر بإنزاله وإكرامه» .

---

(١) أخبار الحكماء ص ٢١٩ .

(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٥

(٣) المرجع السابق ص ١١٤.

وروى أيضاً أنه اتفق أن عرض لرجل الحاكم بأمر الله عقر زمن ولم يبرأ بعلاج أطباء الخاص فاحضر له يهودى مصرى يتعاطى الجراحة بمصر وهو فى غاية الخمول فبرأ الحاكم على يديه وشفى فى ثلاثة أيام فأطلق له ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع وجعله من أطباء الخاص (١) .

وأخبار جود الخلفاء ووزرائهم على أهل العلم كثيرة نكتفى منها بما ذكرنا وربما عرض بعضها فى بقية حديثنا عن العلوم فى هذه الدولة .

المكاتب فى عهد الفاطميين

١ — خزانة الكتب

اقتدى الفاطميون فى مصر بخلفاء بغداد والأندلس فأنشئوا المكاتب وجمعوا لها الكتب ، وبدأ منهم بذلك العزيز بالله ثانى خلفائهم وقد تولى الخلافة سنة ٣٦٥ وهو شاب فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب محباً للعلم فقرب إليه العلماء على اختلاف طبقاتهم وأجرى لهم الأرزاق وحبب إلى الخليفة اقتناء الكتب فجمع منها جانباً كبيراً خصص له قاعات فى قصره وسماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى الاستكثار من المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة نسخة أو أكثر .

ذكروا أنه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ،واشتروا النسخة منها بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالى الأيام حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبرى عند استيلاء صلاح الدين الأيوبى على مصر ألفاً ومائتى نسخة ، وكان فيها ثلاثة آلاف وأربعمائة ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب .

وقد بلغ من كثرة الكتب بهذه الخزانة أن قالوا : إن عدد الكتب التى اجتمعت بها كان ألف ألف وستمائة ألف كتاب فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ثمانية عشر ألفاً فى العلوم القديمة فيها سته آلاف وخمسمائة

---

(١) أخبار الحكماء ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

جزء من كتب الهندسة والفلسفة خاصة غير أدوات الهندسة والفلك (١) قال ابن السبندى « كان الوزير أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى تقدم سنة ٤٣٥ باعتبار خزانة الكتب بالقاهرة وأن يعمل لها فهرست ويرم ما أخلق من جلودها، وأنفذ القاضى أبا عبد الله القضاعى وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك . وحضر القصر وحضرت لأشاهد ما يتعلق بصناعتى فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء ، وكرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية ، وتأملنا ما مضى من زمانها فكان ألفاً ومائتين وخمسين سنه ، وكرة أخرى من عمل أبى الحسين الصوفى للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشتريت بثلاثة آلاف دينار (٢) .

٢ — دار الحكمة

وتسمى دار العلم ، أنشأها الحاكم بأمر الله بجوار القصر الغربى بالقاهرة وحمل إليها الكتب من خزائن القصور (خزانة العزيز وغيرها) ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها وفتح أبوابها للناس فكانوا يحضرون إليها للمطالعة والدرس والتأليف ، وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لأن الحاكم أعد بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والأطباء وأجرى لهم الأرزاق .

وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ويأمرهم بالمناظرة ويخلع عليهم الخلع ، وقد أباح المناظرة للمترددين على تلك الدار فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك وتقوم المناظرات وقد يؤدى الجدال إلى الخصام ، وقد اتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم فاضطر ابن الأفضل بن أمير الجيوش إلى إغلاق أبواب الدار تلافيا لما كان يحدث فيها . ثم أعيد فتحها أيام الآمر بأحكام الله ووزيره ابن البطائحى ومنعت منها هذه المناظرات المفسدة للدين . وهذه الدار هى التى استولى عليها صلاح الدين الأيوبى فيما استولى عليه من مخلفات الفاطميين . قال السيوطى فى حسن المحاضرة : « ووجد خزانة كتب ليس فى الإسلام لها نظير تشتمل على نحو ألفى ألف مجلد منها بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد ، فأعطاها القاضى الفاضل » (٣) .

(١) التمدن الإسلامى لجورى زيدان ج ٣ ص ٢٠٩ نقلا عن تراجم الحكماء .
(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٦ .
(٣) ج ٢ ص ٣٤ .

ولما كانت هذه المكتبة تحتوى على كثير من الكتب فى المذهب الشيعى فقد فصلت منها هذه الكتب وأحرق بعضها وطرح بعض فى النيل وترك آخر فى الصحراء فسقت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب فكان العبيد يتخذون من جلودها نعالا لهم . وما فعل بها ذلك إلا لأن الأيوبيين كانوا سنيين وقد أرادوا أن يقضوا على التشيع فى مصر .

أما مارضوا عنه من كتب تلك المكتبة فقد وهبه صلاح الدين للقاضى الفاضل فانتفع به وانتفعت مصر بعده به وكان يوماً ما بمدرسة القاضى الفاضل ينتفع به الطلاب والمدرسون إلى أن ذهب فى الغلاء الذى أصاب مصر سنه ٦٩٤ (١) .

أنواع العلوم أيام الدولة الفاطمية

كانت مصر فى عهد هذه الدولة تشتغل بجميع العلوم المعروفة إذ ذاك . وقد نبغ فى كل علم أفاضل من المصريين وقصد مصر من أهل كل علم من يشار إليهم بالبيان فيه ، فلم تكن مصر فقيرة فى شيء من ذلك وكيف تفتقر وخلفاؤها ووزراؤها كما ذكرنا يجددون على العلماء ويرفهون عيشهم ويرفعون منزلتهم .

ولكننا لا ننكر أن رؤساء الفقهاء وكبار أصحاب المذاهب السنية لم يكن لهم بمصر عيش أيام هذه الدولة لأن عملها على إذاعة مذهبها الشيعى وتمكين أسسه فى مصر يتناقض مع وجود هؤلاء الأئمة المجتهدين الذين حيثما حلوا التف حولهم طلابهم وأشربوا فى قلوبهم حبهم وتعلقوا بمذاهبهم ومناحى تفكيرهم . فلم يكن لخلفاء هذه الدولة وقد أخلصوا لمذهبهم ، بد من أن يعملوا على إخفات أصوات هؤلاء العلماء فشردوهم وقتلوهم ؛ قال المقريزى فى خططه (٢) : فى سنة ٤١٦ أمر الظاهر فأخرج من بمصر من المالكية وغيرهم . قال فى النجوم الزاهرة . — « أما المصريون (يعنى بنى عبيد) فأماتو السنة وقتلوا العلماء »(٣)

ويقول عن الحاكم بأمر الله « وقتل من العلماء والكتاب الأماثل مالا يحصى ، وكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو ابن العاص رضى الله عنهم (٤) .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٦٦
(٢) ج ١ ص ٣٥٥
(٣) ج ٤ ص ٧٤
(٤) ج ٤ ص ١٧٦

ولما شاعت فظاعة الحاكم فى هذا الأمر أرسل إليه ابن باديس (صاحب المغرب) ينكر عليه أفعاله فأراد استمالته فأظهر التفقه وحمل فى كمه الدفاتر وطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك فى الجامع ثم بدا له فقتلهما صبراً (١)

أما من عدا هؤلاء من العلماء فقد كانوا فى موضع الإكرام والتجلة لأن علمهم لا يتعارض مع مذهب الخلفاء. لذلك رأينا بمصر أدباء ونحاة ومؤرخين وأطباء ومنجمين وقد كثر بمصر أهل هذين العلمين الأخيرين وهما الطب والنجامة لأن الفاطميين كان لهم ولوع خاص بهما فقربوا علماءهما وأغدقوا عليهم النعم. ونحن نستطيع أن نعد من هؤلاء كثيرين، وسنورد عليك من أسمائهم وبيان أحوالهم ما يقنعك بما ذكرنا من حرص الفاطميين على إكرام هؤلاء خاصة.

أما الدافع إلى ذلك الإكرام فهو فى رأينا مختلف باختلاف نوع العلم، فأما الطب فلحاجة هؤلاء الخلفاء إلى من يتولى علاجهم وتوفير الصحة لهم ليتمتعوا بما امتلأت به قصورهم من مناعم فى مأكل ومشرب وغيرهما، ولذلك رأيت فيما مر بك آنفا كيف أن العزيز بالله يكتب إلى طبيبه بخط يده مهنئاً بالشفاء من المرض، وكيف أن الحاكم زار طبيبه فى مرضه فلما مات أغدق على عقبه المال الجزيل. وأما النجامة فمرجعها إلى أن من فروع هذا العلم دعوى معرفة الغيب واستشفافه من وراء حجبه، وكان الفاطميون أنفسهم يدعون ذلك ويرون أن علياً كرم الله وجهه كان يعرفه وأنه كتب كل ما يكون إلى يوم القيامة فى سلخ شاة (جفر) فسمى ذلك علم الجفر (٢)

وكبير الفاطميين وهو المعز كان يدعى علم الغيب فإنه عاد جوهرا الصقلى قائده، قبل مسيره إلى مصر، فقال إن هذا لا يموت وسيفتح مصر (٣) ولم يكن غرضه من إلقاء هذا القول إلا أن يقول الناس يوم يتحقق أن مولاهم يعلم الغيب والحاكم بأمر الله لم يكتف بدعوى علم الغيب حتى ادعى الألوهية وتقرب إليه جماعة من الجهال فكانوا إذا لقوه قالوا له السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت وصار له دعاة يدعون أوباش الناس. ومن سخف عقله إلى اعتقاد ذلك (٤).

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨

(٢) الوفيات ج ١ ص ٣١١

(٣) الوفيات ج ١ ص ١١٩

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣.

علماء الدولة الفاطمية

١ – الأطباء

نذكر عنهم هذا البيان وفيه أهم ما تحسن معرفته فى التعريف بأحوالهم (١) :

١ – كيسان بن عثمان : أصيل . (–٣٧٨) ، كان مشهور الذكر معروف الصنعة خدم الدولة الفاطمية أيام المعز والعزيز .

٢ – محمد بن أحمد التميمى : طارىء ، خدم يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً كبيراً سماه مادة البقاء ، بإصلاح فاسد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء . لقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم . وكان موجوداً بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ .

٣ – ابن بطلان : طارىء ، (–٤٤٢) ، نصرانى . بغدادى . أقام بمصر مدة اجتمع فيها بابن رضوان الطبيب المصرى الفيلسوف وجرت بينهما مناظرة خرج ابن بطلان على أثرها من مصر مغضباً فانقطع للعبادة ببعض أديرة أنطاكية إلى أن مات .

٤ – ابن رضوان : أصيل ، (–٤٦٠) ، كان فى أول أمره منجماً يقعد على الطريق ثم قرأ شيئاً من الطب فتلمذ له جماعة وسار ذكره .

٥ – موسى بن العيزار : أصيل ، خدم المعز عند قدومه من المغرب وركب له أدوية كثيرة ورزق توفيقاً .

٦ – منصور بن مقشر : أصيل ، نصرانى كان طبيب العزيز بالله واتفق أن مرض فلما شفى كتب إليه العزيز بخطه مهنئاً .

٧ – ابن مقشر : أصيل ، طبيب الحاكم وكان من أطباء الخاص بالديار المصرية له يد فى المباشرة والمعالجة ولم يشتهر عنه علم ولا ظهر له تأليف وبلغ مع هذا أعلى المراتب . ولما مرض عاده الحاكم فلما مات أسف عليه وأطلق لمخلفيه مالا جزيلا وكان فى حياته واسع الحال .

٨ – الحقير النافع : أصيل ، داوى الحاكم بعد أن عجز عن علاجه أطباؤه فشفاه فى ثلاثة أيام من عقر فى رجله فأطلق له الحاكم ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع لأنه لم تكن له شهرة قبل مداواة الحاكم .

٩ – سلامة بن رحمون : أصيل ، قال عنه أبو الصلت : أنبه من رأيته من أطباء

(١) جميع ماذكرناه هنا معتمد من كتاب (أخبار الحكماء) للقفطى

مصر وأدخلهم فى عداد الأطباء . وكان موجوداً بمصر أيام دخول أبى الصلت إليها سنة ٥١٠ .

١٠ – جرجيس الأنطاكى : طارىء ، كان بينه وبين أبى الخير سلامة بن رحمون اليهودى محاولات يلجأ فيها جرجيس إلى المغالطة فكان أبو الخير لغفلته لا ينتبه إلى ما فيها ويظنها صحيحة فيحتفل بالرد عليها . كان موجوداً سنة ٥١٠ .

١١ – أبو الصلت أمية : طارىء (٥٢٩) ، طبيب مغربى زار مصر ٥١٠ وأحصى من بها من الأطباء وغيرهم وكان شاعراً مجيداً .

١٢ – موسى بن ميمون : طارىء ، أندلسى دخل مصر فى آخر عهد الدولة الفاطمية وقد راموا استخدامه وإخراجه إلى ملك عسقلان لأنه طلب منهم طبيبا فلم يقبل وبعد ذلك اشتمل عليه القاضى الفاضل وقرر له رزقا .

(٢) المهندسون والمنجمون (١)

١ – محمد بن عبد الله الفريانى : طارىء (–٣٨٥) ، إفريقى دخل مصر والغالب عليه النجوم كان منجماً للمعز ثم العزيز ألف كتاباً فى أخبار الأمويين والعباسيين وذكر فيه شيئاً من محاسنهم فغضب عليه العزيز فلزم منزله حتى مات .

٢ – على بن أبى سعيد الصدفى : أصيل (–٣٩٩) ، صاحب الزيج الحاكمى المسمى بزيج ابن يونس فى أربع مجلدات ابتدأ بعمله للعزيز ، وكان مع اختصاصه بالنجوم متصرفاً فى جميع العلوم بارعاً فى الشعر يضرب العود على جهة التأدب .

٣ – الحسن بن الهيثم : طارىء (–٤٣٠) ، بصرى دخل القاهرة بدعوة من الحاكم وكان ينوى أن يعمل للنيل عملا يحفظ به ماءه فلم يوفق .

٤ – على بن النضر : أصيل ، مدحه أبو الصلت فى رسالته عن منجمى مصر قال : إنه من الأفاضل المعدودين من حسنات الزمان .

٥ – ابن السبندى : أصيل ، من أهل المعرفة والعلم يعمل الأسطرلاب قال القفطى وقد رأينا من عمله آلات حسنة الوضع فى شكلها صحيحة التخطيط فى بابها شهد عمل الفهرست لخزانة الكتب سنة ٤٣٥ .

٦ – علوى الديرى : أصيل ، (–٥٩٥) ، من دير البلاص بصعيد مصر ،

(١) جميع ما ذكرناه هنا مستمد من كتاب أخبار الحكماء للقفطى .

لزم بلده وقصده فيها من يأخذ عنه علمه ، وكان يعمل التقاويم ويسيرها إلى أجلاء أهل البلد فيأتيه البر من ناحيتهم .

٧ – المنجم الخارجى : أصيل ، (–٣٩٨) ، كان يعرف أحكام النجوم ويتكلم فى الحدثان. زعم أنه رأى لنفسه أنه سيملك فخرج بصعيد مصر أيام العزيز ثم قبض عليه وضربت رقبته .

٣ – النحاة واللغويون والمؤرخون

١ – الحسن بن زولاق (١) : أصيل ، (–٣٨٧) ، كان فاضلا فى التاريخ له فيه كتاب خطط مصر وهو مخطوط وكتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلا على كتاب الكندى فكمله إلى سنة ٣٨٦ وهو مطبوع .

٢ – على الشابشتى (٢) : أصيل (–٣٩٠) ، أديب فاضل تعلق بخدمة العزيز فولاه خزانة كتبه وكان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه وله كتاب الديارات . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

٣ – جنادة الهروى (٣) : طارىء (–٣٩٩) ، كان مكثراً من حفظ اللغة ونقلها عارفاً بوحشيها ومستعملها لم يكن فى زمنه مثله . قتله الحاكم .

٤ – القزاز القيروانى (٤) : طارىء (–٤١٢) ، كان الغالب عليه النحو واللغة خدم العزيز وصنف له كتباً اقترح عليه أن يؤلف كتاباً فى الحروف على المعجم فعمل مالم يكن أحد سبقه إليه وبلغ كتابه ألف ورقة .

٥ – أحمد بن مطرف العسقلانى (٥) طارىء (–٤١٣) ، أديب فاضل له مصنفات فى اللغة والأدب وديوان شعر .

٦ – محمد المسبحى (٦) : أصيل (–٤٢٠) ، رزق حظوة فى التأليف وخدم الحاكم وتقلد القيس والبهنا له كتاب أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية وأشعار الشعراء وأخبار المغنين

(١) الوفيات ج ١ ص ص ١٣٤ (٢) المرجع السابق ص ٣٣٨
(٣) المرجع ذاته ص ١١٧ (٤) المرجع نفسه ص ٥١٤
(٥) معجم الأدباء ج ٥ ص ٦٣ (٦) الوفيات ج ١ ص ٥١٥

ومجالس القضاة والحكام والأدباء والمتغزلين وغيرهم وهو مفقود ومنه قطعة مخطوطة وله غيره كتب مفقودة .

٧ — ابن مفلس (١) : طارىء (–٤٢٧) ، كان من أهل العلم باللغة والعربية يشار إليه فيهما سكن مصر واستوطنها وتلقى بها عن يعقوب النجيرمى وله شعر جيـــد .

٨ — محمد العميدى (٢) : طارىء (– ٤٣٣) ، نحوى لغوى أديب مصنف ولى ديوان الإنشاء أيام المستنصر وصنف تنقيح البلاغة فى عشر مجلدات والعروض والقوافى وهو كبير .

٩ — محمد البارودى (٣) : أصيل (–٤٤٩) ، نحوى ثقة . روى عن الحافظ ابن سعيد المصرى .

١٠ — على بن القطاع (٤) : طارىء (–٥١٥) ، أحد أئمة الأدب خصوصاً اللغة ولد بصقلية ، وقرأ الأدب على فضلائها وله تآليف كثيرة منها « كتاب الأفعال » منه مختصر مخطوط و « العروض البارع » و « الشافى فى القوافى » وهما مخطوطان و « لمح الملح » جمع فيه طائفة من شعر الأندلسيين و « أبنية الأسماء » و « الدرة الخطيرة فى المختار من شعر الجزيرة » أى صقلية وهذه كلها مفقودة . وصل إلى مصر فى حدود سنة ٥٠٠ فبالغ أهلها فى إكرامه .

١١ — يوسف النجيرمى اللغوى (٥) : طارىء (–٥٢٠) ، من البصرة من أهل بيت كلهم ماهر فى اللغة . وكان هو أمثلهم . وكان أهل مصر يرغبون فى خطه حتى بيعت نسخة ديوان جرير بعشرة دنانير وأكثر ما تروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار وأيام العرب بمصر عن طريقه .

١٢ — ابن بابشاذ (٦) : أصل (–٤٥٤) ، من أئمة النحو وأعلام العربية كان يتصفح الرسائل بديوان الإنشاء لإصلاح ماعساه يكون من أغلاط الكتاب

١٣ — أحمد بن مطرف (٧) : أصيل ، لغوى ، كان فى أيام الحاكم له تآليف فى

(١) المرجع السابق ص ٢٩٦
(٢) البغية ص ١٩ .
(٣) البغية ص ١٥
(٤) الوفيات ج ١ ص ٣٣٩
(٥) المرجع السابق ٣٥١
(٦) المرجع السابق ص ٢٣٥ والبغية ص ٢٧٢ .
(٧) البغية ص ١٧٠ ومعجم الأدباء ج ٥ ص ٦٣ .

الأدب منها كتاب « النوائح » . وهو فى اللغة كبير الحجم ورسالة فى الضاد والظاء كتب بها إلى أحمد بن القاسم الحسينى عامل تنيس .

١٤ — أحمد « الرشيد بن الزبير » (١) : أصيل ، (٥٦٣) ، سبق ذكره فى الشعر كاتباً فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً مؤرخاً منطقياً مهندساً طبيباً موسيقياً منجماً ، فكان من أفراد الدهر فضلا . ولى النظر بثغر الإسكندرية والدواوين السلطانية بغير اختياره ، وأرسل فى سفارة إلى اليمن فسمت نفسه إلى الخلافة فأجابه قوم وسلموا عليه بها . وضربت بإسمه نقود فقبض عليه وقتل .

له كتب كثيرة منها « أمنية الألمعى ومنية المدعى » وهو مخطوط و « جنان الجنان وروضة الأذهان » فى أربع مجلدات يشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليها وهو مفقود .

١٥ — الحسين بن الوليد (٢) : طارىء (–٣٩٠) ، نحوى عارف بالعربية مقدم فيها أقام بمصر أعواماً ثم عاد إلى الأندلس فأدب أولاد المنصور محمد بن أبى عامر

١٦ — سلامة بن عبد الباقى (٣) : طارىء (–٥٩٠) ، نحوى عالم بفنون الأدب من أهل الأنبار سكن مصر وكانت له حلقة بجامع عمرو يقرىء بها القرآن والنحـــو .

٤ — الفقهاء والمحدثون

١ — محمد الماسرجسى (٤) : طارىء (–٤٨٤) ، فقيه شافعى خرج مع أبى إسحاق المروزى إلى مصر ولازمه إلى أن مات ثم رجع إلى بغداد . وسمع بمصر من أصحاب المزنى ويونس بن عبد الأعلى . ونسبته إلى جده ماسرجس وكان نصرانياً فأسلم .

٢ — عبد الغنى بن سعيد (٥) : أصيل (–٤٠٩) ، كان حافظ مصر فى عصره له تآليف منها « مشتبه النسبة » و « المؤتلف والمختلف » وهما مطبوعان كانت بينه وبين جنادة اللغوى والمقرئ الأنطاكى مودة أكيدة واجتماع بدار الحكمة ومذكرات . فلما قتل الحاكم صاحبيه استتر مدة ثم أمن فظهر . قيل للدار قطنى

(١) الوفيات ج ١ ص ٥١ .
(٢) البغية ص ٢٣٧ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٩
(٤) الوفيات ج ١ ص ٤٥٩
(٥) المرجع السابق ص ٣٠٥

هل رأيت فى الحديث أحداً يرجى علمه فقال نعم شاباً بمصر كأنه شعلة نار يقال له عبد الغنى ولما خرج الدار قطنى من مصر وبكى مودعوه قال لقد تركت عندكم خلفاً يعنى عبد الغنى هذا .

٣ — محمد بن العربى المعافرى (١) : طارىء (—٥٤٣) ، هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها رحل إلى المشرق ودخل مصر فلقى بها وبالإسكندرية جماعة من المحدثين افكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم . وعاد إلى أشبيلية بعلم كثير لم يدخل به أحد قبله ممن رحل إلى المشرق وكان من أهل التفنن فى العلوم والجمع لها مقدماً فى المعارف كلها .

٤ — مجلى بن جميع الأرسوفى (٢) : طارىء (—٥٥٠) : من أعيان الفقهاء المشار إليهم فى وقته صنف كتاب « الذخائر » فى فقه الشافعية جمع فيه من المذهب شيئاً كثيراً وفيه نقل غريب لا يوجد فى غيره وهو مفقود . تولى قضاء مصر بتفويض من بن السلار وكان صاحب الأمر إذ ذاك،وأرسوف بليدة بالشام على ساحل البحر .

معاهد العلم أيام الفاطميين

كانت مجالس العلم منذ قديم هى المساجد الجامعة يجلس فيها العلماء فيدرسون الفقه ويملون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بأس من إنشاد الشعر بتلك المساجد كما كانت تدرس بها العربية وفروعها والطب وغيره .

كان هذا النظام معمولا به فى حرم بيت الله وفى مسجد رسوله ومساجد الأمصار كلها كالجامع الأموى بدمشق وجامع عمرو بالفسطاط ، وجامع أحمد بن طولون بالقطائع . وقد ألقى الإمام الشافعى دروسه بجامع عمرو ، وأملى الربيع بن سليمان تلميذه الحديث بجامع بن طولون على إثر الفراغ من بنائه . (٣)

وأول ما ملك الفاطميون مصر بنى لهم القائد جوهر الجامع الأزهر ، شرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ، وكمل بناؤه لسبع خلون من رمضان

---

(١) المرجع ذاته ص ٤٨٩

(٢) المرلمع ذاته ص ٤٤٥ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٢ .

سنة ٣٦١ ثم شرع العزيز بالله في بناء الجامع الذى أتمه ابنه الحاكم بعده وسمى باسمه كما بنى الحاكم أيضاً جامع المقس وجامع راشدة ، فصار بمصر على أيام الفاطميين ستة مساجد جامعة تقام فيها الجمعة جميعاً . (١)

بدأ الأزهر حياته مسجداً للصلاة ولم تكن نيتهم في إنشائه أن يتخذوه لغير العبادة بدليل أن الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله اتخذ بجواره دارا للجماعة من الفقهاء وعدتهم خمسة وثلاثون ، وقد أجرى عليهم الخليفة أرزاقاً ، وكان الوزير ابن كلس أيضاً يبرهم ويصلهم . وكان هؤلاء الفقهاء يجتمعون بالمسجد كل يوم جمعة عقب صلاتها فيقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

ثم نشأت فكرة اتخاذه داراً لمدارسة العلم على مذهب الشيعة (مذهب الدولة) بعد ذلك .

وقد ذكروا من أمر مدارسة العلم فيه أن الطلاب كانوا يحضرون إليه حتى النساء ، وأن الحاكم بأمر الله أمر بنقل مكتبته التى كانت بالقصر وتوزيعها على المساجد الثلاثة : الأزهر والحاكم والمقس وكان نصيب الأزهر منها نحو نصفها .

إذن كانت هذه المساجد الثلاثة مدارس للعلم أيام هذه الدولة وإلافليس لتوزيع كتب المكتبة عليها قيمة إذا لم تكن للاستعانة بها في الدراسة .

والواقع أيضاً أن جامع عمرو بالفسطاط كان في أيام الفاطميين معهداً لدراسة العلم فسلامة بن عبد الباقى كانت له حلقة بجامع عمرو يقرئ بها القرآن والنحو (٢) وهو من علماء هذه الدولة كما مر بك

ومسجد بن طولون ظل عامراً إلى أيام المستنصر الفاطمى فلما حصل الغلاء واشتد ومات الناس جوعاً وخربت القطائع بأسرها وعدم السكن بها خرب المسجد وصارت المغاربة تنزل فيه بإبلها ومتاعها عندما تقدم من الحج ، وتمادى الأمر على ذلك إلى أن عمره السلطان لاجين من المماليك وكان لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون هرب واختفى بمنارة هذا الجامع ونذر لله إن نجا ليعمره فنجاه الله وتسلطن فأمر بتجديده . (٣)

وإذا أضفت إلى هذه المساجد « دار العلم » التى أنشأها الحاكم وجعل فيها القراء

(١) المرجع السابق ص ١٧٦ .

(٢) البغية ص ٢٥٩

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٢ .

والمنجمين وأصحاب النحو واللغة لمساعدة طلاب العلم بما يريدون من تحصيل عرفت مدى ما كان عند هذه الدولة من جهد فى سبيل إعداد معاهد العلم . وهو جهد لا نحمده كثيراً لهذه الدولة العظيمة فى كل مظاهرها .

فلم يكن بمصر على أيام الفاطميين مدارس على النظام الذى عرف فيها بعد على أيام الأيوبيين والمماليك واستمر إلى اليوم ، ذلك النظام الذى كان أول من أحدثه فى الإسلام هو الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق ؛ فإنه بنى أول مدرسة فى الإسلام وقررها للفقهاء معالمهم. شرع فى بنائها سنة ٤٥٧ وفرغ منها سنة ٤٥٩ ودرس بها كثير من الأعلام أمثال أبى إسحاق الشيرازى والإمام الغزالى وغيرهم .

قال المقريزى فى الخطط « فاقتدى الناس بنظام الملك من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر . أما مصر فإن عهد الفاطميين بها حرم البلاد من قيام هذا النوع من المدارس إذ كان مذهبهم مخالفاً لهذه الطريقة » ويقول ابن خلكان « ولما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء (١) » .

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٢ .

الفَصلُ الثَّامِن

الأدبُ العَرَبي في مِصر

في عصر الدولة الأيوبيّة

من سنة ٥٦٧ إلى سنة ٦٤٨ هـ

- نبذ تاريخي
- أسباب انتعاش الآداب والعلوم في عهد الدولة الأيوبية
- الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الأيوبية

نبذ تاريخي عنها ٥٦٧ – ٦٤٨ هـ

كان صلاح الدين رأس هذه الدولة قد قدم إلى مصر مع أسد الدين شيركوه أيام خلافة العاضد الفاطمى لمحاربة الصليبيين ، فقتل شيركوه شاور وزير العاضد وتولى مكانه . ثم مات فتولى صلاح الدين وزارة العاضد وكان ذلك سنة ٥٦٥ .

قالوا ولم يكن للعاضد مع صلاح الدين إلا مجرد الاسم فقط (١) .

وفى آخر أيام العاضد أرسل السلطان نور الدين محمود بن زنكى إلى صلاح الدين يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للعباسيين خلفاء بغداد ، فامتنع صلاح الدين أولا ثم خضع لأمر نور الدين ، ولكنه لم يكد يقطعها حتى مات العاضد فندم صلاح الدين على عدم تمهله حتى يموت وقد كان مريضا .

وبموت العاضد سنة ٥٦٧ صارت مصر لصلاح الدين غير أنه كان تحت إمرة نور الدين : يخطب على منابر مصر للخليفة العباسى ولنور الدين ولصلاح الدين .

وما زال صلاح الدين يعمل لخير مصر : إصلاحا داخليا ، وعناية بأمر الجيش وصدا للأعداء عن البلاد ، وفتحا لما استولى عليه النصارى بالشام ، حتى مات سنة ٥٨٩. وقد ولى أمر مصر اثنتين وعشرين سنة .

ملك بعده ابنه العزيز ، مصر فكان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس وولى مصر ست سنوات انتهت سنة ٥٩٤ .

ثم ولى بعده ابنه المنصور سنتين . وقام بعده بالأمر عمه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب سنة ٥٩٦ فدامت ولايته لمصر تسع عشرة سنة . وكان عظيم الجد عالى الكعب ، مظفرا على الأعداء .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٢ .

ثم قام بالأمر بعده ابنه الكامل سنة ٦١٥ . وقد اتسعت مملكته . قال ابن خلكان (١) حكى لى بعض من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها . سلطان القبلتين ،ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد ، خليل أمير المؤمنين . » بقى الكامل فى الملك عشرين سنة . ثم ولى بعده ابنه العادل بن الكامل سنة ٦٣٥ فأقام سنتين ثم خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٣٧ فدام ملكه عشرين سنة . ثم ولى بعده ابنه الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ .

وقد ظلت الملكة شجرة الدر زوج الملك الصالح تدبر أمور المملكة بعد موت زوجها وهى تخفى موته وكانت توقع على أوراق الدولة «أم خليل» حتى حضر تورانشاه ابن زوجها فلم يحمد لها فعلها فكان ذلك جحودا لمعروفها . ومات تورانشاه سريعا فتسلطنت شجرة الدر بعد موته وخطب لها على المنابر فكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة «واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل » ثم خلعت نفسها بعد ثلاثة أشهر واستقر زوجها الملك المعز أيبك التركمانى فكان ذلك نهاية حكم الأيوبيين وابتداء عصر المماليك سنة ٦٤٨ .

★ ★ ★

وما يعرض لأحد شك فى أن ولاية صلاح الدين وأعضاء أسرته لمصر ، كانت استقلالا محضا وسلطانا لاقيد فيه ، لأن الخلفاء ببغداد كانوا قد وصلوا من الضعف إلى حد أنهم صاروا لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم بله إرهاب المستقلين بأطراف مملكتهم .

فالملق والمصانعة التى كان المستبدون بمصر قبل الدولة الأيوبية من الطولونية والإخشيدية يصطنعونها انقلب حالها فكانت من الخلفاء لهؤلاء الشجعان المستقلين بأطراف المملكة .

لما وصل إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ، الخبر بما تجدد من أمر مصر وعودة الخطبة

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٥١.

والسكة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة حل ذلك عنده أعظم محل وسير الخلع والأعلام السود إلى مصر والشام (١) .

وقام شعراء بغداد ينظمون القصائد ويرسلونها إلى صلاح الدين بمصر تفخيما لأمره وتنويها بشجاعته، كما كان يفعل ابن التعاويذى، وسيمر بك شىء من تلك المدائح فيما يمر بك من شعر قيل فى هذه الدولة (٢) .

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٢٨٤

(٢) المرجع ذاته.

أسباب انتعاش الآداب والعلوم
فى عهد الدولة الأيوبية

كانت الآداب والعلوم منتعشة فى أيام هذه الدولة لأسباب ؛ منها ماهو خاص بتلك الدولة لم يكن للدول السابقة عهد به ومنها ماهو عام شاركتها فيه غيرها من الدول السابقة . فأما ماشاركت فيه غيرها فهو الاستقلال وانطلاق اليد فى الإصلاح والجود ، وما كان لولاة الأمر فى هذه الدولة ووزرائها من عناية بالعلم وملكات فى الأدب .

أما ماهو خاص بها لم تشركها فيه دولة سابقة فهو المدارس التى لم تعرفها مصر قبل هذه الدولة . وسنخص بالحديث سببين هما أهم تلك الأسباب وهما :

١ — عناية الدولة بالعلم والأدب .

٢ — حدوث عهد المدارس بمصر .

١ — عناية الدولة الأيوبية بالأدب والعلم

كان فضل سلاطين هذه الدولة فى أنفسهم ، وعرفانهم لقدر العلوم والآداب ، وتمام ملكاتهم العربية أمرا شائعا فيهم متوارثا عن أوائلهم .

ومثل هذا الذى كان منهم من تمام الملكة العربية لا يكون غالبا إلا لعربى ورثها عن آبائه وهو يجعلنا نميل إلى رأى القائلين بأن هذه الدولة عربية النسب تنتهى إلى «مروان» من أبناء خلفاء بنى أمية كما قال ذلك بعض المؤرخين (١) .

ذكروا عن صلاح الدين أنه كان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه . قيل إنه كان كثيرا ماينشد قول أبى منصور الحميرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر   من الوشاة وطيف الصبح قد هتفا

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ .

فكدت أوقظ من حولى به فرحا وكاد يهتك ستّر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيــل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفــا

وكان يعجبه قول على بن مفرج المعرى الأصل المصرى الدار فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحــه وأقبح منه حين يظهــر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عايه منازله

قالوا : فكان إذا وصل إلى قوله : مات الشباب يمسك كريمتيه وينظر إليهما ويقول أى والله مات الشباب ! !

وذكر العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين فى أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين :

أيها الغائبــــون عنـــــــا وإن كنتم لقلبى بذكـــــركم جيرانا
إننى مـــذ فقـــدتكم لأراكم بعيــون الضمير عندى عيــانا(١)

قال ابن شداد(٢) : سمعت السلطان (يريد صلاح الدين) ينشد وقد قيل له : إن الوخم قد عظم بمرج عكا وإن الموت قد فشا فى الطائفتين (جنده وجند أعدائه) :

اقتلــونى ومالكـــــا واقتلوا مالكـــــا معى

وفى كتاب الروضتين (٣) : أن تورانشاه أخا صلاح الدين لما توفى بالإسكندرية ووصل الخبر إلى السلطان وهو نازل بظاهر حمص ، حزن حزنا شديدا وجعل يكثر من إنشاد أبيات المراثى وكان كتاب الحماسة من حفظه .

***

هذا شأن صلاح الدين فى الأدب فأما شأنه فى العلم فقد كان عجيبا ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة (٤) أن صلاح الدين رحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى قال ولم يعهد ذلك لملك بعد هرون الرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ .

وظل صلاح الدين يواظب على سماع الحديث كما يواظب على الصلاة حتى إنه

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٦ ، ٥٧
(٢) الوفيات ج ٢ ص ٣٩٨
(٣) ج ٢ ص ١٨ .
(٤) ج ٢ ص ٣٥

سمع فى بعض المصافات (الحروب الصيفية) جزءا وهو بين الصفين وكان يتبجح بذلك ويقول : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثا (١) .

وذكروا عن الملك الكامل بن العادل أنه كان يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح (٢) ، وأنه كان يبيت عنده فى كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء يشاركهم فى مباحثاتهم ويسألهم عن المواضع المشكلة فى كل فن وهو معهم كواحد منهم . وكان يعجبه هذان البيتان وهما :

ما كنت من قبل ملك قلبى تصد عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما حللت فى موضع حصين

وكان كثيرا ماينشد فى مرض موته

يا خليلى خبرانى بصدق كيف طعم الكرى فإنى نسيته (٣)

وكذلك رووا عنه ما يدل على أنه كان شاعرا . قال بعضهم : كان الكامل محبا للعلماء له شعر حسن واشتغال بالعلم (٤) وقالوا : كانت عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها فمن أجابه حظى عنده (٥) .

ويدل على أنه كان شاعرا حاضر البديهة يحسن مطارحة الشعر ما قاله السلاح الصفدى فى تاريخه : حكى صاحب كتاب « الأشعار بما للملوك من النوادر والأشعار قال : كان الملك الكامل ليلة جالسا فدخل عليه مظفر الأعمى فقال له : أجزيا مظفر : (قد بلغ الشوق منتهاه) فقال مظفر (وما درى العازلون ما هو) فقال السلطان (ولى حبيب رأى هوانى) فقال مظفر (وما تغيرت عن هواه) فقال السلطان (رياضة النفس فى احتمال) فقال مظفر (وروضة الحسن فى حلاه) فقال السلطان (أسمر لدن القوام ألمى) فقال مظفر (يعشقه كل من يراه) فقال السلطان (ريقه كنه مدام) فقال مظفر (ختامها المسك من لماه) فقال السلطان (ليلته كلها رقاد) فقال مظفر (وليلتى كلها انتباه) فقال السلطان (وما يرى أن أكون عبدا) فقال مظفر (بالملك الكامل احتماه)

العالم العامل الذى فى كل صلاة ترى إياه
ليث وغيث وبدرتم ومنصب جل مرتقاه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٢
(٤) المرجع نفسه ص ٢٣٦
(٥) المرجع السابق ص ٢٣٧

وذكروا (١) عن فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب : أنه كان إلى شجاعته لماعا متفننا كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر ومن شعره :

أنا فى أسر السقـــام من هـــوى هـذا الغـلام
رشـأ ترشـق عينـــا ه سهـامى بسهـــام
كلمـــا أرشفـــنى فـا ه على حـــر الأوام
ذقت منــه الشهـــد فى الثلــج المصفى فى المـــدام

وقد اتصل به شاعر من الطارئين على مصر هو تاج الدين أبو اليمن واختص به وكان سبب ذلك أن الأمير حضر مجلس القاضى الفاضل ، فجرى ذكر بيت من شعر المتنبي فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به فأعجب به فرخ شاه وسأل عنه القاضى فعرفه بفضله ، فلما قام الأمير من المجلس أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمه إلى أن مات (٢) ومن قول تاج الدين فيه :

أنا عبد من شهـد الزمان بعجزه عن أن يجيء له بند مشبه
طابت موارده فغص فنـــاؤه وشدا الحداة بذكره فى المهمه

* * *

وفى بغية الوعاة (٣) : أن العزيز بن صلاح الدين الأيوبى رأى الحسن بن الخطير النعمانى الملقب بالظهيرى ، يدرس بالقدس عند الصخرة فسأل عنه فعرف قدره فأحضره ورغبه فى المسير معه إلى مصر ليقمع به الشهاب الطوسى فورد معه وأجرى له فى كل شهر ستين دينارا ومائة رطل خبز ، وكل يوم خروفا وشمعة ، وأن العزيز قدر المناظرة بينه وبين الطوسى فركب يوم العيد وهما معه وتناظرا بين يديه فانكسر الظهيرى وانضوى إلى مدرسة الأمير الأسدى يدرس بها مذهب أبى حنيفة إلى أن مات سنة ٥٩٨ هـ .

وفى ترجمة الإمام تاج الدين أبى اليمن النحوى اللغوى المقرئ المحدث الحافظ ، أنه قدم دمشق من بغداد فنال حشمة وافرة واستوزره فرخ شاه، ثم اتصل بأخيه تقى الدين صاحب حماة واختص به وكثرت أمواله، وقرأ عليه المعظم عيسى شيئا كثيرا من كتب النحو : ككتاب سيبويه وشرحه والإيضاح، وكان الملك المعظم توران شاه بن أيوب

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٣
(٢) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٥
(٣) ص ٢١٩ .

أخو صلاح الدين ، كريما أريحيا ، أعطى وأغنى خلقا كثيرا حتى إنه مات وعليه مائتا دينار قضاها عنه أخوه صلاح الدين الذى كان يعظمه ويثنى عليه كثيرا ويرجحه على نفسه قال ابن خلكان (١) :

حكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين المعروف بابن الخيمى نزيل مصر الأديب الفاضل قال : رأيت فى النوم شمس الدولة توران شاه وهو ميت فمدحته بأبيات وهو فى القبر فلف كفنه ورماه إلى وأنشدنى :

لا تستقلن معـــروفا سمحت به   ميتاً فأمسيت منه عارى البدن
ولا تظنن جودى شابه بخــــل   من بعد بذلى ملك الشام واليمن
إنى خرجت من الدنيا وليس معى   من كل ما ملكت كفى سوى كفنى

وهذا الخيال عندى أبلغ من الحقيقه فى بيان فضل هذا الرجل ومقدار أريحيته فإن جوده بكفنه فى قبره دليل على أنه استدان ما استدان فى حياته من أجل الكرم وأريحيته ، ولا يصور لحالم حلمه أن ممدوحه يرد عليه بالشعر إلا إذا كان هذا دأبه فى حياته الدنيا .

* * *

وقد كان رجال الدولة : من وزراء وقواد يسيرون على نهج سلاطينها فى الاحتفال بالعلم والاعتزاز بالأدب .

فهذا القاضى الفاضل قد عرف عنه من مجالسة الأدباء ومسامرتهم ، مايدل على مقدار فضله ويرفع فى عالم الأدب شأنه . وقد ملأ العماد الأصبهانى خريدته بمساجلات القاضى الفاضل ومسامراته ، ودل بذلك على أن الرجل كان جعبة أخبار ولا يغيب عنه شىء من محاسن الماضين والمعاصرين .

ذكر فى ترجمة القاضى أبى الفتح قال : أنشدنى القاضى الفاضل أبياتا لأبى الفتح محكمة النسج علق بحفظى منها قوله :

أثر المشيب بفــوده وفـــؤاده   ألجاه أن يبغى لديهـــا الجاها

وأنشدنى له فى ابن الزبير وكان أسود (يريد الرشيد بن الزبير)

يا شبه لقمــــان بلا حكمـــة   وخاسرا فى العلم لا راسخـــا
سلخت أشعـــار الورى كلهم   فصرت تدعى الأسود السالخـــا

(١) ج ١ ص ١٠٠

وفى ترجمة أبى عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى أنشد له بيتين وهما :

يا عنــق الإبريق من فضــة ويا قــوام الغصن الرطــب
هبك تجافيـــت وأقصيتنى تقــدر أن تخرج من قلبى

ثم قال : قال القاضى الفاضل : وليس له أحسن من هذين البيتين .

والقاضى الفاضل هو الذى اشتهر بجمع الكتب يطلبها من شرق وغرب ويبذل فيها المال الكثير ، وهو الذى خوله السلطان صلاح الدين خزانة الكتب التى كانت للفاطميين . قال السيوطى فى حسن المحاضرة (١) .... ووجد صلاح الدين خزانة كتب ليس لها فى الإسلام نظير تشتمل على ألفى ألف مجلد ، منها بالخطوط المنسوبة مائة ألف فأعطاها القاضى الفاضل .

وفى ترجمته فى وفيات الأعيان (٢) يقول ابن خلكان : برز فى صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين ، وله فيه غرائب مع الإكثار . أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق إذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد وهو مجيد فى أكثرها .

وقال عنه العماد فى الخريدة : إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة .

* * *

وعماد الدين الأصبهانى حصلت بينه وبين صلاح الدين مودة أكيدة وامتزاج تام لفضله وأدبه البارع قصده بالشام وأنشده قصيدة طويلة جدا ولزم بابه وغشى مجلسه ثم انتظم فى سلك جماعته فاعتمد عليه وقرب منه حتى صار من جلة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم . وكان ينوب عن القاضى الفاضل فى خدمة السلطان بالشام إذا انقطع القاضى بمصر لتلك الخدمة .

وفضل العماد عظيم جدا : فى كتابته ومؤلفاته التى أهمها خريدة القصر وجريدة العصر ذكر فيها الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة ٥٧٢ وجمع فيها شعراء العراق العجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، ولم يترك إلا النادر الخامل (٣) .

---

(١) ج ٢ ص ٣٤

(٢) ج ١ ص ٢٨٤ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٧٥

٢ ـ حدوث عهد المدارس بمصر

كانت الدولة الأيوبية أول دولة أنشأت المدارس بمصر ، ووقفت عليها الأوقاف التى تضمن حياتها بعد موت منشئها .

وأول من سن هذا النظام فى إنشاء المدارس وتعيين المعلمين بها وتحديد ما يلقى فيها من أنواع العلوم وإجراء الأرزاق على الطلبة والمعلمين والقائمين بأمر المدرسة جميعا ، وضمان ذلك بالأوقاف التى توقف على المدرسة لتحيا بعد موت منشئها ، هو نظام الملك وزير ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقى .

وقد مر حديث ذلك وحديث اقتداء صلاح الدين فى مصر بما عمل نظام الملك فى بغداد وأن الفاطميين فاتهم هذا الفضل مع كثرة ما أنفقوا وأحدثوا من منشآت .

كما مر بك تعليل نكولهم عن إنشاء المدارس فى كلام المقريزى وابن خلكان .

فلما ملك صلاح الدين مصر وشرع فى إصلاح أحوالها كان من مناحى هذا الإصلاح إنشاء المدارس على نمط مدرسة نظام الملك .

قال ابن خلكان (١) : لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس فعمر بالقرافة الصغرى ، المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وبنى مدرسة بالقاهرة بجوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفا كبيرا ، وجعل دار سعيد السعدار خادم المصريين خانقاه ووقف عليها وقفا طويلا، وجعل دار عباس مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد كبير أيضا ، والمدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية ووقفها جيد أيضا ، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا وله وقف جيد .. وله بمصر مدرسة للمالكية .

* * *

وهذه المدارس كان قوامها تعليم الدين : فهذه مدرسة للحنفية وتلك للشافعية وثالثة للمالكية، ولكننا نعلم أن الدين الإسلامى لا يستقل عن علوم العربية لأن منها يستمد فهمه ويدرك كنهه ، فلا بد أن العربية وفروعها كانت تدرس بهذه المدارس .

ولما كان الناس على دين ملوكهم صار الأمراء والوزراء فى الدولة الأيوبية يعملون

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٢

عمل ملوكها فينشئون المدارس ويقفون عليها الأحباس التى تضمن لها حياتها وإجراء الرزق على أساتذتها وطلابها والقائمين بأمرها جميعا . فبذلك عظمت بمصر حركة العلم .

ونذكر على سبيل المثال مما كان يقوم به غير ولاة الأمر فى هذه الدولة من إنشاء دور العلم ، مدرسة القاضى الفاضل التى جعل فيها كتبه كلها ووقف عليها الأوقاف التى ضمنت لها الحياة إلى عصر المماليك . وكانت الدروس تلقى فيها ويستعين طلابها بكتب مكتبتها ، حتى أصاب مصر الغلاء سنة ٦٩٤ فنهبت كتبها وبيعت فى ذلك الغلاء(١)

ولم يكن التعليم مقصورا على هذه المدارس بل إنه ظل كذلك كما كان قبلا يدرس فى المساجد الجامعة فمسجد عمرو بالفسطاط ،ومساجد الحاكم والمقس وراشدة وغيرهم كانت متسعا لحلقات الدروس التى كان العلماء يتبرعون بإلقائها . أو كانت لهم أوقاف رصدت عليهم نظير ما يقومون به من تعليم .

ولعلك على ذكر لما قلنا فى الكلام على معاهد التعليم بالدولة الفاطمية من أن جامع ابن طولون ظل عامرا إلى أن تخربت القطائع أيام المستنصر فخرب الجامع بخرابها ، وظل كذلك إلى أن جدد فى عهد السلطان لاجين من سلاطين المماليك .

***

أما الأزهر فإنه لم يكن على عهد الأيوبيين موضع دراسة للعلوم ، لأنهم عملوا على الإقلال من شأنه فأفتى قاضى قضاتهم صدر الدين بن درباس بعدم جواز الجمعة إلا بمسجد واحد بالمدينة فاقتصر عليها فى جامع الحاكم وعطلت الجمعة بالأزهر ، وكذلك قطع صلاح الدين عن الأزهر كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم بأمر الله فبطلت أهمية هذا المسجد الذى كان هو مسجدهم الأول بناء ومقاما ، فغبر مدة حكم الأيوبيين مفتوحا كمغلق ومباحا فيه التعليم كممنوع ، لأن الطلاب كانوا يجدون الخير الكثير والمزايا العديدة فى غيره ولا يجدون شيئا منها فيه .

قال فى دائرة المعارف الإسلامية (٢) : (وتغير الحال فى عهد الأيوبيين إذ كانوا من متحرجى أهل السنة فحاولوا محو كل أثر للفاطميين الشيعة ، فمنع صلاح الدين الخطبة من الجامع الازهر وقطع عنه كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم وانقضى نحو قرن من الزمان قبل أن يستفيد الجامع الأزهر عطف الولاة ووجوه البلاد عليه) .

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٦٦ .
(٢) المجلد الثانى العدد الأول ص ٥٢ .

الشعر فى عهد الدولة الأيوبية

١ — بواعثه

اجتمعت فى هذه الدولة الأسباب التى بها ينتعش الشعر وتروج سوقه . وقد ذكرنا منها تعلق رجال هذه الدولة بالأدب وحبهم لرجاله وعقدهم مجالسه، وكونهم فى أنفسهم على تمام من الملكة العربية جعلهم يقدرون قدر الأدب عامة والشعر خاصة فكانوا يروون جيده ويحفظون كثيره ويحرصون على مصاحبة رجاله .

ونذكر أنهم كانوا إلى جانب ذلك أجواداً لا يبقون شيئا مما يصل إلى أيديهم ، وكان كثيرا : من جبايات المماليك الواسعة التى صارت فى أيديهم ، ومن غنائم الحرب . وجزى النصارى وفداء من يفتدى من أسراهم ، وكل ذلك لم يكن يبقى منه شىء يدخره هؤلاء الملوك ولا كانوا فى غالب أمرهم منصرفين إلى الدنيا يمتعون أنفسهم بمتاعها ، فكان كل ذلك مصروفا فى سبيل الخير موزعا على الفقراء وأهل الصلاح والعلماء والشعراء . ذكروا أن صلاح الدين لما مات لم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصريا ودينارا واحد صوريا ولم يخلف ملكا ولا داراً ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة (١) وقالوا : إنه كان متدينا فى مأكله وملبسه فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف (٢) .

كان هذا المال الكثير لا يألف الصرر بل يمر عليها وهو منطلق ، فقد ذكروا أنه لما فتح القدس كانت الشروط أن يدفع النصارى عن كل رجل عشرين دينارا وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل صغير ذكراً أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر فديته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً . فأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال فلم يرحل عن القدس ومعه من المال الذى جمعه شىء وكان يقارب مائتى ألف دينار (٣) أفلا يكون نصيب الشعراء من هذا كثيرا وهم الذين قصدوه من كل البلاد يعلقون عليه الآمال ويمدحونه : مدحه العلم الشاتانى بقصيدة أولها :

أرى النصر مقرونا برايتك الصفرا   فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٢

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧

ومنهـــا :

يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى　　　فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر المعروف بابن الشحنة بقصيدة أولها :

سلام مشوق قد براه التشوق　　　على جيرة الحى الذين تفرقوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتا ومنها قوله :

وإنى امرؤ أحببتـــكم لمكـــارم　　　سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وقوله :

وقالت لى الآمال إن كنت لاحقا　　　بأبنـــاء أيوب فأنت المـــوفق

ومدحه ابن قلاقس ، وابن الذروى ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، وابن البحرانى الإربلى ، وابن ذهن الحصى ، ومحمد بن إسماعيل بن حمدان الحبرانى (١) . وصلاح الدين هو الذى أعطى أحمد بن على أبا الرضا النيلى على قصيدة مدحه بها خمسمائة دينار (٢) وقد أنشده بعض أهل المشرق :

الله أكبر جاء القـــوس باريها　　　ورام أسهم دين الله راميهـــا

فكم لمصر على الأمصار من شرف　　　باليوسفين فلا أرض تدانيهـــا

فبابن يعقوب هزت جيدها طربا　　　وبابن أيوب هزت عطفها تيهـــا

قل للملوك تخلى عن ممالكهـــــا　　　فقد أتى آخذ الدنيـــا ومعطيهـــا

فلما أنشده اياها أعطاه ألف دينار (٣) .

والعطاء كما تعلم يطلق السنة الشعراء ويفتق أذهانهم عن المعانى فتستفيد العربية من ذلك ثروة تبقى على الدهر ، وتكون مادة للأدب فى الأجيال المقبلة تتراءى للأدباء فيها همم هؤلاء الملوك وعظيم آثارهم .

وكان إلى جانب هذه الأسباب سبب جديد فى هذه الدولة هو دينى وسياسى تثيره العصبية للدين والوطن وتؤرث ناره تلك الضغينة على الصليبيين الذين دفعهم تعصبهم الدينى الممقوت إلى الإغارة على بلاد المسلمين والمبالغة فى أذى أهلها والانتقام الفظيع من سكانها ، فكان الأمير الذى يقوم بالذياد عن هذا الحمى ويدفع هذه الغوائل

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٩

(٢) البغية ص ١٤٨ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٥

عن الوطن وأهله محبوبا مفدى بالنفوس تستأسر له القلوب وتجتمع على ولائه . وقد كان هذا حال صلاح الدين وسلاطين دولته من بعده .

كان الناس يفرحون ويتباشرون بالانتصار يحرزه الأيوبى على الصليبيين لأنه انتصار للإسلام على الشرك وحماية للوطن ، وذود عن أهله . قال ابن خلكان فى فتح صلاح الدين لبيت المقدس (١) : « وكان فتحا عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الحذق والزهد عالم . وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله تعالى على يده من فتح الساحل وقصد القدس قصده العلماء من مصر والشام ولم يتخلف أحد منهم ، وارتفعت الأصوات بالضجيج وبالدعاء والتهليل والتكبير » .

***

وفى أيام العادل أخذ الإفرنجة دمياط فشق ذلك على المسلمين بديار مصر وغيرها ، ولما وصل إليه الخبر حزن ومرض مرض الموت . فلما تولى بعده الملك الكامل وأخرجهم منها كان يوما مشهودا أنشد فيه راجح الحلى :

هنيئاً فإن السعد أضحى مخلـــدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعــدا
حبانا إله الخلق فتْحاً بــدا لنا مبيتاً وإنعاماً وعزاً مؤيــــــدا

إلى أن قال :

أعــبّاد عيسى ، إن عيسى وحزبه وموسى جميعا يخدمــون محمدا

فكان فى هذا البيت إشارة لطيفة جداً وإتقان عجيب ، فإن موسى وعيسى ابنى العادل كانا حاضرين والإشارة بمحمد إلى الكامل لأنه اسمه . (٢)

ولم يكن فرح الناس بما يحرزه سلاطين الأيوبيين من النصر خاصاً بمصر أو الشام. بل إنه كان يفيض من قلب كل مسلم ، فقد ذكروا أن الخبر بفتح دمياط لما وصل إلى بغداد قال الصرصرى (٣)

أتانا كتاب فيـــه نسخة نصرة ألخص معناها لذى فطن جلــد

ومنها :

ألا يا ابن أيوب لقد نلت غاية من النصر ضاهت ما بلغت من المجد

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٣٩٢
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٨
(٣) المصدر السابق ص ٣٩

بل لم يكن المسلمون يكتفون بإظهار فرحهم بالنصر ومدح ملوكهم وقوادهم الذين كان على أيديهم ذلك. بل إنهم أرسلوا بشعرهم إلى النصارى يظهرون بهم الشماتة ويفتون فى أعضادهم ، فقد حصل أن شجرة الدر أطلقت لويس التاسع ويسميه مؤرخو العرب (الفرنسيس) بشرط أن يرد القوم دمياط إلى المسلمين.

فلما سار إلى بلاده أظهر استعداداً للعودة إلى حرب مصر فقال جمال الدين ابن مطروح وكتب بها إليه (١) .

قـل للفرنسيس إذا جئتـه ... مقال صدق من قئول نصيح
آجرك الله على ما جـرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكهـا ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهـم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهـم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
تسعون ألفاً لا يرى منهمـو ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثـالها ... لعل عيسى منكمو يستريح
إن كان باباكم بذا راضيـا ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عـودة ... لأخذ ثأر أو لعقـد صحيح
دار ابن لقمان على حالهـا ... والقيد باق والطواشى صبيح

★ ★ ★

وإن من يتتبع دواوين شعراء هذا العصر يجدها زاخرة بالتحريض على القتال والتهنئة بالنصر والحمد على حسن البلاء ، فترى الشعر فى هذه الدواوين وقد لبس ثوب الحقيقة اتصل بالواقع أتم اتصال ، فصارت له روعة ودبت فيه حياة لم تكن تعهد قبل ذلك فى الشعر العربى الذى سوى بين الجبان الرعديد، والبطل الصنديد ، فجعلهما جميعاً يحميان الذمار ويأبيان الفرار .

وهذا ديوان ابن النبيه مثلا قد اشتغل صاحبه فيه بتلك الفتوح ولاانتصارات التى تمت على يد ممدوحيه ، ولم يكن فيه للأغراض التافهة أو الخيال الكاذب إلا نصيب ضئيل ، ففى هذا الديوان قصائد بعنوان « العادليات » (٢) استوفت من الديوان نصيباً كبيراً يقول فيها فى الملك العادل ابن أخى صلاح الدين .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٦
(٢) ص ١٠

له راحة فى السلم تجنى جنانها ... ويوم هياج الحرب توقد نارها
به دمر الله الفساد وأهلـــــه ... به ملة الإسلام عال منـــارها
فلا زالت الأفلاك تجرى بنصره ... ولا زال عنه قطبهـا ومدارها

وله أيضاً قوله :

كم لك فى يافا وفى المرج من ... وقائـــع غـــر مشـــاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم مـا ... بين مقتول ومأســـــور

وله فى الأشرف موسى بن أبى بكر بن أيوب (١) .

عساكر الموصل التى انكسرت ... تخبر عن نفسه وفرسانـــــه
يوم أتى جمعهم وقد قدحـــت ... سنابك الخيـل زند نيرانـــه
تفرقوا بإجماع كيــــدهم ... فالتقفتهم آيـــات ثعبـــانه
أغرقهم بحر جيشه فهمـــــو ... كآل فرعون تحت طوفانـــه

وقوله يذكر الأشرف إلى دخول خلاط فاتحاً (٢)

أطل على أخلاط يوم قدومـه ... بلُجة جيش يملأ السهل والوعرا
وقد برزت فى شكة موسويـة ... فلو أمرت بالزحف ما خالفت أمرا
تلقاه من بعـد المسافة أهلهـا ... فذا رافع كفاً وذا ساجد شكـرا
تشككت أن الناس قد حشروا ضحى ... أم الناس يستسقون ربهم القطْـرا

وكذلك الحال فى دواوين غيره من الشعراء .

٢ ـ مجالس الشعراء

عرفت فيما مضى أين كان يجلس الشعراء أيام الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية ؛ كانت مجالسهم تلك فى الأديرة التى أغرم القوم بجمال الطبيعة فيها وفتنوا بما يبذل لهم رهبانها من خمر وبمن يدور عليهم بها من غلمان ، وقرأت كثيراً من أقوالهم فى تلك الأديرة ووصف ماكانوا يشاهدون فيها .

وقدكان ذلك معقولا مقبولا فى هذه الدولة لأن ولاة الأمر فيها لم يكونوا يتحرجون عن شىء من ذلك ، بل لقدكان منهم من ساق الناس بفعله إلى ولوج هذه الأديرة كما كان يفعل خمارويه فى دير القصير ، حيث صورة العذراء التى كانت تعجبه فكان يطيل

(١) ص ١٦ من الديوان .
(٢) ص ٥٠ من الديوان .

النظر إليها ويشرب على ذلك أقداحاً . وأمر الفاطميين فى إباحتهم أنواع اللهو ، وخروجهم إلى المناظر أيام النيل وغيره ، وما كانوا يأتونه فى المواسم ويأتيه الناس بمرأى منهم ، كل ذلك معروف متعالم .

فكان اقتداء الشعب بهم شيئاً مستلزماً لفعلهم ، وخصوصاً من الشعراء الذين هم أسرع الناس إلى إجابة دواعى اللهو والإفلات من قيود الآداب .

فأما فى الدولة الأيوبية فلم يكن مثل ذلك مستساغاً به لأن ملوكها كانوا على حال من الإصلاح لا تسمح بجرأة الناس على ما كانوا يأتونه من قبل .

وأمر صلاح الدين فى الصلاح مشهور ، كان محافظاً على الصلوات فى أوقاتها ولا يصلى إلا فى جماعة (١) وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف ، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهزل ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل (٢) قال العماد الأصبهانى رأى (صلاح الدين) معى يوماً دواة محلاة بالفضة فأنكر على وقال ما هذا ! ! فلم أكتب بها عنده بعدها (٣) .

وقالوا عن العزيز بن صلاح الدين : « إنه كان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً فى أرباب الخير والصلاح سمع بالإسكندرية من الحافظ السلفى وأبى طاهر الزهرى ، وبمصر من ابن برى (٤) .

وكان العادل عفيف الفرج لا يعرف له نظر إلى غير حلاله (٥) ، وقالوا عن الملك الكامل ، أنه كان عفيفاً طاهراً اللسان والذيل لا يرى الهزل ولا العبث وكان إذا سمع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك (٦) .

وقد حكم صلاح الدين بقتل السّهروردى لما اتهمه الناس بأنه قال فى بعض كتبه : إن الله قادر على أن يخلق نبياً . (٧)

★ ★ ★

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩
(٢) المرجع السابق ص ٨
(٣) المرجع السابق .
(٤) الوفيات ج ١ ص ٣١٥
(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦٧
(٦) المرجع السابق ص ٣٣١
(٧) المرجع ذاته . ص ١١٤

فقد عدل شعراء هذه الدولة عن ولوج هذه الأديرة والاجتماع على حالة منكرة فى المتنزهات كما كان يفعل من قبلهم ، وقد أبدلهم الله من هذه المجتمعات مجتمعات نافعة ، وسمرا مفيداً يتناشدون فيه أشعاره ويتطارحون البدائه ويتعايون بالألغاز ، ويتبادلون النقد لأقوالهم وغير ذلك مما يحرك الأذهان ويبعث على الكمال ، ويحفز القرائح إلى الإجادة .

وفى هذه الأمكنة التى أعدوها لاجتماعهم ولعلها كانت أمكنة تعد من أجل ذلك ، فهى ليست دار أحدهم ولا مجلس أمير من الأمراء. بل هى من نوع الأنديه التى يجتمع فيها اليوم أهل دراسة واحدة أو مهنة خاصة لتبادل الآراء والنظر فى المصلحة المشتركة بينهم .

ولعلهم فى هذه الأندية كانوا يستقبلون من يقدم إليهم من ضيوف مصر من الشعراء فيقيمون لهم المآدب ويحتفلون بتكريم ضيوفهم .

تقرأ عن هذه الأندية فى وفيات الأعيان (١) . قال فى ترجمة ابن سناء الملك « واتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكانت لهم مجالس تجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها . ودخل فى ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين ابن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكان يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون هذا شاعر الشام . وجرت لهم محافل سطرت عنهم ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضها . » ؟!!!!

والذى استطاله ابن خلكان وخشى الإملال به قد تلافاه ابن شاكر فى فوات الوفيات (٢) . فحكى مجلساً لشعراء مصريين أيوبيين اجتمعوا فى مسجد فى ليلة من ليالى رمضان فى جامع بعد الصلاة وقد وقد فانوس السحور فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى شجاع يوسف المنبوز بالنعجة أن يصنع فيه شعراً وإنما طلب بذلك إظهار عجزه فصنع وأنشد .

ونجم من الفانوس يشرق ضوؤه ... ولكنه دون الكواكب لا يسرى
ولم أر نجماً قط قبل طلوعـــه ... إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

---

(١) ج ٢ ص ١٨٩

(٢) ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها .

قال على بن ظافر فانتدبت له من بين الجماعة وقلت له : هذا التعجب لا يصح لأناقد رأينا نجوماً لا تدخل تحت الحصر ولا تحصى بالعد إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف الجماعة فى تقريعه . فصنع أيضاً وأنشد :

قالوا لواء سحور يستضاء بـــه   وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعاً يهتدون بـــه   كأنه علم فى وسطه نـــــار

فلما أصبحنا سمع من كان غائباً من أصحابنا فى ليلتنا ما جرى بيننا فصنع الرشيد محمد بن متانو وأنشدنيه :

أحبب بفانوس غدا صاعـــــدا   وضوؤه دان مـــــــن العين
يقضى بصـــوم وبفطر معـــاً   فقد حـــــوى وصف الهلالين

وصنع الفقيه القلعى :

وكوكب من خرام الزند مطلعـــه   تسرى النجوم ولا يسرى إذا رقبا
يراقب الصبح خوفاً أن يفاجئـــه   فإن بدا طائعاً فى أفقـــه غربا
كأنه عاشــــــق وافى على شرف   يرعى الحبيب فإن لاح الحبيب خبا

ثم ذكر على بن ظافر أنه صنع وأن غيره صنع فى كلام طويل نكللك فيه إلى كتاب ابن شاكر لاستعياب ما ورد به .

شعراء الدولة الأيوبية بمصر

١ ــ أم على تقيّة : طارئة ، (ــ٥٧٩) ، شاعرة صحبت السلفى بالإسكندرية

٢ ــ على بن أحمد بن عرام الأسوانى : أصيل ، (ــ٥٨٠) ، ذكره فى الخريدة

٣ ــ فخر الدين إبراهيم بن محمد الأسوانى : أصيل ، (ــ٥٨١) ، شاعر كاتب كتب لصلاح الدين ذكره فى حسن المحاضرة (١) .

٤ ــ القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى : أصيل ، (ــ٥٩٦) ، شاعر له ديوان وكاتب خدم الدولة الفاطمية ثم الأيوبية .

٥ ــ العماد الأصبهانى محمد بن أحمد : طارىء ، (ــ٥٩٧) ، شاعر له ديوان وكاتب خدم صلاح الدين .

---

(١) ج ١ ص ٣١٥

٦ - جعفر بن محمد العلوى : أصيل ، بعد ٦٠٠ سنة ، شاعر ذكره صاحب الفوات ج ١ ص ١٣١ .

٧ - ابن الساعاتى على بن رستم : طارئ ، (-٦٠٤) ، شاعر له ديوانان أحدهما فى النيل (الوفيات ج ١ ص ٣٦٢) .

٨ - الأسعد مهذب الدين بن مماتى : أصيل، (-٦٠٦) ، شاعر له ديوان شعر ونظم كليلة ودمنة وسيرة صلاح الدين (١) .

٩ - أحمد أبو الرضا النيلى : أصيل ، (-٦١٣) ، شاعر مدح صلاح الدين بقصيدة فأعطاه خمسمائة دينار (٢) .

١٠ - النجيب بن الدباغ : أصيل ، (-٦١٦)،شاعر وأديب ذكره فى حسن المحاضرة ج ص ٣٢٦ .

١١ - على بن محمد بن النبيه : أصيل ، (-٦١٩) ، شاعر له ديوان شعر ، مدح بنى أيوب واتصل بالملك الأشرف (٣) .

١٢ - مجد الملك جعفر بن شمس الخلافة : أصيل ، (-٦٢٢) ، شاعر له ديوان شعر ، مدح ابن شكر وزير العادل والكامل (٤) .

١٣ - مظفر الأعمى : أصيل ، (-٦٢٣) ، شاعر له ديوان شعر ، ذكره ابن خلكان ج ٢ ص ٩٨ .

١٤ - على بن ظافر : أصيل ، (-٦٢٣) ، شاعر وزر للملك الأشرف وله تآليف منها بدائع البدائه (٥)

١٥ - ثابت بن حسن الكريوفى : أصيل ، (-٦٢٥) ، شاعر جيد الشعر ذكره فى البغية ص ٢١٠ .

١٦ - راجح الحلى : طارئ ، (-٦٢٧) شاعر سار شعره ومدح الملوك ذكره فى حسن المحاضرة (٦) .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨

(٢) البغية ص ١٨٠

(٣) الفوات ج ٢ ص ٨٩

(٤) الوفيات ج ١ ص ١١٣

(٥) الفوات ج ٢ ص ٦٤

(٦) ج ١ ص ٣٢٦ .

١٧ – ابن الفارض عمر بن أبى الحسن : أصيل ، (–٦٣٢) ، شاعر صوفى له ديوان شعر

١٨ – الحسين ابن خيّون المصرى : أصيل ، (–٦٣٣) ، شاعر أديب تصدر بجامع مصر لإقراء الأدبيات (١) .

١٩ – البرهان بن الفقيه نصر : أصيل ، (–٦٤٠) ، ذكره فى المغرب ج٤ص٨٨

٢٠ – ابن بُصاقة نصر الله : أصيل ، (–٦٤٦) ، كاتب شاعر له ديوان شعر (٢) .

٢١ – جمال الدين بن مطروح : أصيل ، (–٦٤٩) ، شاعر له ديوان شعر ، خدم الصالح أيوب ، وكان يوماً ناظر الخزانة بمصر (٣) .

٢٢ – عبد العظيم بن أبى الإصبع : أصيل ، (–٦٥٤) ، شاعر مشهور وإمام فى الأدب (الفوات ج ١ ص ٣٧٤) .

٢٣ – بهاء الدين زهير : أصيل ، (–٦٥٦) ، شاعر وكاتب له ديوان شعر خدم الملك الصالح نجم الدين (٤) .

٢٤ – سيف الدين المشعر : أصيل ، (–٦٥٦) ، شاعر له ديوان شعر (الفوات ج ٢ ص ٧٩) .

٢٥ – هبة الله بن سناء الملك : أصيل ، (–٦٥٨) ، شاعر وكاتب له ديوان شعر وكتاب الطراز فى الموشحات (٥) .

٢٦ – على السليمانى الأربلىّ : أصيل ، (–٦٧٠) ، شاعر صوفى له بديعية . (الفوات ج ٢ ص ٧٢) .

٢٧ – على ابن سعيد المغربى : طارىء ، (–٦٧٣) ، شاعر مؤلف له كتاب المغرب فى أهل المغرب وله غيره (٦) .

٢٨ – يحيى أبو الحسين الجزار : أصيل ، (–٦٧٩) ، شاعر مخضرم الدولتين

---

(١) البغية ص ٢٣٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٤ .

(٥) الوفيات ج ٢ ص ١٨٨

(٦) الفوات ج ٢ ص ١١٢

(الأيوبية والمماليك) له منظومة فى أمراء مصر انتهى بها إلى الظاهر بيبرس وهى مخطوطة (١) .

٢٩ — على بن الحسين الذروى : أصيل ، مدح الأمير بن منقذ (الوفيات ج ١ ص ٤٤٢ ترجمة بن منقذ) .

٣٠ — على بن عمر القوصى : أصيل ، شاعر ذكره الأصبهانى فى الخريدة .

٣١ — الحسن بن شاور : أصيل ، ذكره بن فضل الله فى المسالك والسيوطى فى فى حسن المحاضرة (٢) .

أصحاب الدواوين الباقية

من هؤلاء الشعراء

هم على الترتيب :

(١) القاضى الفاضل : ديوانه مصور تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٥٩ .

(٢) ابن الساعاتى : ديوانه (مقطعات النيل) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٨ ، أما ديوانه الثانى فمفقود .

(٣) ابن النبيه : ديوانه مطبوع

(٤) ابن الفارض : « «

(٥) ابن مطروح « «

(٦) بهاء الدين زهير : « «

(٧) ابن سناء الملك : ديوانه مصور تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣١ ، الديوان المسمى (دار الطراز) جمع فيه موشحات ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٨

(١) الأعلام للزركلى ج ٣ ص ١١٥٠

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦ .

وسنعرف القارىء بهذه الدواوين تعريفاً بسيطاً يقربها إلى تصوره ليأنس بها إذا لم يكن رآها بعد . ونبدأ بالمطبوع منها على الترتيب السابق .

١ – ديوان ابن النبيه :

مطبوع بالمطبعة العلمية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ وقد حل ألفاظه وأبان عن أغراضه المرحوم عبد الله فكرى باشا ناظر المعارف المصرية .

والديوان يشتمل على ٩٥ صفحة من القطع المتوسط . وقد جعله صاحبه مجاميع معنونة كلا منها بعنوان وقد بدأه الشاعر بمقدمة صغيرة . ثم عقد عنوان « الخليفيات » للقصائد التى مدح بها الناصر أمير المؤمنين ثم « العادليات » يمدح بها العادل أخا صلاح الدين ثم « الأشرفيات » يمدح بها السلطان الأشرف موسى بن أبى بكر.

ثم يختم بقطع فى الغزل ومنها ما يمدح به الكاتب أسعد بن مماتى والقاضى الفاضل . قال يمدح الأشرف ويحرضه على قتال الإفرنج (١) .

هويتة رشئى الطرف والجيـــد ... بدرى ما بين تصفيف وتجعيـد

ومنها يقول فى مدحه وتحريضه على الإفرنج (٢) .

يا حارس الدين لما نام حارسـه ... وناظما شمله من بعد تبديـــد
تظنك الناس فى خفض وفى دعة ... جهلا وكم مستريح الجسم مكدود
جهز جيوشك إن الثغر قد عبثت ... به الفرنج فأضحى غير مسدود
أيدركون به أوطار قدسهم ... منكم وذلك ملك غير مردود
يا للرجال أياديكم لنازلـــة ... تستنزل الماء من صم الجلاميـد
أين الحمية هبوا من منامكـو ... إما لعاجل دنيا أو لمعبـــود

ومن أشرفياته قوله (٣) .

الله أكبر ليس الحسن فى العرب ... كم تحت لمة ذا التركى من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد ... والخد يجمع بين الماء واللهـب

(١) ص ٧٥ من الديوان
(٢) ص ٧٧ من الديوان
(٣) ص ٣٨ من الديوان

تنفست عن عبير الراح ريقته وافتر مبسمه الشهدى عن حبب
لافى العذيب ولا فى بارق غزلى بل فى لمى فمه أو ثغره الشنب
ثغر إذا ما الدجا ولى تنفس عن ريح من الراح أو ضرب من الضرب

ومنها فى المدح يقول :

ملك يفرق يوم السلم ما جمعت يمناه فى الحرب بالهندية القضب
ثبت تحف جماهير الجيوش به كأن أفلاكها دارت على القطب

ومن قوله فى الأشرف وقد غنى فى عصرنا بمفتتح هذه القصيدة وهو (١) .

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلواً فقد جهل المحبة وادعى(٢)
يأيها الوجه الجميل تدارك الصبر الجميل فقد عفى وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤادا موجعا
هل من سبيل أن أبث صبابتى أو أشتكى بلواى أو أتوجعا
إنى لأستحيي كما عودتنى بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

ومن قوله متغزلا : (٣)

يا تاركى أخذتنى أخذ عزيز مقتدر
أحلت سلوانى على ضامن جفن منكسر
ونمت عن ذى أرق إذا غفا النجم سهر
ما نصبت أشراك الحاظك إلا للحذر
فأى قلب لم يقع وأى لب لم يطر
قلبي على الترك بهذا البدوى يفتخر
عقدة قاف لفظه تحل عقد المصطبر
ولى عهد البدر إن غاب فإنى منتظر
خلعت إذ بايعته عذار من لا يعتذر

★ ★ ★

---

(١) ص ١٩ من الديوان .
(٢) الظلم : الأولى بالضم وهو الجود والثانى بالفتح وهو الريق.
(٣) ص ٤ من الديوان .

والديوان أغلبه مدح للسلاطين وتعظيم لشجاعتهم وإطراء لبطولتهم وإعجاب بانتصارهم على النصارى وتحريض لهم على قتالهم ويغلب عليه بعد ذلك الغرض غرض

في خلقـــه وخلقـــه   طبـــع الغـــزال والنمر
إن طريـــق ناظـــرى   إلى محيـــاه خطـــر

والديوان أغلبه مدح للسلاطين وتعظيم لشجاعتهم وإطراء لبطولاتهم وإعجاب بانتصاراتهم على النصارى وتحريض لهم على قتالهم ويغلب عليه بعد ذلك الغرض غرض الغزل الذى هو سلوانة الشعراء فى كل العصور يقولونه إظهاراً للمهارة وإدلالا بسمو الخيال، وليس له فى نظرى غور من خبث طوية أو إقبال على لهو ، لذلك تراه مجرداً من ذكر الخمر المشروبة التى يظهر أن معاقرتها كانت جرماً لا يقبل فيه عذر .

ويصح أن نذكر هنا قصة وقعت لأم على تقية الشاعرة ؛ فقد نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين، وكانت القصيدة خمرية فوصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ثم سيرت إليه تقول : علمى بهذا كعلمى بهذا وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه . (١)

تمس الصنعة البديعية عبارة الديوان من بعيد فليس فيه ذلك الإغراق فى الجناس أو غيره من أنواع البديع ، فإن العهد بذلك فى مصر لم يحل بعد، فالفطرة لا تزال تجرى فى كل ما يقول المصريون عامة ، وليس ذلك بمانع أن يكون قوم من بلغائهم قد سبقوا الزمن فكان منهم إغراق فى البديع لم يلحقهم فيه من جاء بعدهم .

٢ – ديوان ابن الفارض :

مطبوع بمصر بالمطبعة الحسينية سنة ١٣٣١ سنة ١٩١٣ ، مذيل بشرح مافيه من المفردات الغامضة .

والديوان يشتمل على مائة وعشرين صفحة من القطع الكبير .

وشعره كله من الشعر الصوفى الذى ترمى ألفاظه إلى معان وإشارات متعارفة عند أهل التصوف فهم يذكرون الخمر والسكر والمحبوب والهيام والواشى والرقيب ويريدون

---

(١) الوفيات ج ١ ص ٩٦ .

بكل ذلك معانى صوفية من الإلتذاذ بالعبادة والتفانى فى حب الله والتعلق بذاته وطمع الوصول إلى رضاه .

فالديوان ليس على مألوف العادة فى الدواوين الشعرية ، فهو لايشتمل على مدح وهجاء وأغراض أخرى مما يتناوله عامة الشعراء، بل كله غزل وهيام وحب ومجالس أنس ووصل وهجران ، ولكنه فى ذات الله سبحانه وتعالى .

وابن الفارض قد طال نفسه في بعض قصائد الديوان فبلغت تائيته الكبرى واحدا وستين وسبعمائة بيت وهى التى مطلعها .

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأس حميا من عن الحسن جلت

وبلغت تائيته الصغرى مائة بيت وثلاثة وأولها :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتى فياحبذا ذاك الشذا حين هبت

وقد تكلف ابن الفارض البديع وظهرت فيه مقدرة فائقة بتوفيقه بين ألفاظ الغزل ومعانى القوم الرقاق ورموزهم الدقاق . ولم يسبقه إلى ذلك إلا ابن العربى الأندلسى المتوفى بالمشرق سنة ٦٣٨ .

وقد كانت طريقة ابن عربى نبراسا هدى القوم إلى ما شاع بينهم من إلباس ألفاظ الغزل لمعانى التصوف ، فيكون ابن الفارض قد استملى طريقته منه فعمل على نهجها .

من تائيته الكبرى بعد المطلع السابق (١)

فأوهمت صحبي أن شرب شرابهم به سر سرى فى انتشائى بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن شمائلها لا من شمولى نشوتى
فى حان سكرى حان شكرى لفتية بهم تم لى كتم الهوى مع شهوتى
ولما انقضى صحوى تقاضيت وصلها ولم يغشنى فى بسطها قبض خشية
وأبثثها ما بى ولم يك حاضرى رقيب لها حاظ بخلوة جلوتى

ومن تائيته الصغرى بعد المطلع السابق : (٢)

سرت فأسرت للفؤاد غدية أحاديث جيران العذيب فسرت
مهيمنة بالروض لدن رداؤها بها مرض من شأنه برء علتى

---

(١) ص ٢٣ من الديوان .
(٢) ص ١٦ كذلك

لها بأعيشاب الحجاز تحـــرش ... به لا بخمر دون صحبي سكرتي
تذكر فى العهد القديم لأنهـــا ... حديثة عهد من أهيل مـــودتى

ومن شعره : (١)

قلبي يحـــدثنى بأنك متلـــفى ... روحى فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض حق هواك إن كنت الذى ... لم أقض فيه أسى ومثلى من يـــفى
ما لى سوى روحى ، وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتـــنى ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وقوله : (٢)

أدر ذكر من أهوى ولو بمـــلام ... فإن أحاديث الحبيب مـــدامى
ليشهد سمعى من أحب وإن نأى ... بطيف ملام لا بطيف منـــام
فلى ذكرها يحلو على كل صيغة ... وإن مزجوه عذلى بخصـــام
كأن عذولى بالوصال مبشرى ... وإن كنت لم أطمع برد ســـلام
بروحى من أتلفت روحى بحبهـــا ... فحان حمامى قبل يوم حمامى

★ ★ ★

وفى آخر الديوان مقطوعات كثيرة أغلبها فى الغزل علىطريقته ، ومنها ألغاز .

قال ملغزا فى بقلة (٣) .

ما اســـم قـــوت لأهـــــله ... مـــثل طـــيب تحــــــبه
قلــــــبه إن جــــــــعلته ... أولا فهـــــــــو قلـــــبه

وقال ملغزا فى حلب : (٤)

ما بلدة بالشـــام قلب اســـــمها ... تصـــحيفه أخرى بأرض العجم
وثلـــثه إن زال من قلبــــــه ... وجدته طـــيرا شـــجى النغـــم
وثلـــثه نصـــــف وربع له ... وربعه ثلثـــــاه حـــين انقسم

---

(١) ص ٨٨ كذلك .
(٢) ص ٩٥ من الديوان .
(٣) ص ١١٢ أيضا .
(٤) ص ١١٣ من الديوان .

ونظن أنه قد اتضح لك جليا الفرق بين ابن النبيه وابن الفارض فى استعمال البديع والحرص عليه؛ فابن الفارض ملح مكثر وابن النبيه يترك الأمر للطبع فيقع له دون أن يشعر قارىء شعره به . وهذا هو بديع الفطرة كما قلنا .

٣ — ديوان ابن مطروح :

مطبوع بمطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٩٨ هـ .

وهو ضمن مجموعة بدئ فيها برقم ١٧٣ وانتهى برقم ٢١٨ فهو ٣٩ صفحة بدأه بمدح السلطان الكامل بن العادل . ومنه . (١)

قدست من ملك عظيم الشان ... متتابع الحسنات والإحسان
متوقد العزمات فياض الندى ... حدث عن النيران والطوفان
كم يلهجون بقيصر من قيصر ... فى ذا المقام، وصاحب الإيوان
تتزاحم التيجان فى إيوانه ... عند السلام ولا بسو التيجان
حتى إذا بصرت به أبصارهم ... خروا لهيبته إلى الأذقان
ويروقهم بمقامه ويروعهم ... بشر الندى وجلالة السلطان
إن الملوك بأسرهم خول له ... حاشا أبيه كلاهما سيان

وختامها : (٢)

لله رايتك التى قد أصبحت ... معقودة بالأمن والإيمان
أنى قصدت بها رجعت وتحتها ... ملك مطيع أو أسير عان
أمنت حتى العفر فى راماتها ... وأخفت حتى الأسد فى خفان
ونشرت عدلك فى البرية كلها ... حتى استوى القاصى بها والدانى

وقال وكتب جواب أبيات راسله بها وهو مريض ، بهاء الدين زهير (٣)

أيا من راح عن حالى ... يسائل مشفقا حدبا
ومن أضحى أخا لى فى الوداد وفى الحنو أبا

---

(١) ص ١٧٥ من الديوان .
(٢) ص ١٧٦ .
(٣) ص ١٩٥ من الديوان
(٢) ص ٢٠٤ .

وحبك لو نظرت إلى كنت تشاهد العجبا
جفونا تشتكى غرقا وقلبا يشتكى لهبا
وجسما جالت الأسقا م فيه فراح منتهبا
تسائل أنفس الواشين عنى أعين الرقبا
فتذكر أنها لمحت خيالا فى خلال هبا
فواحربا وهل يشفى المتيم قول واحربا
فبالبرد الذى أمسى وأضحى بيننا نسبا
إذا أنا مت فاندبنى فرب أخ أخاً ندبا
وقل مات الغريب فأين من يبكى على الغربا
قضى أسفاً كما شاء الغرام وما قضى أربا

وأغلب الديوان مقطعات ، ومنها قوله فى مليح ملسوع (١)

قالوا حبيبك ملسوع فقلت لهم من عقرب الصدغ أو من حية الشعر
فقيل بل من أفاعى الأرض قلت لهم من أين تسعى أفاعى الأرض للقمر

★ ★ ★

ورأينا فى شعر ابن مطروح أنه من طبقة شعر ابن النبيه يغلب عليه الطبع ولا يبين فيه تكلف البديع وعبارته وسط بين الجزالة والليونة فهو وشعر ابن النبيه يمثلان عصرهما فى مصر تمثيلا واضحا .

٤ — ديوان بهاء الدين زهير :

مطبوع بمطبعة شرف مومى . وعدد صفحاته ١٥٦ من القطع المتوسط مرتبة قوافيه على أحرف الهجاء .

والديوان كدواوين بقية الشعراء مدح وغزل ووصف وهجاء ، إلا أن الغزل والإخوانيات أغلب على الديوان من المدح وغيره .

كتب إليه ابن مطروح يذكر أنه مريض فأجابه (٢)

(١) ص ٢٠٤ من الديوان .
(٢) ص جـ١ من الديوان .

أيـا من جـاءنى منـه كتاب يشتكى الوصبـا
بعيـد عـنك ما تشـكو وبالواشـين والرقبـا
لقد ضـاعفـت ياروحى لروحى الهـم والوصـبا
وقلـت لعلـه ألم يكون له الهـوا سببا
ورحت أظنـه قـولا يكاذبنى له لعبـا
فليت الله يجعلـه وحاشـا سيـدى كذبـا

فأجابه ابن مطروح بما ذكرناه فى الكلام عن ديوانه .

وقال البهاء يمدح صلاح الدين بن يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق سنة ٦٤٨ (٢) .

لكم منىّ الـود الذى ليس يبرح ولى فيكم الشوق الشديد المـبرح
وكم لىّ من كتب ورسل إليكم ولكنها عن لوعتى ليس تفصح
وفى النفس مالا أستطيع أبثـه ولست به للكتب والرسل أسمح

وقال وقد حضر مع جماعة يقولون بالمروان :

أيا معشر الأصحاب مالى أراكم على مذهب والله غير حميـد
فهل أنتم من قوم لـوط بقية فما منكم من فعلـه برشيد
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكمو ببعيـد

وقد هنأ المنصور بن العزيز بعيد النحر فقال : (٢)

يهنئك المملوك بالعشر والشهـر وبالعيد عيد النحـر يا ملك العصر
وينهى إلى العلم الشريف بأنه على قدم الإخلاص فى السر والجهر
وهأنذا أدعو لك الله دائمـا مع الصلوات الخمس والشفع والوتر
وإنى لأرجو أن جـودك شـاملى قريبـا على قدر اهتمامك لا قدرى
وإنك إن أوليتنى منك أنعمـا فإنى ملىء بالدعـاء وبالشكر

ومن غزله : (٣)

دعـونى وذاك الرشـا فوجـدى به قد فشـا

---

(١) ص ٢٩ من الديوان .
(٢) ص ٧٥ من الديوان .
(٣) ص ٨٣ من الديوان .

حـــلالا حـلالا لــــه يعـــذبنى كـيف شـــا
ســرت خمــره الريــق فى معــاطفـــــه فانتشـــى
فيا مشـــتى ذاك القـــوام ويـــاطى ذاك الحـــشا
مشـــى لى فى خفيـــة فــيا حبــذا مــا مشـى
وليــس عجـــــيبا بــأن يــرى الظــبى مســتوحشــا

وله يستدعى لزيارة (١)

لى مــــنزل إن زرتـــه لم تاـــتى إلا كـــرمـك
وإن تســـــل عمــن بــه لم تلـــق إلا خـــــدمك

★ ★ ★

وأنت ترى أكثر معانيه عامية مبتذلة صاغها فى ألفاظ شبيهة بها . وقد رق شعر البهاء ولان حتى سأل أو كاد ولا ترى فى قديم ولا حديث من كانت له مثل رقته ، ولو أنه حرص مع هذا الطبع على الترفع عن الابتذال فى اللفظ والمعنى لكان المثل الأعلى للشعر الحضرى . وتراه لايمس البديعات إلا مسا خفيفا لأن محاولتها تكلف وهو ما يأباه طبع البهاء الصافى الشفاف .

٥ ــ ديوان القاضى الفاضل :

يوجد بدار الكتب المصرية مصورا بالتصوير الشمسى تحت رقم ٧٤١٩ أدب ورقم ٤٨٥٩ كذلك . ويشتمل الديوان على ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط وتشتمل الصفحة على ٢١ سطرا . وخط الديوان بالنسخ الجميل الواضح .

وأوله بعد البسملة بلا مقدمة . قال الإمام العلامة الكاتب الماهر والناظم الناثر عبد الرحيم بن على البيسانى الشهير بالقاضى الفاضل ، أمطر الله ثراه صوب رضوانه الهاطل . ثم تروى قصيدة ميمية بلا عنوان أولها (٢) :

داء ولكـــــنه داء بـــلا ألم شيب ألم برغم العين باللمـــــم
أما وقد قيل ضيف للمشيب فلا يلقاه والله وجهى غير مبتسم
وزادنى فى علا قدرى وقار نهى فالنور بالعلم أو فالنار بالقلم

---

(١) ص ١٣٩ من الديوان .
(٢) ص ١ من الديوان .

تبسمت فى ظلام الشعر طالعـــة ... تبسم الكوكب الدرى فى الظلم
إن تطلب العيش إذ ولى الصبا فلمن ... أو تنكر الهم إن فات الهوى فلم
من علم القـــلم الجارى بعارضه ... فقلت من علم الإنســـان بالقلم

والقصيدة كلها فى الغزل .

والديوان يشتمل على مدائح وأهاج وأوصاف وغزليات وهو غير مرتب القوافى ، والغالب عليه عدم عنونة القصائد خصوصا التى قالها فى المدح أو الهجاء فهى مهملة من ذكر اسم الممدوح أو المهجو فى عنوانها كما جرت العادة بذلك .

ومن مدائحه قوله : (١)

جهادك حكم الله ليس بمصـــدود ... وعزمك أمر الله ليس بمـــــردود
سفينة نوح ما ركبت وعسكر ... كطوفانه والشام بالفتح قد نودى
كأنا ببحر الكفر قد غيض مـــاؤه ... اذاما استوت سفن لها القدس كالجودى
ولا يخلف الله المواعيـــد بعد ما ... بعثت القنا مستنجزا للمواعيد

ومن مدائحه قوله ، ولم يعنونه أيضا (٢)

إليك بعد انقضاء الجد واللعـــب ... عنى فلم أر بى ما يقتضى أربى
ما زال جارك ذو القربى الفؤاد وقد ... ولى الصبا لم تسل عن جارك الجنب
فالعمر كالكأس والأيام تمـــزجه ... والشيب فيه قذى فى موضع الحبب
أقول إذ عاض منى فيض فضتـــه ... يا وحشتى لشباب ذاهب الذهب
نار وإن لم تكن كالنـــار محرقة ... فإن فى الشعر منها آية اللهـــب
ولى صباه وأبقى شهب ليلتـــــه ... والصبح ليس بمأمون على الشهب

ومنها فى المدح :

بحر وما قلت تشبيها وكيف بـــه ... إن البحار لذاك البحر كالقلب
ماضى المراسيم مدلول الفـــؤاد على ... مالا ترى العين فى الأسرار من حرب
كأنما سيفه المـــرآة فى يـــده ... فكل غائب أمر عنه لم يغب
وما رأيت صروف الدهر إن أخذت ... طريقها لم تجده آخذ الأهـــــب
فضائل إن تشم كالنجم فى صعد ... ونائل إن يسم فالنيل فى صبب

---

(١) ص ٥ من الديوان .
(٢) ص ٦ من الديوان .

ومن مقطوعاته قوله فى الشعر وبقائه على الدهر : (١)

ولم أر قرنا يعجز الدهـر حـربه   سوى الشعر إن الشعر يبقى على الدهر
تنير جميع الزهر ليلا وتنطـفى   مع الفجر إلا أنجم الشعر فى الفخر

ومنها فى صفرة الحبيب المريض : (٢)

صفرة بالحبيب راعت من السقم   وأخرى على الحبيب تـروق
فاذا ما رأيت هذا وهـذا   قلت من منهما هو المعشـوق

ومما قال من مقطوعة فى الشكر (٣) .

لك عنـدى يد وما للسـانى   بيد تملأ الرءوس ، يـدان
والبيـان الصحيح عنـدك لا عنـدى ولكن الحـال فوق اللسان
حفظ الله من زمـانى زمانى   وبحـق أدعـو فأنت زمانى

وقال مهنئا بمولود ومضمنا (٤)

ليهنك شبل جاء من أسد ورد   سيهدى إلى طرق المكارم والمجـد
أقول وقد وافى البشير بذكـره   على الطائر الميمون والطالع السعد

★ ★ ★

والديوان على هذا النمط من التعسف والبديع المتراكب . لذلك فهو يكد الخاطر ويعيي الذهن والمحصول بعد ذلك من المعنى لا يستوجب كل هذا الكد ولا يستأهل كل ذاك العناء . ورأيى أن كتابة القاضى الفاضل على ما فيها من بديع كثير وتكلف معى هى أيسر من شعره ، وكدها أقل من كده، لأن فى النثر فرجة واتساعا يستريح معهما القارئ ، وفيها يستطاع التمهيد لما يريد المنشئ من تورية أو نحوها فيستعد الذهن لتلقيها ، أما الشعر فهو إيجاز تزدحم فيه هذه البديعيات فيصعب على الذهن تتبعها ويعانى مشقة فى تحصيلها .

والقارىء بعد فى غنى عن تنبيهه إلى مواضع البديع فى الشعر الذى رويناه من هذا الديوان . ويكفى أن ندل القارئ على ما جمع من البديع فى قوله .

---

(١) ص ١٧١ من الديوان .

(٢) ص ١٧١ من الديوان .

(٣) ص ٧٢ من الديوان .

(٤) ص ٤٤ من الديوان .

تنير جميع الزهر ليلا وتنــطفى مع الفجر إلا أنجم الشعر فى الفخر

فإن فيه مقابلة بين تنير ليلا ، وتنطفئ مع الفجر . ثم مراعاة نظير بين تنير وزهر وأنجم . ثم الجناس بين الفجر والفخر ويلاحظ هنا أن اختيار وصف الشعر بكونه فى الفخر وتخصيصه بذلك لم يحمل عليه إلا إرادة الجناس بين فجر وفخر وإلا فالشعر باق على الأيام فى أى غرض كان .

وكذلك قوله :

فضائل إن تشم فالنجم فى صعــد ونائل إن يسم فالنيل فى صبــب

ففيه جناس بين يشم ويسم . وطباق بين صعد وصبب . ثم تقسيم بين شطرى البيت .

وكذلك قوله قبل ذلك .

أقول إذ عاض منى فيض فضتــه يا وحشتى لشباب ذاهب الذهب

ففيه بين فيض فضته وذاهب الذهب مقابلة . أراد بفيض الفضة بياض الشيب الذى انتشر على عارضيه وفوديه ، وبذاهب الذهب ماهضى من شعره الأحمر ويكون اختياره حمرة الشعر اضطرارا ألجأه إليه البديع إلا أن يراد بالذهب حمرة الوجه تورد الخد .

٦ — ديوان ابن الساعاتى

المعروف بمقطعات النيل

مخطوط بدار الكتب المصرية بخط النسخ الجميل تحت رقم ٥٢٨ أدب ويشتمل على ٣٢٨ صفحة بكل صفحة ١٩ سطرا غالبا .

وأول الديوان بعد البسملة « قال الشيخ بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن الساعاتى رحمه الله يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وازن بها « بانت سعاد » وقد أثبتناها جميعها فى الديوان تبركا بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأولها » :

جد الغرام وزاد القال والقيــل وذو الصبابة معذور ومعــذول
يا دمية الحى ما حزنى لفرقتكم دعوى ولا وجدى العذرى منحول
ظللت فى الدار أبكيها ويضحكها دمع على تلكم الأطلال مطلول

والقصيدة طويلة .

ولا ندرى سبب تسمية الديوان بمقطعات النيل مع آنه يشتمل على قصائد برمتها ولا تغلب عليه المقطعات حتى يصح أن تكون هذه الغلبة سبب التسمية . بل المقطعات توجد فيه بنسبة غيرها فى غيره من الدواوين ، ولكن يظهر أن قصائده لم ترو برمتها ولذلك نرى جامع الديوان يقول : (قال من قصيدة يمدح ...) فلعل هذا هو السبب فى التسمية بالمقطعات .

والديوان يشتمل على المدح والرثاء والهجاء والغزل وغير ذلك من الأغراض الشعرية الشائعة ، وفيه كثير مما قاله الشاعر بديها مقترحا وغير مقترح ومن ذلك البديه قوله متغزلا (١)

وأهيف ساجى الطرف باد سناه   كغصن النقا ، كالظبي ، كالقمر التم
بدا حاملا مرآته وسلافه   فقابلنى بالشمس والبدر والنجم

ومنه قوله وقد طلب منه إجازة (رعاك الله ياسلمى رعاك) (٢)

أغرك أننى جلد جليد   فسنى ضاحك والقلب باك
فما لقتيل يوم البين ثار   ولا لأسير حبك من فكاك
دعانى الصبر عنه فلم أجبه   فمالك قد أجبت وما دعاك
عصيت الآمرى بالصبر عنكم   فكيف أطعت عنى من نهاك
رعاك الله إن الظلم عار   ومن كلف الهوى قولى رعاك
فأنت الشمس لاتدنو لباغ   وأنت الدهر لايرثى لشاك
أخاف سيوف قومك من معد   وما كانت بأقتل من هواك
رضيت بأن أخاف وأنت سلم   وهان علىّ سخطى فى رضاك

وقال من قصيدة يمدح بها الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين (٣)

دعانىَ من ذكر العذيب وعهده   فإن الصبا تلقى فؤادى بوجده
إذا ما تهادى بعد وهن نسيمها   تحدث عن بان الكثيب ورنده
حنين كصرف البابلى إلى الحمى   يزيد به سكرا تقادم عهده
وشوق يبيح الدمع ذكر غصونه   ويسطو على هزل الغرام بجده
وقد وعد البين المشت بسلوة   ومن لى بأن البين منجز وعده

---

(١) ص ٣٧ من الديوان .
(٢) ص ٢٣ من الديوان .
(٣) ص ٣٦ من الديوان .

ويقول فى تخلصها :

وكنت إذا خل تنكـر وده | نأيت وبعض النأى أبقى لوده
وما هجر الأوطان من وصل السرى | إلى نائل الملك العزيز ورفـده

وبهذا التخلص انتهى المروى من القصيدة ، مما يدل على ما قد مناه من أن القصائد ليست تامة بل يؤتى بمختار منها فقط .

والغزل غالب على شعر ابن الساعاتى ، فهو يملأ مفتتح قصائده ويغلب على مقطعاته مما يدل على رقة طبعه .

وأرق ما نراه فى غزله : خفة وزن ورقة معنى قوله :

شـف قلبى دلالـه | من شفـائى وصـاله
وغـرامى يخـاله | جـل عمـا يخالـه
فـارسى نجـاده | يوسفى جمـاله
إن زعمتم أن الهـوى | ليس تصمى نبـاله
فمنامى من غالـه | وهـدوئى ما بالـه
يا ملولا ما شانـه | عنـد قلبى ملا لـه
إن من أنت شغلـه | لا تسـل كيف حالـه
وعـذولى فيـه | وأضيـع شىء مقالـه
خـل قلبى وحبـه | فهـداى ضـلاله
ورضـاه وسلـوتى | عنـه مالا أنـا له
فمماتى إعـراضه | وحيـاتى إقبـاله

وكتب إلى بعض الأكابر وقد ولى ولاية تاه بها

تتيه علينا أن وليت ولايـة | رويدا فما شىء لديهـا بدائم
وما المال ذا نفع وإن كان سالما | إذا كان عرض المرء ليس بسالم
فما هى إلا مثل طرف مسلم | وما عزها إلا كأحـلام نائم
فلله خل كنت أول تـارك | وبنيـان ود كنت أول هادم

★ ★ ★

ورأينا فى هذا الشاعر بعد ما تصفحنا ديوان مقطعاته فقط (لأن ديوانه الآخر (١)

---

(١) نشر هذا الديوان الكبير الأستاذ أنيس المقدسى ببيروت .

مفقود كما قلنا فلا نستطيع الحكم عليه) أن الشاعر مطبوع ، قوى البديهة كثير ، القول فياض الخيال ، إذ أن هذا الديوان الذى سمى مقطعات يشتمل على نحو ستة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر فكيف بأصله ، وكيف به إذا انضم إلى ديوانه الآخر الذى لابد أن يكون أكبر من هذا .

أما من حيث البديع وتكلفه فيصح أن نبرئ الرجل من وصمة هذا البديع براءة تامة ، فهو لا يلح فيه كغيره من معاصريه بل لا يتعمده ، بل لا يقصد إليه . ولذلك يقع ما وقع منه عفوا الخاطر شأن الفحول المتقدمين . وهذا عجيب من شاعر يعيش فى بيئة تعنى بذلك البديع . ويكفى أن تعيد النظر فيما رويناه من معارضة « بانت سعاد » فإنك لا تجد إلا طباقا مقبولا وجناسا لائقاً . وهذا مثل صادق لكل ما وقع فى شعره من بديع .

ديوان ابن سناء الملك

مصور (١) تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣١ أدب.

وهو يشتمل على ١٤١ صفحة من القطع الكبير وتشتمل الصفحة على ٢١ سطراً غالبا وهو بخط النسخ الجميل الدقيق الواضح . والديوان مرتب على حروف المعجم ويقول جامعه فى أوله فى مقدمة قصيرة .

أما بعد حمد الله الدائم سناء ملكه والصلاة على سيدنا محمد المعصوم من خطأ القول وإفكه ، وعلى آله وصحبه السعداء فى أخذ الأمر وتركه ، فقد أمرنى بعض فضلاء الزمان وكبرائه المعلم بلسان قلمه سحر البيان أن أنتخب له شعر القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله ، ونعم ما أمر به ....

وأول الديوان همزية عنوانها « قال القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله يرثى صديقاً له

لقد عفت عيشى بعد العفيف	على العيش بعد العفيف العفاء
فما غاب مذ غاب إلا الجميل	وما مات مذ مات إلا الوفاء
دفنت سرورىَ فى قبره	فمالىَ فى ذا ولا ذا رجاء
ولست أطيق أرى قبره	وإن كان فيه السنا والسناء

(١) نشر هذا الديوان فى حيدر أباد الدكن بالهند : نشره الدكتور محمد عبد الحق .

وفى الديوان قوله يمدح السلطان الملك الناصر ويهنئه بالفتح (١)

بدولة الترك عزت ملة العرب ... وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة ... بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
مظفر النصر مبعوث بهمته ... إلى العزائم ، مدلول على الغلب
إن العواصم كانت أى عاصمة ... معصومة بتعاليها عن الرتب
لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته ... ولو رماها بقوس الأفق لم يصب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية ... كواكب الدلو فى بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب فى صعد ... إلا العواصم تبغى السحب فى صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه ... ياطالب النجم قد أوغلت فى الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته ... لصير الرأس منه موضع الذنب
أتى إليها يقود البحر ملتطما ... والبيض كالموج والبيضات كالحبب
تبدو الفوارس منه فى سوابغها ... بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا ... عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب

ومن الديوان فى مدح الملك العادل (٢)

على كل حال ليس لى عنك مذهب ... وما لغرامى عند غيرك مطلب
وقد زعموا أنى قتلت وأننى ... رضيت فما بال المليحة تغضب
وشاربة خمر الدلال فدهرها ... يغنى عليها حليها وهى تشرب
إذا طلعت نابدر والبدر طالع ... تأخر حتى كاد فى الشرق يغرب
لها بشر مثل الحرير وخدها ... يخبرنا أن الحريرى مذهب
أخوض دموعى وهى تلعب غفلة ... فإنى وإياها نخوض ونلعب

ومنها فى المدح :

إلى الملك المحيى المميت ببأسه ... ونائله أيان يرضى ويغضب
وليس القلاع الشم إلا ثيابه ... فمن شاء يكساها ومن شاء يسلب
نصحتك جنب بأسه فهو مهلك ... وإن شئت يمم جوده فهو مطلب

---

(١) ص ٣ من الديوان .
(٢) ص ٤ من الديوان .

إذا سل سيف الدين فى حومة الوغى فقد سل أدرى بالقراع وأدرب
أخذت لمصر من دمشق بحقها فمصر بما أوليت تطرى وتطرب
تغايرت الآفاق فيـــــك محبة ومن ذا الذى يحبو ولا يتحبب

وفى الديوان مدح كثير للقاضى الفاضل ومنه (١)

على ماله منه عذاب أصـــازه موارد جود كلهن عـــذاب
وآراؤه تثنى النصول بغيظهـــا وإن لم يكن إلا الدماء خضاب
فكل كتاب منه سيف مجوهر يروق إذا ما شمته ويهـــاب
تجذ معانيه الرقاب فقد غـــدا يخيل لى أن الكتاب قـــراب
فلا زال يغنى بالندى كل طالب إليه ولا يُعيى لديه طـــلاب
إذا ما دعا الداعى بمقول نعمة لمن قد حباها فالدعـــاء مجاب

وفى الديوان مدح كثير لأبيه ومنه (٢)

هو السيد المشترى للثنـــــاء وقد عجز القوم أن يشـــتروا
وراحته قبلـــــــة الآملـين على أنهـــا ديمـــة تمطـــر
فبالجـــود باطنهـــا مشرع وبالاثم ظاهرهـــا مشعـــر
وكيف تسمونـــه جعفـــرا ومن فيض راحتـــه أبحـــر
وكيف تلومـــون حســـاده وقد حسدت عصره الأعصر

وقد أكثر ابن سناء الملك من مدح ملوك عصره ووزرائه وكتابه . ومن قوله يمدح الناصر صلاح الدين ويذكر حدوث كوكب ظهر فى السماء (٣) .

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما بعد لك حتى قد نمت أنجم السما
تحلت بنجم لابل ابتسمت به ومن سره شىء يسر تبسما
وما برح الكف الخضيب معطلا فلما تحلى الدهر منك تختما
فلا يفتخر جو السماء بنجمـــه فكم أطلعت أفعالك الغر أنجمـــا
نصرت بأفلاك السماء فشبههـــا خميس تُردى الخميس العرمرمـــا
رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى وأقدمت حتى لم تجد متقدمـــا
فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا وما ينقض المقدار ماكنت مبرما

(١) ص ٩ من الديوان .
(٢) ص ٤٤ من الديوان .
(٣) ص ١٠١ من الديوان .

فدى لابن أيوب النجوم فإنهم ... له خدم يغدون منه المخدما
سياسته لم تبق فى الأرض ظالما ... ونائله لم يبق فى الأرض معدما
له نائل يسعى إلى كل سائل ... فيطلبه بالزاد والماء أينما
أصاب بك الله البلاد فصابها ... وهل يخطئ المرمى وربك قد رمى
ولو شاء أن يغنى الخلائق كلهم ... لولاك أرزاق العباد مقسما

ومنها فى وصف شجاعته وخدمته للإسلام :

لقد نصر الإسلام منك بناصر ... يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما
وأقسم ما صل الحديد ترنما ... ولكنه صلى عليه وسلما
له متصل لا ينقضى فرض حجه ... فبالضرب لبى وهو بالسل أحرما
تمسك بالإسلام لكن رأيته ... يحل له بالشرع أن يشرب الدما
إذا ما صلاح الدين قد صار جيشه ... فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واستات الظبا ... بآفاقه حتى أضاء وأظلما
أعدت إلى مصر سياسة يوسف ... وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماتة ... فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها ... ودمت إلى أن يرجع الكفر مسلما

ابن سناء الملك كما ترى مما روينا لك من شعره (وسائره على هذا النمط) رجل يحفل بالبديع ولكن من غير إلحاح ، ويطلب أنواعه ولكن من غير كد ، ولذلك يقع له متعمداً ولكنه غير داخل فى باب الاستكراه ولا مرموق بالثقل والبرد .

فانظر إلى الجناس فى قوله :

ولست أطيق أرى قبره ... وإن كان فيه السنا والسناء

وإلى العكس فى قوله :

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وعادت مصر من حلب

ويكاد يكون متكلفاً مراعاة النظير فى قوله :

تلقى إذا عطشت والبرق أرشية ... كواكب الدلو فى بئر من السحب

وقد اقتبس فوقع اقتباسه مقبولا فى قوله :

أخوض دموعى وهى تلعب غفلة ... فإنى وإياها نخوض ونلعب

أما معانيه فهى حسنة يغوص عليها ويأتى فيها بالعجيب المطرب .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٨ أدب ، وهو يقع فى ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط (١) .

وهو كتاب فى علم الموشحات يقوم بذكر أنواعها والتمثيل لها ، وقد قدم له المؤلف بمقدمة ذكر فيها شأن الموشحات وبين قيمتها . قال فى المقدمة « وبعد فإن الموشحات مما ترك الأول للآخر وسبق بها المتأخر المتقدم وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق . »

ثم يقول « ولما كانت الموشحات بهذه المثابة ولها فى سوق الأدب هذه القيمة لم أر أحداً صنف فى أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى وسبيلا يقتفى ، جمعت فى هذه الأوراق ما لابد لمن يعانيها ويعنى بها من معرفته ولا غناء عن تفصيله وجملته » .

ثم يعرف الموشح فيقول « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يأتلف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . ثم يمثل للنوعين .

ثم يعرف القفل والبيت ويذكر أحوالهما ويمثل لكل ذلك ، وأمثلة الكتاب من موشحات القدماء من مغاربة ومشارقة .

فالكتاب على ذلك كتاب علمى « وليس كما يدعى بعض من لم يره مجموعاً من موشحات المؤلف » وجملة ما يقال فيه أنه كتاب فى عروض الموشح وقوافيه كما أن للشعر عروضاً وقوافى ، وقد اتبع ابن سناء الملك وصفه لعروض الموشح بطائفة من الموشحات الأندلسيه وطائفة أخرى من موشحاته ليدل على قدرته فى صنع الموشح .

وقد أوردنا هذا الحديث عنه نفيا للشبهة القائمة حول الكتاب من ناحية وتفصيلا لشىء من آثار شاعرنا له علاقة بالشعر لأنه فى نوع ناشئ عنه .

---

(١) نشره الدكتور جودت الركابى .

الكتابة فى عهد الدولة الأيوبية

ذكرنا فى حديثنا عن الدولة الفاطمية ما كان من رسوم البدء والختام فى الرسائل ديوانية أو إخوانية ، وهى إذا قابلتها بما سنذكره من تلك الرسوم فى الدولة الأيوبية وجدت فرقاً ظاهراً ، فالفاطميون اتخذوا من الرسوم ما هو ضرورى للتفرقة بين خطاب الخليفة لوليه أو رعيته وبين خطاب هؤلاء له ، ثم هى فى جملتها رسوم ليست كثيرة التفصيل ولا متنوعة الحالات ، مما يدل على أن الكتابة لم تكن قد أخذت بعد تلك الأناقة والتعمل الذى صارت إليه فى الدولة الأيوبية أولا ثم فى دولتى المماليك بعد ذلك .

ولا يؤنسك بالفرق بين رسوم الكتابة فى الدولة الأيوبية وما قبلها إلا أن نذكر ما يأتى (١) مما كان فى الدولة الأيوبية .

(١) يخاطب الخليفة من السلطان بوصف المواقف المقدسة الشريفة أو العتبات العالية أو مقر الرحمة أو محل الشرف .

(٢) يخاطب السلطان بوصف المجلس ثم أفردوه بالمقر أو المقام .

(٣) يخاطب الوزراء وغيرهم من أعيان الدولة بوصف « الحضرة » .

(٤) يردفون « المقام » بالعالى ولا يردفونه بالسامى فيقال المقام العالى .

(٥) يردفون المجلس بالسامى فيقال المجلس السامى .

(٦) يضاف فى نعوت الوزراء « عمدة الملوك والسلاطين أو عز الإسلام أو نصرة الإسلام أو حارس الإسلام . من غير ضبط ولا تخصيص لأحد دون أحد .

(٧) يقال للأقارب « فخر الملوك ، وجمال الملوك ، وعز الملوك ، وزين الملوك » وللأماثل «معين الملوك ونصرة الملوك» وما أشبه ذلك .
ولأمراء الأعيان « حسام أمير المؤمنين — سيف أمير المؤمنين » .

---

(١) الذى سنذكره فى الفقرة الاثنتى عشرة التالية مستقى من كلام القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٧ ص ١٩ ، ٢٠ .

ولكبراء الدولة من الكتاب « خاصة أمير المؤمنين – ولى أمير المؤمنين – صفى أمير المؤمنين – ثقة أمير المؤمنين – صنيعة أمير المؤمنين » على مقدار رتبهم .

(٨) يكون الدعاء للملوك بمثل » ادام الله أيامه – خلد سلطانه – ثبت دولته وما أشبه ذلك .

(٩) التحميد فى أوائل الكتب لا يكون إلا فى الكتب الصادرة عن السلطان وغاية عظمة المكتوب إليه أن يكون التحميد مرتين أو ثلاثاً ثم يؤتى بالشهادتين ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم .

(١٠) يكتب فى الكتب السلطانية: صدرت أو أصدرت أو أصدرناها . ولا يكتب (كتبت) .

(١١) لا يكتب عن السلطان لمن هو تحته إلا بنون الجمع لدلالتها على العظمة .

(١٢) يختصرون فى نعوت المكتوب إليهم من الملوك مع إطالتهم فى هذه النعوت إذا كتبوا إلى وال للسلطان أو أى تابع ، وكلما كانت النعوت أكثر كان ذلك أشرف للمكتوب إليه .

هذه الرسوم لم تكن بهذا التفصيل فى الدولة الفاطمية مما يدل على أن الكتابة الديوانية صارت تخضع لقيود جديدة لأن قواعدها قد تأصلت فى مصر، أو قل كذلك إن كل رئيس للديوان فى عصر أحب أن ينسب إليه تجديد فى الكتابة ، فكما أن عبد الحميد كاتب بنى مروان كان أول من أطال التحميدات ، وأنه أول من اخترع صورة التعقيب بالحمد بعد البسملة مفصولا عنها بأما بعد فيقول مثلا :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله .

وكما أن الرشيد أول من أمر بالصلاة على النبي بعد الحمد لله فعدت من مناقبه ، فكذلك كل رئيس فى الكتابة يحب أن ينسب إليه نظام أو تغيير فى بدء أو ختام .

وهذه الرسوم التى انتهى إليها الكتاب فى الدولة الأيوبية لم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ما كان عليه الحال بعد ذلك فى دولتى المماليك ، فإنه قد انتهت فيها تلك الرسوم إلى أن نعوت والى الغربية غير نعوت والى الشرقية ، وما يقال لنائب الوجه البحرى غير ما يقال لنائب الوجه القبلى ، حتى احتاجوا إلى كتاب يجمع هذه المصطلحات يكون أمام الكتاب بالديوان يرجعون إليه عند خطاب كل مخاطب حتى لا يتعدى كاتب رسما وضع ولا ينقص من نعت ولا يزيد فيه .

وقد رأيت أن الأيوبيين كانوا يضعون الرسوم واسعةالمجال يشترك فى النعت الواحد جملة من المخاطبين، وقد رأيت أنهم لم يكونوا يفرقون بين أصدرنا الرسالة وأُصدرت وصدرت ، على حين كان كتاب عصر المماليك يفرقون بين هذهالتعابير تفرقة واضحة ويعتبرون بعضها أرقى من بعض . وسيمر بك ذلك فى حديث الكتابة الديوانية فى عصر المماليك .

الكتابة الإخوانية

للكتابة الإخوانية مصطلحات فى عهد الدولة الأيوبية ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى (١) وملخص ما قاله أن الابتداء عندهم لم يكن لهم فيه ضابط فكانوا يبتدئون بالدعاء للمجلس ، وذلك هو الغالب فى مكاتباتهم كما كتب القاضى الفاضل إلى العماد الأصفهانى :

«أدام الله أيام المجلس التى هى لحسنات المدل مديلة ، ولعثرات المقل مقيلة ، ولمعاطف العز مميلة ، ولمقاطف الفوز منيلة ، ولقداح الجدوى مجيلة ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحة ، والآراء بمراســمه ناجحة ، ومتاجر المفاخر بموالاته رابحة . وأيدى الآمال لأياديه بمصافاته مصــافحة ، وأرواح أوليائه بروح آلائه فى مواطاة أعطياته عابقة فائحة ، وأدعية الداعين لأيا من أيامه ، المذعنين لعهود إنعامه طيبة صالحة» .

وقد يبتدئون بالغرض من غير تقديم الدعاء . كما كتب العماد الأصفهانى فى اعتذار عن تأخر المكاتبات :

«إن تأخرت مكاتباتى فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مصدود واللقم مسدود والبلد محصور» .

ثم يقول القلقشندى : إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التى لا يسع استيعابها ولا حاجة إلى الإمعان فى ذكرها .

وأغفل بعد ذلك ذكر خواتم الكتب . ولعله أحال فى ذلك على ما كان متبعاً قبل ذلك وهو ما فصلناه فى كلامنا عن الكتابة فى الدولة الطولونية .

---

(١) ج ٨ ص ١٦٧ .

يحسن أن نؤنسك بذكر بعض من تولى الكتابة بديوان الإنشاء بمصر أيام هذه الدولة وهم :

(١) فخر الدولة الأسوانى : إبراهيم بن محمد . ذكرناه فى الشعراء ونقول : إنه كاتب كتب الإنشاء للملك صلاح الدين بن أيوب ثم لأخيه العادل . ذكره فى حسن المحاضرة (١) مات سنة ٥٨١ .

(٢) ابن برى . عبد الله المقدسى ثم المصرى النحوى الذى انتهى إليه علم العربية فى زمانه وقصد من البلاد لتحقيقه وتبحره ، ومع ذلك فله حكايات فى سذاجة الطبع . يروى عنه أنه كان يلبس الثياب الفاخرة ويأخذ العنب والبيض فى كمه فيقطر ماء العنب على رجله فيرفع رأسه ويقول : العجب أنها تمطر مع الصحو . (٢)

وكان مع علمه هذا لا يتقيد فى كلامه بالإعراب . بل يسترسل بالعامية . قال يوماً لبعض تلاميذه اشترلى هندبا بعروقو فقال له تلميذه هندبا بعروقه فقال لا تأخذه بعروقو وإن لم يكن بعروقو فما أريده (٣) .

وإنما ذكرناه فى كتاب ديوان الإنشاء لأنه وكل إليه فى عهد الدولة الأيوبية تصفح الرسائل بديوان الإنشاء فلم يكن يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحى . إلا بعد تصفحه ليصلح ما لعله يكون فيه من خلل خفى . فهو لاتصاله بالديوان وعرفانه بمصطلحاته وما تجرى به رسومه يعد من رجال هذا الديوان ، ولذلك ذكرته فيهم وإن كان وصفه الأول أنه عالم نحوى لغوى . مات سنة ٥٨٢ هـ .

(٣) القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على اللخمى البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرى خدم الدولة الفاطمية ثم الأيوبية فوزر لصلاح الدين وكان أثيراً عنده . ثم لابنه العزيز وبقيت له عنده منزلته التى كانت له عند أبيه ، ثم المنصور ، ولم يزل كذلك إلى أن دخل الملك العادل مصر فاتفق موت القاضى الفاضل يوم دخوله (٤) .

---

(١) ج ١ ص ٣١٥ .
(٢) الشذرات ج ٤ ص ٢٧٣ .
(٣) الوفيات ج ١ ص ٢٦٨ .
(٤) الوفيات ص ٢٨٥ .

وقد قالوا : إن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد فى أكثرها وسنقرر بالتفصيل القول فى طريقته التى عرفت به واتبعها الكتاب من بعده . مات سنة ٥٩٦ هـ .

(٤) عماد الدين الأصبهانى أبو عبد الله محمد بن صفى الدين . نشأ بأصبهان ثم رحل إلى بغداد، وتلقى دروسه بالمدرسة النظامية وكان شافعى المذهب، ثم رحل إلى الشام وخدم السلطان نور الدين وعرفه إذ ذاك صلاح الدين الأيوبى وقد مدحه العماد بقصائد عدة . ثم كان القاضى الفاضل سبب اتصاله بخدمة صلاح الدين فكان ينوب عنه فى خدمة السلطان بالشام إذا بقى القاضى الفاضل بمصر .

وكان أول ما عمل فى الكتابة متهيباً لها ولو أنه كان يجمع جميع أدواتها قال « بقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ولا تقدمت لى به دربة » (١) .

فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى بالغرائب. وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية (٢) . مات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ .

(٥) الأسعد بن الخطير مهذب الدين بن مماتى : كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، وكان كاتباً شاعراً . نظم سيرة صلاح الدين. وكتاب كليلة ودمنة وله ديوان شعر .

لقيه ابن خلكان بمصر وهو متولى ديوان الجيش للملك الناصر ، وكان هو وجماعته من النصارى فأسلموا فى ابتداء الملك الصلاحى .

ومماتى لقب جده غلب عليه لأنه كان محسناً إلى فقراء المسلمين فكانوا إذا رأوه قالوا له : مماتى أى يا أمى . مات سنة ٦٠٦ هـ .

(٦) هبة الله بن سناء الملك صاحب ديوانى الشعر وقد تكلمنا عنهما فى الحديث عن الشعراء .

كان أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء كثير النعم وافر السعادة محظوظا من الدنيا . ولى ديوان الإنشاء بمصر مدة وله رسائل دارت بينه وبين القاضى الفاضل وغيره جمع منها شيئا فى كتاب سماه « فصوص الفصول » وهو مخطوط . (٣) مات سنة ٦٠٨هـ .

(١) الوفيات ج ٢ ص ٧٤ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الأعلام للزركلى ح ٣ ص ١١٧ .

(٧) ابن بصاقة ، فخر القضاة نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى الغفارى . كاتب الإنشاء كان أكتب أهل عصره بلا مدافع ، وأعرفهم بالقواعد الإنشائية وأجودهم ترسلا وأحسنهم عبارة وأطولهم باعا فى الأدب . (١) مات سنة ٦٤٦ .

(٨) بهاء الدين زهير : من فضلاء مصر فى عصره نظما ونثرا وخطا ، ومن أكبرهم مروءة اتصل بخدمة الملك الصالح وأقام على خدمته إلى أن خرجت عليه العساكر واعتقل بالكرك ، فأقام بهاء الدين لا يتصل بأحد حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصرية فخدمه البهاء ثانية ، وكان وافر الكرامة عنده وخدم بهذا الجاه كثيرين .

لقيه بالقاهرة القاضى ابن خلكان فرأى فوق ما سمع عنه من مكارم الأخلاق ومات البهاء بوباء فلم يستطع ابن خلكان الصلاة عليه لمرضه . فلما برئ زار قبره وترحم عليه وقرأ عند قبره شيئا من القرآن (٢) .

وكم كنا نود أن نطلع على شىء من كتابة البهاء لنوازنها بشعره فهل كان فى كتابته كما هو فى شعره متميزا عن رجال عصره بالسهولة التى تكاد تسيل ؟ ! !

وإن مما يؤسف له أن التاريخ لم يحفظ من الرسائل إلا رسائل المشهورين جدا فصار الحكم على عصرهم فى الواقع حكما عليهم وحدهم . مات سنة ٦٥٦هـ .

(٩) السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك : هو الشاعر المشهور وقد تكلمنا عن ديوانه سابقا . كتب بديوان الإنشاء بمصر مدة (٣) ، وكان بارع الترسل وله تآليف منها اختصاره لكتاب الحيوان للجاحظ . مات سنة ٦٥٨هـ .

نماذج من كتابة الإنشاء

(١)

كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن يستقدمه إليه معاونا له على قتال الفرنج ويبشره بفتح كوكب وصفد والكرك فى سنة ٥٨٤ : (٤)

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦ .
(٢) الوفيات ج ١ ص ١٩٥
(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٥ .
(٤) صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٣

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس . ومما تجدد بحضرتنا فتوح «كوكب» وهى كرسى الاستبارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم . وكان بمجمع الطرق قاعدا ولملتقى السبل قاصدا فتعلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت وسلكت الطرق فيها وأمنت وعمرت بلادها وسكنت . ولم يبق فى هذا الجانب إلا صور.ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن . وما هم بحمد الله فى حصن يحميهم بل فى سجن يحويهم بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء وأموات وإن كانوا أحياء قال الله عز وجل «فلا تعجل عليهم فإنما نعد لهم عدا» ولكل امرئ أجل لابد أن يصدقه غائبه وأمل لابد أن يكذبه خائبه .

وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحت صفد بلد الديوية ومعقلهم ومشتغلهم وعملهم ومحلهم الأحصن ومنزلهم. وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه والمجلس السيفى (أسماه الله) أعلم بما كان على الإسلام من مئونته المثقلة وقضيته المشكلة وعلته المعضلة . وأن الفرنج (لعنهم الله) كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع ويتبوءون منه مواضع للنفع ويحولون بين قات وراكبها فيذللون الأرض بما كان منه ثقلا على مناكبها .

والآن ما أمن بلاد الحرمين بأشد من أمن بلاد الحرمين . فكلها كان مشتركا فى نصرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت ترامى ولا ترام وتسامى ولا تسام،وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال،وأنفقنا فيها أعمار الرجال،وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال . والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام .

وإن بلاد الشام اليوم لاتسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما . وكان نزولنا على كوكب والشتاء فى كوكبه ، وقد طلع بيمن الأنواء فى موكبه والثلوج تنشر على البلاد ملاءها الفضيض وتكسو الجبال عمائمها البيض . والأودية قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها وشمخت أنوفها سيولا ، فخرقت الأرض وبلغت الجبال طولا . والأوحال قد اعتقلت الطرقات ومشى المطلق فيها مشية الأسير فى الحلقات . فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر وكاثرنا العدو والزمان وقد يحرز الحظ المكاثر . وعلم الله النية فأنجدنا بفضلها وضمير الأمانة فأعان على حملها . ونزلنا من رءوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها، والوقوف بساحتها أهون من نقلها . وأما بنعمة ربك فحدث» .
ومنها يقول فى استنجاد :

«فالبدار إلى النجدة البدار والمسارعة إلى الجنة فإنها لاتنال، إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار . والهمة الهمة فإن البحار لاتلتقي إلا بالبحار والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار .

وما هي إلا نهضة تورث العلا ليومك ماحنث روازم نيب »

والكتاب بعد ذلك طويل نكتفي منه بهذا .

(٢)

نسخة كتاب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب إلى بعض أمراء الشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود وهي : (١)

«كتابنا هذا إلى الأمير معزين في الرزء الذى كمنت أقسامه ونمت، ورمت أحداثه القلوب فأصمت ، وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمت . وأبى أن تعفو كلومه، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره وتتكدر نجومه ، وثلم جانب الدين لفقد من لولاه لدرست أعلامه ولم تدرس علومه . وفجأ فاستولى على كل قلب وجيبه وعلى كل خاطر وجومه، بانتقال المولى « نور الدين » إلى سكنى دار السلام، وقدومه على ما أعد الله له من جزاء ذبه عن الإسلام . وبكى أهله على فقد عزائمه التى بها حفظت وحرست . وشكت الممالك وحشة بعده ، وإن ابتهجت الملائكة بقربه وأنست . فلله هو من مصاب أغرى العيون بفيضها والنفوس بغيظها ، ونقل الأولياء من ظل المسرة ونعيمها إلى هجير المساءة وقيظها، وأوجب تناجى الكفار بالنجاة من تلك السطوه التى لم تزل تزيدها غما وتردها بغيظها .

مهنئين بما أسا الكلم وداواه، وحوى الحق إلى الجانب الأمنع وآواه، من جلوس ولده «الملك الصالح» ذى التصويب والتسديد مشمولا منا بالعرف العميم والطول الجسيم. جاريا على سننه المعهودة وعادته المحمودة ، فى رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرته ، وخلوص عقيدته مستمرا على جميل تحيته . فى إمدادنا ببركته إن شاء الله تعالى .

(٣)

ولد للعزيز بن صلاح الدين ولد بالقاهرة وصلاح الدين أبوه إذ ذاك بالشام فكتب إليه القاضي الفاضل يهنئه بميلاد حفيده قال : (٢)

---

(١) صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٧ .

« المملوك يقبل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر دام رشده وإرشاده، وزاد سعده وإسعاده، وكثر أولياءه وعبيده، وأحفاده واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال آدم الملوك وهذه أولاده . وينهى أن الله تعالى (وله الحمد) رزق الملك العزيز (عز نصره) ولدا مباركا عليا ، ذكراً سريا براً زكيا نقيا تقيا ، من ورثة كريمة بعضها من بعض . وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة فى السماء ومماليكه ملوكا فى الأرض » .

(٤)

كان القاضى الفاضل قد حج من مصر سنة ٥٧٤ ﻫ وركب البحر فى طريقه فكتب إليه العماد الأصبهانى : (١) « طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ومنير الدجا ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم ومن حاطم فقار الفقر للحطيم . ومتى رؤى هرم فى الحرم وحاتم ماتح زمزم . ومتى ركب البحر البحر ، وسلك البر البر . لقد عاد قس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحفاظه . وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال . والسلام .

(٥)

للعماد الأصفهانى من كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » يذكر فتح عكا :
« ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على أهل التثليث، مديلا للطيب مزيلا للخبيث. وسار عسكره وثار عثيره ، وظهرت راياته وبهرت آياته ، ونعرت كوساته وصاحت بوقاته، وجالت خيوله وسالت سيوله، وطلعت فى سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه، وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد والصلاب وفصحت بإعراب الحماحم صواهل الجياد العراب . والأسنة مشرعة والأعنة مسرعة ، وبحور السوابح متموجة مترجرجة، وبوارق البيارق متبوجة؛ وأوضاح الجرد وعززها كأوضاح النصر وعززه متبلجة، ونزل عشية بأرض لوبية لداعى الفتح ملبيا ولجيش النصر معبيا؛ ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا، وبات بها معرسا بانيا على

---

(١) الوفيات ج ٢ ص ٧٥ .

عروس الظفر البكر جانيا ثمار الأمانى من غروس البيض والسمر ، وأصبح وقد أصحب جماح الدهر وصح نجاح الأمر » .

تفسير ما ورد بهذه القطعة من الفاظ .

الكوس : الطبل (معرب) . الخرصان (بالضم والكسر) : جمع خرص (مثلثة) وهو الرمح . القلاقع لعلها جمع قلاع وهى جمع قلعة وهى الحصن فى الجبل . الصلادم : جمع صلدم وهو الفرس الشديد الحافر . الصلاد : جمع صلد وهو الصلب الأملس (يريد الحجارة الشـــديدة) . الحماحم : جمع حمحمة وهى صوت الفرس حين يقصر فى الصهيل . تبوج البرق : تكشف

طريقة القاضى الفاضل :

نشأ القاضى الفاضل بعسقلان وفيها تلقى أوائل علومه على أبيه وغيره ثم قدم إلى مصر وحصل بالقاهرة فاتصل بخدمة ديوان الإنشاء ثم توجه إلى الاسكندرية للخدمة فى ديوان ابن حديد قاضيها . فكانت الكتب التى ترد عنه إلى القاهرة بقلم القاضى الفاضل، وكانت بليغة فعرفت فى القاهرة مقدرة القاضى الفاضل فاستقدم إليها أيام الخليفة الظافر ودخل فى اعداد كتاب الإنشاء ، غير أنه لازم التحصيل والاستفادة ولم يقنع بما وصل إليه ، وكان يكتب بديوان الإنشاء حين قدم إليه القاضى الفاضل كافى الكفاة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وكان شيخا جليلا فى فنه فاستفاد من القاضى الفاضل كثيرا واعترف بفضله عليه حتى إنه كان يسميه ذاالبلاغتين .

ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب زمن وفاته سنة ٥٦٦هـ فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين فاستفاد من ذلك وبه تخرج (١) .

كان اتصال القاضى الفاضل بهذين المنشئين الكبيرين سببا فى نبوغه مضافا ذلك إلى ماله من طبع موات وسليقة سليمة واجتهاد فى التحصيل . فوصل إلى ما وصل إليه من فضل .

أما الطريقة التى اختطها لنفسه وعرفت به ثم شاعت وأعجب بها الناس فقلدوها ومرت روحها فى أزمان متعاقبة بعد صاحبها فهى طريقة أول ما يقال فيها أنها عويصة لاتطاوع كل محاول ولا تسلس لكل سائس .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٤

ذلك أنها بنيت على السجع الملتزم والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح والجناس . ثم ظهر فيها أكثر من ذلك نوعان من البديع عويصان جدا هما التورية والاستخدام .

هذه المجموعة من البديعيات متمثلة فى رسائل القاضى الفاضل لاتكاد تخلو رسالة منها أو من بعضها ، فالسجع الملتزم أمر يثقل على الكاتب وينبو عنه سمع السامع ، فهو يكد خاطريهما إلا إذا كانت المقدرة البلاغية تستره فى أغلب أحيانه فإن تكلفه تختفى حين ذاك.

أما الاستعارة فإنها كانت تعهد كثيرا فى الشعر فهى من أساليبه التى كانت خاصة به إلى حين ثم أغار عليها الكتاب فأدخلوها فى رسائلهم . ولا يقال إن القاضى الفاضل أول من فعل ذلك فإن العهد بإدخال الاستعارات فى الترسل بعيد .

أما الأنواع البديعية وهى الطباق ومراعاة النظير والتلميح والجناس فإنها تساوق الطبع أحيانا ولاينبو عنها الذوق كثيرا إذا روعى فيها الإقلال وعدم التكلف لها خصوصا الجناس .

بقى النوعان العويصان جدا وهما التورية والاستخدام فهذان إن سلما مرة لمتعمدهما لايسلمان أخرى فكيف بمن عول أن يلتزمهما فى كل مناسبة .

إن ذلك يخرج بالكلام إلى التكلف الممقوت . وقد كان ذلك ممكن الحصول فى منشآت القاضى الفاضل فتبدو نابية عن الذوق ظاهرة التكلف لولا أن الرجل بمهارته الفنية استطاع ستر تكلف هذين النوعين إلى حد ما .

فكانت النتيجة أنه حمل كتابه بكل ما يتوقع به التعثر فى طريق البلاغة لولا أن الذى كان يقود الموكب ماهر فاستطاع أن يتجنب كل اصطدام ويتفادى كل وعورة قدر المستطاع .

ولكن طريقة القاضى الفاضل أعجبت الناس ورأوا أن شهرته إنما جاءته من ناحيتها فعملوا على محاكاته فيها ولم يستتموا أدواته فظهر التكلف فى كل قول جاء به صاحبه محاكيا لقول القاضى الفاضل .

وفيما نقلناه من الأمثلة وما لم ننقله ويمكنك تتبعه فى صبح الأعشى وغيره ، تجد طريقة القاضى الفاضل متمثلة ينطبق عليها ما ذكرناه لها من حدود وأوصاف .

العلوم فى الدولة الأيوبية

لقد مر بك من القول فى فضل الأيوبين فى أنفسهم ؛ أدبا وعلما ومخافة لله . وإقبالا على إعلاء كلمة الإسلام بالعمل الصالح وخضد شوكة الصليبيين وأنهم فى سبيل كل ذلك لم يدخروا جهدا ولا مالا ، وأنهم أول من أنشأ المدارس بمصر على نهج المدرسة النظامية ببغداد وحبسوا عليها الأوقاف الكافية الضامنة لوظائف متوليها ومدرسيها وجرايات طلابها .

كما مر بك ما كان من تعرفهم لفضل العلماء وإدنائهم لهم وترغيبهم فى صحبتهم والحضور إلى مصر إن كانوا نازلين بغيرها. قالوا: إن صلاح الدين كان يقرب علماء الحديث فكان إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر عنده سمع منه وأسمع وأولاده ومماليكه ، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن لم يكن المحدث ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه (١) .

ومن أمثلة ترغيب العلماء فى الحضور إلى مصر ما فعله العزيز بن صلاح الدين بالحسن ابن الخطير النعمانى وما كان من إجرائه عليه ستين دينار أو مائة رطل خبز فى الشهر وخروفا وشمعة كل يوم (٢) وكذلك حديث تاج الدين أبى اليمن واختصاصه بفرخ شاه بعد أن عرف فضله فى مجلس القاضى الفاضل، فإنه ألزم صحبته إلى أن مات فاتصل بعده بتقى الدين أخى فرخ شاه فكثرت أمواله (٣) .

والخبوشانى الذى كان بمصر على أيام الفاطميين منكسر الحال لا يناله من الدولة شىء ولا يعرفه رجالها مع فضله العظيم ومقداره الكبير ، لم يلبث صلاح الدين بعد قبضه على الأمور بمصر أن قربه إليه لما يعتقده فيه من العلم والدين فكان يعمل بإشارته ، وهو الذى أشار عليه بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى فلما عمرها فوض إليها تدريسها (٤) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .
(٢) البغية ص ٢١٩ .
(٣) كتاب الروضين ج ٢ ص ٣٣ .
(٤) الوفيات ج ١ ص ٤٢١ .

وكان الملك الكامل محبا للحديث وأهله حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف . خرج له أبو القاسم الصفراوى أربعين حديثا وسمعها جماعة واستجاز له أبوه الحافظ السلفى فأجازه (١) .

وقالوا عنه أيضا إنه كان معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا فى نشرها والتمسك بها مؤثر اللاجتماع بالعلماء والكلام معهم حضرا وسفرا (٢) .

وهاك فاسمع حديث ابن غنائم الأنصارى المعروف بابن نجية الفقيه الحنبلى الواعظ المفسر نزيل مصر الذى اقتنى أموالا طائلة، وكان يتنعم تنعما زائدا حتى كان مايعمل فى داره من ألوان الطعام لايعمل مثله فى دور الملوك وكان مع كثرة ما يأخذ من الخلفاء والملوك لايبقى على شىء، وقد عرف عنه العزيز بن صلاح الدين سلطان مصر أنه قد أصابه ضيق بسبب دين ركبه فأعطاه مايزيد على أربعة آلاف دينار (٣) .

والشهاب الطوسى نزيل مصر أيضا كان يركب فى الغاشية والسيوف المسلولة، وبين يديه من ينادى هذا ملك العلماء ، فكان ملوك مصر يرضون عن هذا ولا يعارضون على حين أنه لما فعل ذلك ببغداد منع منه ، وقد بنى له الملك عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنال العز .

وقد وعظ الشهاب بجامع مصر و كان معظماً عند الخاص والعام طويلا مهيبا مقداما يرتاع منه كل أحد ويرتاع هو من الخبوشانى (٤)

والأمثلة لإكرام الأيوبيين للعلماء لا تكاد تنتهى فلنكتف بما ذكرنا .

أما أنواع العلوم بمصر على أيام الأيوبيين فهى علوم الشرع واللغة وكل ما كان معروفاً فى أيامهم من العلم فى نواحى الممالك الإسلامية، اللهم إلا الفلسفة التى رحب بها الفاطميون أيام خلافتهم بمصر، فإن الايوبيين كانوا يكرهونها ويحاربونها ويحاربون رجالها ، فقد كان صلاح الدين على قدر حبه لرجال الحديث والدين عامة وسعيه للقائهم، يبغض كتب الفلسفة وأرباب المنطق وكل من يعاندالشريعة، ولما بلغه عن السهر وردى مامر بك مر الملك الظاهر بالشام فقتله (٥) .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠.

(٣) الشذرات ج ٤ ص ٣٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٢٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .

والشأن فى بقية ملوك هذه الدولة هو شأن عاهلها، وقد عرفت آراءهم فى رجال الحديث والسنة وتعلقهم بهم وإكرامهم لهم .

وأخيرا فإن الفلسفة والمنطق وكل ما يجر إلى الإلحاد أو يكون منه بسبب لم تلق بمصر تشجيعا أيام الايوبيين ، بل لقيت كل محاربة .

علماء الدولة الأيوبيـــة

١ – الحافظ السلفى (أحمد بن محمد) : طارئ ، (–٥٧٦) ، محدث جاب البلاد فى طلب الحديث ثم استقر بالإسكندرية منذ سنة ٥١١ إلى أن توفى بها . قصده الناس من الأماكن البعيدة وبنى له ابن السلار مدرسة وفوضها إليه (١)

٢ – الخبوشانى نجم الدين (محمد) : طارئ ، (–٥٨٧) ، سنفرد له ترجمة بعد هـــذا .

٣ – إبراهيم بن منصور : أصيل ، (–٥٩٠) ، مصرى رحل إلى بغداد فعرف بالمصرى ثم عاد إلى مصر فعرف بالعراقى . كان فقيها شافعياً شرح « المهذب » لأبى إسحاق الشيرازى فى عشرة أجزاء وكان خطيباً بجامع مصر (جامع عمرو)

٤ – الاشكيدبانى (محمد بن عبد الله) : طارئ، (–٥٩٠) ، حنبلى سمع بمصر من أبى الطاهر الزيات وبالإسكندرية من الحافظ السلفى ، وحدث بهما ونزل مكة فى أواخر عمره فكان عظيم الحنابلة بها . (٢)

٥ – محمد بن بنان الأنبارى : أصيل (–٥٩٦) ، أهله من الأنبار. كان شيخاً جليلا عالماً أديباً كاملا بليغاً يكتب الخط الحسن ويقول الشعر الجيد تولى ديوان النظر فى الدولة المصرية ، وتقلبت به الخدم فى الأيام الصلاحية . وكان القاضى الفاضل محمد يغشى مجلسه ويمدحه ويفتخر بالوصول إليه (٣) .

٦ – الشهاب الطوسى (محمد بن محمود) : طارئ ، (–٥٩٦) ، شيخ الشافعية درس وأفتى ووعظ . وكان يركب بمصر بالغاشية والسيوف المسلولة وبين يديه

---

(١) ترجمته فى الوفيات ج ١ ص ٣١

(٢) الشذرات ج ٤ ص ٣٠٤

(٣) الفوات ج ٢ ص ١٩٣

من ينادى : هذا ملك العلماء ، وبنى له الملك عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنال العز وانتفع به كثيرون (١) .

٧ — الحسن بن الخطير النعمانى : طارئ ، (–٥٩٨) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .

٨ — ابن الحاج القناوى : أصيل (–٥٩٨) ، كان قيما بالعربية وله فيها تصانيف ، حسن العبارة لم ير قط ضاحكاً ولا هازلاً ، وكان ملوك مصر يناطونه ويرفعون قدره مع كثرة طعنه عليهم وعدم مبالاته بهم سمع من السلفى ، وحدث (٢)

٩ — ابن غنايم (على بن إبراهيم) المعروف بابن نجية : طارئ ، (–٥٩٩) ، تعلم بدمشق وسمع بها وببغداد ودخل مصر بزوجته فاطمه بنت شيخة ببغداد وسعد بن الخير . اقتنى أموالا عظيمة وتنعم تنعماً زائداً وكان بداره عشرون جارية كل جارية بألف دينارا وكان يعمل بداره من ألوان الطعام مالا يعمل بدور الملوك . وطالما أعطاه الملوك والخلفاء أموالا ومع ذلك مات فقيراً . اتصل بالعزيز ابن صلاح الدين أنه فى ضيق من دين ركبه فأعطاه ما يزيد على أربعة آلاف دينار (٣) .

١٠ — ابن درباس (عثمان) : طارىء (–٦٠٢) ، كان من أعلم الفقهاء فى وقته بمذهب الشافعى وهو أخو القاضى صدر الدين الحاكم بالديار المصرية ، ناب عن أخيه فى الحكم . وكان صلاح الدين الأيوبى قد فوض إليه القضاء بالديار المصرية بعد أن كان قاضى الغربية .

وقف عليه الأمير جمال الدين الهكارى مدرسته وفوض إليه تدريسها ولم يزل بها إلى أن توفى (٤).

١١ — ابن الأنجب (على) : أصيل (–٦١١) ، ولد بالإسكندرية وكان فقيهاً فاضلا فى مذهب الإمام مالك ومن أكابر الحفاظ ، صحب الحافظ السلفى نزيل الإسكندرية وانتفع به ، وكان ينوب فى الحكم بالإسكندرية وبها درس

(١) الشذرات ج ٤ ص ٣٢٧
(٢) البغية ٢٦٧ .
(٣) الشذرات ج ٤ ص ٣٤٠
(٤) الوفيات ج ١ ص ٣١١

وانتقل إلى القاهرة ودرس بها بالمدرسة الصاحبية وهى مدرسة الوزير صفى الدين المعروف بابن شاكر (١) .

١٢ – عبد الحكم بن إبراهيم بن منصور : أصيل ، (–٦١٣) ، تولى الخطابة بجامع مصر بعد أبيه ، وكان شاعراً له أشعار حسنة نادرة (٢)

١٣ – صالح الأموى : طارئ ، (–٦١٤) ، مكى قدم مصر فسمع من الأرتاحى والسلفى وجماعة من المصريين ولازم ابن برى حتى برع فى الفقه وكان مفيد مصر فى زمانه (٣) .

١٤ – سليمان الدقيقى : أصيل ، (–٦١٤) ، لازم بن برى مدة فى النحو وسمع منه وصنف فى العروض والنحو والرقائق وقد ذكر السيوطى من كتبه أربعة وثلاثين أغلبها فى النحو والعروض والبلاغة (٤) .

١٥ – أبو طاهر العقيلى : أصيل ، (٦٢٣) ، كان من سادات المصريين وعلمائهم ونبلائهم وكان عالماً بالقراءات والعربية مع دين متين وزهد وورع (٥) .

١٦ – البلنسى الحافظ (عمر) : طارئ ، (–٦٣٣) ، من أعيان العلماء متقن لعلم الحديث وما يتعلق به ، طلبه فى أغلب بلاد الأندلس. عارف بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، مات بالقاهرة (٦)

١٧ – ابن الحاجب (عثمان بن عمر) : أصيل ، (–٦٤٦) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .

١٨ – سليمان الحلى : طارئ ، (٦٥٠) ، كان من كبار النحاة . سكن مصر ودرس بالفيوم وحكم بها وأقرأ الكتاب (كتاب سيبويه) إقراءجيداً واختص بالملك الكامل (٧) .

---

(١) الوفيات ج ١ ص ٣٢٩

(٢) الوفيات ج ١ ص ٥ (فى ترجمة بن ابراهيم بن منصور)

(٣) البغية ص ٢٦٩

(٤) البغية ص ٢٦١

(٥) البغية ص ١٩٦

(٦) الوفيات ج ١ ص ٣٨١ .

(٧) البغية ص ٦٣٢

١٩ – شرف الدين النحوى (محمد) : طارئ ، (–٦٥٥) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .

٢٠ – ابن القضائى (محمد بن عبد القوى) : أصيل (٦٦٧) نحوى لقب بالأخفش وتصدر بالجامع الظافرى (١) .

٢١ – ابن الظهير المراكشى (محمد) : طارئ ، (–٦٧٦) ، ولد بإربل وسمع بها وببغداد وروى عن الحافظ الدمياطى وكان فقيهاً فاضلا وأديباً شاعراً له النظم والمعرفة بالنحو واللغة . درس بدمشق وقدم مصر وحدث بها (٢) .

٢٢ – سلامة بن سليمان : طارئ ، (–٦٨٠) ، من كبار أئمة العربية أقرأ جماعة بمصر ، وكان من أجل تلاميذ الجمال بن مالك ، وكان الجمال يعظمه جداً ويثنى عليه ويصفه بالفضل . حضر جماعة تصريف ابن الحاجب على الضياء الفارقى فحضرته الوفاة فأوصاهم أن يتموه على بهاء الدين هذا وقال : هو بقية المشايخ (٣) .

٢٣ – ابن عنان الميدومى : أصيل ، (–٦٨٣) ، ولد بالقاهرة سنة ٦١١ ، وكان عارفاً بالقراءات والنحو والحديث سليم الباطن على سمت السلف وهو مخضرم الدولتين (٤) .

٢٤ – ناصر الدين الجذامى : أصيل ، (–٦٨٣) ، ولد بالإسكندرية سنة ٦٢٠ وكان إماماً فى النحو والأدب والأصول والتفسير وله يد طولى فى علم البيان والإنشاء . خطب بالإسكندرية ودرس بجامع الجيوشى وندب بها فى الحكم ثم اشتغل بالقضاء سئل عنه ابن دقيق العيد فقال ما يقف فى البحث عند حد . صنف كتباً كثيرة منها الانتصاف صاحب الكشاف (٥) .

٢٥ – الشاطبى القاسم بن فيره : طارئ ، (–٥٩٠) ، سنفرد له ترجمة فيما بعد .

---

(١) البغية ص ٥٨
(٢) البغية ص ١٥
(٣) البغية ص ٢٥٩
(٤) البغية ص ٥
(٥) البغية ص ٢٠٥

٢٦ — رضى الدين القسطيني : طارئ ، (٦٩٥) ، نشأ بالقدس وأخذ العربية عن ابن معط وابن الحاجب وتزوج ابنة ابن معط ، صار من أكابر أئمة العربية بالقاهرة وكان إلى جانب فضله بالعربية له معرفة تامة بالفقه ومشاركة فى الحديث (١) .

٢٧ — ابن النحاس الحلبي (محمد) : طارئ ، (—٦٩٨) .

٢٨ — أبو الطاهر إسماعيل الزهرى : أصيل ، (—٥٨١) ، تفقه على أبي بكر الطرطوشي وبرع فى مذهب مالك وقصده صلاح الدين وسمع منه الموطأ (٢)

٢٩ — مخلوف بن على : أصيل ، (—٥٨٣) ، مالكى أحد الأئمة الكبار تفقه به أهل ثغر الإسكندرية زماناً (٣)

٣٠ — التاج المسعودى البنجديهى : طارئ ، (—٥٨٤) ، أملى بمصر مجالس حديث ، وكان من الفضلاء فى كل فن : فى الفقه والحديث والأدب (٤)

٣١ — أبو الحسن شجاع بن المدلجى : أصيل ، (—٥٩١) ، فقيه مالكى نحوى قرأ القراءات على بن الحظية وتصدر بجامع مصر (٥) .

٣٢ — علم الدين السخاوى على بن محمد : أصيل ، (—٦٤٣) ، اشتغل بالقاهرة على الشاطبي وأتقن عليه علم القراءات والنحو واللغة ، وسمع بالإسكندرية عن السلفى وبمصر من البوصيرى وابن ياسين شرح المفصل والشاطبية وكان قد قرأها على صاحبها ، وكان يسمع لقارئين أو ثلاثة وكل يقرأ فى موضع خلاف موضع الآخر فيرد على الجميع أغلاطهم (٦) .

(١) الشذرات ج ٤ ص ٢٦٨
(٢) المرجع السابق ص٣٠٦ .
(٣) الشذرات ج ٤ ص ٢٧٦
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٠
(٥) المرجع السابق ص ٣٠٦
(٦) الوفيات ج ١ ص ٣٤٥ .

تراجم بعض علماء الدولة الأيوبية

١ – الخبوشانى

هو أبو البركات محمد بن الموفق الخبوشانى الملقب بنجم الدين ، الفقيه الشافعى . كان فقيهاً فاضلا كثير الورع ، تفقه على ابن ذكى الدمشقى (قاضى دمشق الذى كانت له عند صلاح الدين الأيوبى المنزلة العالية والمكانة المكينة حتى إنه لما فتح بيت المقدس تطاول العلماء إلى الخطابة يوم الجمعة وأعد كل منهم خطبة بليغة فخرج المرسوم إلى القاضى ابن ذكى هذا .

وكان الخبوشانى قوى الحفظ حتى إنه كان يستحضر كتابه « المحيط فى شرح الوسيط » ونقل عنه أنه عدم الكتاب فأملاه من خاطره . وذكر بن خلكان أنه رأى له كتاباً يسمى تحقيق المحيط وهو كبير فى ستة عشر مجلداً .

وذكروا أن العاضد آخر خلفاء الفاطميين رأى فى منامه أن عقرباً خرجت إليه من مسجد بمصر (هو يعرفه) فلدغته فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبرى الرؤيا وقص عليهم الحلم فقال له : ينالك مكروه من شخص يقيم فى المسجد الذى رأيته فى المنام فطلب العاضد والى مصر وقال له : اكشف لى عمن هو مقيم بهذا المسجد فمضى الوالى إليه فرأى رجلا صوفياً (هو نجم الدين الخبوشانى هذا) فأخذه ودخل به إلى الخليفة فسأله من هو ومن أين قدم البلاد وفى أى شىء قدم فأجابه على كل سؤال . فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه ، أعطاه شيئاً وقال له يا شيخ ادع لنا وأطلق سبيله فنهض من عنده وعاد إلى المسجد .

فلما استولى صلاح الدين على مصر وعزم على القبض على العاضد وأشياعه واستفتى الفقهاء فى قتله فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأتباعه من انحلال العقيدة وكثرة الوقوع فى الصحابة والاستهتار بذلك وكان أكثرهم مبالغة فى الفتيا هذا الصوفى المقيم فى المسجد فإنه عد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام فى ذلك ، فصحت بذلك رؤية العاضد .

ولما ملك صلاح الدين مصر قرب الخبوشانى وأكرمه ، لما يعتقد فى علمه ودينه ويقال إنه هو الذى أشار على صلاح الدين بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى فلما عمرها فوض إليه تدريسها والخبوشانى : نسبة إلى خبوشان وهى بليدة بناحية نيسابور ، ولما توفى رحمه الله دفن تحت رجلى الشافعى وبينهما شباك . مات سنة ٥٨٧ .

٢ — الشاطبى إمام القراء (١)

هو أبو محمد القاسم بن فيره الشاطبى الضرير المقرئ ، كان أوحد زمانه فى علم النحو واللغة عارفاً لعلم الرؤيا حسن المقاصد فيما يقوله ويفعل. قرأ القرآن الكريم بالقراءات على النفرى المقرى وابن هذيل بالأندلس وسمع الحديث من كثيرين ، وكان أكثر دهره ساكناً يتجنب الفضول من الكلام ولا ينطق إلا بما تدعو إليه الضرورة ، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوه ، وإذا سئل عن حاله قال : بعافية . لا يزيد على ذلك .

دخل القاهرة سنة ٥٧٢ ﻫ وكان يقول عند دخوله أنه يحفظ وقر بعير من العلوم بحيث لو نزل عليه ورقة ما احتملها ، وكان نزيل القاضى الفاضل. وقد رتبه فى مدرسته بالقاهرة فتصدر فيها لإقراء القرآن الكريم وقراءته والنحو واللغة .

وقد نظم القصيدة التى سماها (حرز الأمانى ووجه التهانى) فى القراءات وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً . وقد أبدع فيها وظلت عمدة القراء منذ ألفها إلى اليوم ، وقل من يشتغل بالقراءات من غير أن يقدم لذلك بحفظها ومعرفة رموزها وإشاراتها ، وما يظن أنه سبق إلى أسلوبها .

وقد روى عنه أنه كان يقول : ما يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا نفعه الله بها لأنى نظمتها لله تعالى مخلصاً فى ذلك ، وهى مطبوعة متداولة .

ونظم قصيدة دالية فى خمسمائة بيت من حفظها فقد أحاط علماً بكتاب « التمهيد » لابن عبد البر واسم الكتاب (التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد) والكتاب كبير جداً من أجزاء مخطوطة . وابن عبد البر أندلسى قرطبى مات سنة ٤٦٣ ﻫ .

وكان الشاطبى عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً وبحديث رسول الله مبرزاً فيه . وكان إذا قرئ عليه صحيح البخارى ومسلم والموطأ تصحح النسخ من حفظه ، ويملى النكت

(١) ما فى هذه الترجمة منقول عن البغية ص ٣٧٩ والوفيات ج ١ ص ٤٢٢ .

على المواضع التى تحتاج إليها. والشاطبي : نسبة إلى شاطبة من بلاد الأندلس وبها كان ميلاده .

وفيره : (بكسر الفاء وسكون الياء وتشديد الراء مع الضم وسكون الهاء بعدها لفظ أعجمى باللغة اللاتينية ومعناه بالعربية الحديد .

مات سنة ٥٩٠ هـ ودفن بالقرافة الصغرى وذكر ابن خلكان أنه زار قبره مراراً .

٣ — الحسن بن الخطير النعمانى : (١)

هو أبو على المعروف بالظهير وبالنعمانى أيضاً سئل عن هذه فقال أنا من ولد النعمان ابن المنذر ومولدى بقرية تعرف بالنعمانية ومنها ارتحلت إلى شيراز فتفقهت بها فقيل لى الفارس .

كان عالماً بفنون من العلم وقارئاً للقرآن بالعشر والشواذ وعالماً بتفسير القرآن وناسخه ومنسوخه والفقه والخلاف والكلام والمنطق والحساب والهيئة والطب مبرزاً فى اللغة والنحو والعروض والقوافى ورواية أشعار العرب وأيامها وأخبار الملوك من العرب والعجم .

وكان يحفظ فى كل فن من هذه العلوم كتاباً ، وكان يسرد هذه الكتب كما يسرد القارئ الفاتحة ، وحدث عن نفسه أنه كان يكتب منها ألواحاً ويحفظها كما حفظ القرآن فحفظها فى مدة أربع عشرة سنة . وكان عارفاً باللغة العبرية ويناظر أهلها بها حتى قال بعض رؤساء اليهود لو حلفت أن سيدنا كان حبراً من أحبار اليهود لحلفت .

وكان الغالب عليه علم الأدب حتى إن الشيخ عثمان بن عيسى النحوى البلطى وهو شيخ الناس بالديار المصرية أيام كان بها النعمانى كان يسأله سؤال المستفيد عن حروف من الحوشى ، وسأله يوماً عما وقع فى ألفاظ العرب على مثال شقحطب فقال : هذا يسمى فى كلامهم المنحوت وهذه منحوتة من شق وحطب فسأله البلطى أن يثبت ما وقع من هذا المثال فى كلامهم فأملى عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه .

دخل الشام وأقام بالقدس مدة فاجتاز به العزيز بن صلاح الدين الأيوبى فرآه عند الصخرة يدرس فسأل عنه فعرف منزلته فأحضره ورغبه فى المصير إلى مصر ليقمع به الشهاب الطوسى ، فورد معه وأجرى له كل شهر ستين ديناراً ومائة رطل خبز ، وكل يوم خروفاً وشمعة .

---

(١) هذه الترجمة ملخصة عن معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٠٠ وبغية الوعاة ص ٢١٩ .

وقد ناظر الطوسى فى حضرة العزيز فغلبه الطوسى فانزوى الظهير فى مدرسة الأمير الأسدى يدرس بها مذهب أبى حنيفة إلى أن مات .

أما المناظرة فقد بدأ الظهير الكلام بقوله للعزيز أنت يا مولانا من أهل الجنة فوجد الطوسى السبيل إلى مقتله فقال له : وما يدريك أنه من أهل الجنة وكيف تزكى على الله ومن أخبرك بهذا ؟ ما أنت إلا كما زعموا أن خلدة وقعت فى دن خمر فشربت وسكرت فقالت : أين القطاط ! ! فلاح لها هر فقالت : لا تؤاخذ السكارى بما يقولون وأنت شربت من خمر دن هذا الملك فسكرت فصرت تقول خالياً أين العلماء.

فبهت الظهير ولم يحر جواباً وانكسرت حرمته عند العزيز مات سنة ٥٩٨ .

٤ - ابن الحاجب (١)

أبو عمر عثمان بن أبى بكر بن يونس الفقيه المالكى المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين . كان والده حاجباً للأمير عز الدين قوسك الصلاحى ، وكان كردياً . واشتغل عثمان ابنه بالقاهرة من صغره بحفظ القرآن الكريم ثم بدراسة الفقه على مذهب الإمام مالك ، ثم بالعربية والقراءات وأخذها عن الشاطبى وابن الجود وبرع فى علومه وأتقنها غاية الإتقان .

ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها فى زاوية المالكية وأكب الخلق على الاشتغال عليه والتزم لهم الدروس .

تبحر فى العلوم وكان الأغلب عليه علم العربية، وقد صنف مختصراً فى مذهبه اسمه « مختصر منتهى السول والأمل » وهو مخطوط ، ومقدمة وجيزة فى النحو سماها الكافية ، وأخرى مثلها فى الصرف سماها الشافية وشرح المقدمتين ، وكل ذلك مطبوع . وشرح المفصل للزمخشرى بشرح سماه الإيضاح وهو مفقود وله الأمالى فى النحو فى مجلد ضخم فى غاية التدقيق وهو مخطوط وله « جامع الأمهات » فى فقه المالكية وهو مخطوط أيضاً . وكذلك صنف فى أصول الفقه .

وله « المقصد الجليل » وهى قصيدة فى العروض مخطوطة .

وكل تصانيفه فى غاية الحسن والإفادة .

---

(١) هذه الترجمة مستفادة من الوفيات ج ١ ص ٣١٤ والبغية ص ٣٢٣ والأعلام للزركلى ج ٢ ص ٦٢٩ .

وقد خالف النحاة فى مواضع وأورد عليهم إشكالات والتزامات تصعب الإجابة عنها . وكان من أذكياء العلم .

قال ابن خلكان حضر إلى مراراً بسبب إشهادات وسألته عن مواضع فى العربية مشكلة فأجاب أبلغ إجابة بسكون كثير وتثبت تام . ومن جملة ما سألته مسألة اعتراض الشرط فى قولهم إن أكلت إن شربت فأنت طالق لم تعين تقديم الشرب على الأكل لوقوع الطلاق ، حتى لو أكلت ثم شربت لم تطلق .

وسألته عن بيت المتنبي وهو قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب فى خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر ؟

فأطال الكلام فى ذلك وأحسن الجواب عن المسألتين .

عاد من دمشق فأقام بالقاهرة واشتغل عليه الناس بالمدرسة الفاضلية ثم انتقل إلى الإسكندرية فلم تطل مدته بها فمات سنة ٦٤٦ .

وهو مولود باسنا من صعيد مصر ونشأ كما عرفت بالقاهرة وانتقل إلى دمشق ثم عاد إلى القاهرة ثم مات بالإسكندرية .

٥ ـ شرف الدين النحوى(١)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى الفضل المرسى .

قال عنه ياقوت فى معجمه : أحد أدباء عصرنا ومن أخذ من النحو والشعر بأوافر نصيب وضرب فيه بالسهم المصيب ، تكلم على المفصل للزمخشرى وأخذ عليه عدة مواضع بلغت سبعين أقام البرهان على خطئها . .

أندلسى من مرسية رحل إلى خراسان ووصل إلى مرو الشاهجان وقدم وقدم بغداد وأقام بحاب ودمشق وزار الموصل وحج وزار المدينة ثم انتقل إلى مصر وقد لقيه بها ياقوت سنة ٦٢٤ .

كان نبيلا ضريراً يحل بعض إقليدس ويحفظ صحيح مسلم مجرداً عن السند .

---

(١) هذه الترجمة ملخصة عن معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٠٩ والبغية ص ٦٠

قال عنه ابن النجار فى تاريخ بغداد : هو من الأئمة الفضلاء فى فنون العلم والحديث والقراءات والفقه والخلاف والأصلين (أصل الفقه وأصل التوحيد) والنحو واللغة وله قريحة حسنة وذهن ثاقب وتدقيق فى المعانى ومصنفات فى جميع ما عرف من علوم وله إلى جانب ذلك النثر الحسن والنظم الفائق، وكان زاهداً متورعاً حسن الطريقة كثير العبادة .

ولم يزل يقرئ ويدرس حيث حل ويقر له بالعلم والفضل كل مخالط سمع منه الحفاظ والأعوان من العلماء وبالغوا فى الثناء عليه .

ومن شعريه :

من كان يرغب فى النجاة فما له ... غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره ... سبل الغواية والضلالة والردى
فاتبع كتاب الله والسنن التى ... صحت فذاك إذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فإنه ... باب يجر ذوى البصيرة للعمى
والدين ما قال النبى وصحبه ... والتابعون ومن مناهجهم قفا

مات سنة ٦٥٥ خارجاً من مصر إلى الشام بين العريش والزعفا .

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٧١ —

التأليف (٥٠)

الأدب [٤١]

القاهرة

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
بالاشتراك مع
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

فرع الصحافة